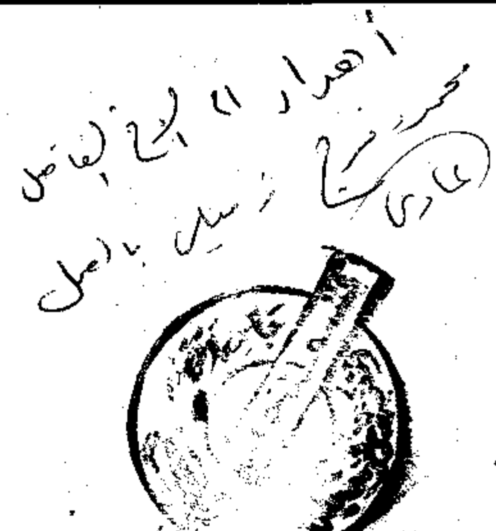
جامعة القاهرة
كلية الآداب
قسم التاريخ





الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية
زمن الأيوبيين

رسالة :

باشراف : الاستاذ الدكتور السيد الباز العريني

مقدمة من : الطالبة زبيدة محمد عطا

للحصول على درجة الماجستير في الآداب قسم التاريخ فرع العصور الوسطى

****

١٩٦٨

محتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـــة

فهـرست الخرائـــط

فهرست الصور

الموضوع	الصفحة

" مقدمـــــة "

العلاقات بين بيزنطة والشرق الاسلامي علاقات بعيدة المـــدى ، فهي ترجع بأصولها الى ظهور الاسلام واستيلاء المسلمين على أغنى الاقاليـــم الشرقية للدولة البيزنطية ، فأصبحت الدولة الاسلامية ندا ومنافسا للدولـــة البيزنطيـــة .

واتخذت العلاقات الاسلامية البيزنطية مراحل تاريخية :ـ

تبدأ المرحلة الاولى بظهور الاسلام الى بداية الحروب الصليبية أواخر القـــرن الحادى عشر الميلادى وتميزت هذه الفترة بالصراع الدائم بين كلا الجانبين ، بل سعت الجيوش الاسلامية الى الاستيلاء على القسطنطينية ، واستـــمرت الدولتان تتبوءان مكانة عظيمة فى تاريخ العصور الوسطى الى أن ظهـــرت عناصر فى تاريخ تلك المنطقة غيرت من طبيعة تلك العلاقات .

من هذه العناصر السلاجقة الذين اخترقوا حدود بيزنطه ، وانتـــزعوا من البيزنطيين آسيا الصغرى منهـــــــــــا ايضا الحركة الصليبيـــة التى اقامت فى العالم الاسلامي فى بلاد الشام امارات استمرت زمنا طويلا ، ولقد لعب هذان العنصران دورا هاما فى العلاقات الاسلامية البيزنطيـــة نظرا لما لبيزنطة من سياسة مزدوجة ، مع العالم الاسلامي فى الشــــرق والعالم المسيحى فى الغرب ، ومن العسير دراسة تلك الفترة الا بالتعـــرف

الى تأثير السلاجقة والصليبيين فى منطقة الشرق الأوسط فى كل مايجرى وقت ذاك من صراع أو اتفاق اسلامى بيزنطى سياسى أو حربى .

أما المرحلة الثانية ، فانها تتمثل فى حرص بيزنطة على المحافظة على ماتبقى لها من نفوذ فى الشرق الاوسط بعد قيام الامارات اللاتينية ، ومن هنا كان لهذا البحث أهميته فهو يلقى الضوء على فترة من تاريخ العلاقات بين الشرق الاسلامى والبيزنطيين لم يتعرض لها الباحثون كثيرا ، بل ان المراجع العربية لم تتعرض لهذه العلاقات فى بعض مراحلها ، الا نادرا وفى اشارات عابرة ، بل اعتبر بعض المؤرخين أن العلاقات بين الشرق الاسلامى وبيزنطة تنتهى بظهور السلاجقة وقيام الحركة الصليبية ، رغم أن هذه الفترة عاصرت سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الايوبيين بدور المدافع عن الاسلام ، كما شاهدت ضعف الخلافة العباسية ثم سقوطها على يد المغول وانهيار بيزنطة وانقسامها الى ممالك ، ولكن ماحدث فعلا هو انتهاء لحقبة تاريخية امتازت بخصائص معينة ، وبداية لفترة جديدة فى العلاقات ، واذ تعتبر فترة حكم صلاح الدين من أهم فترات العلاقات البيزنطية العربية ، عرضت فى فصلين من الرسالة ، لتلك الفترة ، وأفدت من الوثائق والرسائل التى لم تنشر من قبل ، يضاف الى ذلك ما كان للعلاقات السلمية من أهمية عند المسلمين والبيزنطيين ، وتأثرها بوضع الامارات اللاتينية فضلا عن التسابق بين المدن الايطالية التجارية على توطيد مركزها الاقتصادى

والسياسى فى الشرق الأوسط .

ولقد قسمت البحث الى ست فصول . الفصل الاول يتعلق بمصادر البحث ثم الفصول ، من الثانى الى الخامس تناولت فيها العلاقات السياسية . ثم الفصل السادس عرضت فيه للعلاقات السلمية .

فالفصل الاول ذكرت المراجع العربية المعاصرة لفترة البحث ثم المراجع اللاحقة ثم المراجع الاوربية وذكرت أهمية كل كتاب فيها ومميزاته ومدى افادتى منه .

أما الفصل الثانى فخصصته للعلاقات بين بيزنطة والشرق الاسلامى منذ معركة مانزكرت الى ظهور صلاح الدين ، ويرجع أهمية هذا العرض الى السلاجقة والصليبيين أسهموا فى تطور العلاقات البيزنطية العربية فالسلاجقة باستقرارهم فى الدولة البيزنطية وبوصفهم عنصرا اسلاميا قيا فى الشرق الاسلامى ، لعبوا دورا هاما نظرا لاحتكاكهم المستمر بالدولة البيزنطية فأضحوا طوال تلك الفترة يتحكمون فى مقدراتها السياسية . ويلقى هذا الفصل الضوء على أسباب التحالف الصليبى البيزنطى ضد مصر وصلاح الدين ، اذ تحالفت بيزنطة والصليبيون أملا فى استعادة الاملاك البيزنطية فى الشام واسترداد ما كان للكنيسة الارثوذكسية من نفوذ على كنائس الشرق الأوسط ، واستمر هذا الهدف هو محور التحالف ، طالما راود بيزنطة الامل فى السيطرة على الامارات الصليبية فى الشام ، ولذا تعاونت مع الصليبيين فى حملاتهم على بلاد الشام ثم على مصر وبعد أن تأكدت ألا أمل لها فى ذلك السعى ، وأن الصليبيين لايكنون لها الا الكراهية تغير اتجاهها ، بأن اقامت علاقات صداقة مع الايوبيين وهذا هو موضوع الفصل الثالث ، ولذلك كان الترابط وثيقا بين الفصلين الثانى والثالث .

والفصل الخامس وهو يمتد من ١١٩٣ ــ ١٢٥٠ وينقسم لفترتين من ١١٩٣ ــ ١٢٠٤ هذه الفترة استمرار للعلاقات الودية بين بيزنطة والجانب الاسلامى فضلا عن ظهور عامل هام لعب دورا كبيرا فى مصير كلا الدولتين الايوبية والبيزنطية وهذا العامل يمثله ظهور البندقية وأهميتها من الناحية الاقتصادية فى حوض البحر المتوسط يضاف الى ذلك كراهية الغرب لبيزنطة التى أدت الى تحول الحملة الصليبية الرابعة الى بيزنطة بدلا من مصر ، وبهذا دخلت العلاقات الاسلامية البيزنطية فى طور جديد أما الفترة التالية ١٢٠٤ ــ ١٢٥٠ فتلى سقوط بيزنطة على يد اللاتين وانقسامها لممالك عدة شغلت بالصراع فيما بينها واقتصرت علاقاتها بالشرق الاسلامى على السلاجقة جيرانها القدماء فتحالف السلاجقة مع بعضها ، ودخل فى صراع مع البعض الآخر كما هو الحال مع مملكة طرابيزون التى دانت لها بالولاء ، الى أن ظهرت قوة المغول وقضت على دولة السلاجقة ، وتنتهى دراستى للموضوع بسقوط الدولة الايوبية وتوحيد بيزنطة وقيام آل باليولوجوس.

أما الفصل السادس فعالج تأثير كل من الجانبين على الآخر فى النواحى السلمية ،ثم تناول مظاهر هذا التأثير المتبادل ، وتأثير الحروب الصليبية الحضارى على كلا الجانبين وعلى الحضارة الاوربية ، ورغم كثرة الحروب التى دارت بين الطرفين فقد كان هناك فترات طويلة سادها

السلام نشطت فيها حركة التجارة • كما ظهرت بعض آثار هذا النشاط في النواحي الاجتماعية مثل وجود بعض المزارات الاسلامية •

وألحقت بالبحث عددا من الخرائط خريطة للعالم الاسلامي الى نهاية القرن الثاني عشر وخريطة لمصر زمن صلاح الدين ثم خريطتان للدولة البيزنطية في عهد آل كومنين وانجيلوس توضحان التغيرات التي طرأت على الحدود البيزنطية الاسلامية •

والملاحق تشمل أولا ثبتا بأسماء حكام الشرق الاسلامي والقوى المسيطرة عليه آنذاك سواء فاطمية أو عباسية ثم ايوبية وكذلك حكام السلاجقة ثم حكام بيزنطة •

وملاحق أخرى تتناول نصوص هامة كالملحق الخاص برسالة صلاح الدين الى الخليفة العباسي يعدد فضائله في قتال الفرنج وبيزنطه •

والملحق الخاص بوصف القاضي الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطي لصلاح الدين بشأن انفاذ خطيب ومنبر ومؤذنين للجامع المقام بالقسطنطينية •

ثم رسالة الكيكافوس الى صلاح الدين يذكر فيها جهود بيزنطة لعرقلة سير حملة فردريك الصليبية •

وفى الفصل الثالث ، ونظرا لأهمية فترة حكم صلاح الدين اتخـذت العلاقات الاسلامية البيزنطية مرحلتين امتدت المرحلة الاولى من ١١٦٧ الى ١١٨١ ، وفى هذه الفترة بلغ التحالف البيزنطى الصليبى ذروته فى مناهضة مصر وصلاح الدين . فقد رأى الجانبان الصليبى والبيزنطى أن يبدأ بالقضاء على القوة الحقيقية المتمثلة فى مصر ، فوجها اليها خلال تلك الفترة حملات صليبية بيزنطية عديدة كالتى توجهت سنة ١١٦٩ فحاصرت دمياط ، واذ حاق بالحملات الفشل حمل كلا الطرفين الآخر جريرة ماحدث ، لهذا دب الشقاق بينهما الذى انتهى بمذبحة القسطنطينية للاتين واتجاه بيزنطة الى الايوبيين التماسا لمحالفتهم .

والفصل الرابع يعالج ماحدث من تغيير سياسة بيزنطة من النقيض للنقيض بعد فشلها فى تحقيق هدفها من التحالف ، فسعت الى التحالف مع صلاح الدين ضد الصليبيين فى فترة حكم آل انجيلوس ، تبادل فيهما الفريقان سفارات الصداقة والود وتمتع كلا الجانبين بالتسامح الديـنى ، وعقدا الاتفاقات ضد الحملات الصليبية التى قامت بيزنطة بعرقلة سيرها ، وان كانت هذه السياسة لم تجن بيزنطة من ورائها الا ازدياد الكراهية لليونان سواء من جانب اللاتين فى الشام أو دول أوربا أو البابوية .

(غ)

ثم نصوص من كتابات الرحالة التى توضح أوصاف مدينة بيزنطة والمزارات الاسلامية الهامة والتسامح الدينى الذى نعم به المسلمون .

" مصادر البحث "

أولا : المصادر العربية المعاصـــرة :

المؤلفات الاصلية هي التي كتبها مؤلفون عاشوا في العصر الايوبـــــي وأرخو للفترة التي عاصروها وكانوا شهود عيان لكثير من أحداثها ، ومـــــن هؤلاء المؤرخين ابن العديم ، وابن شداد ، وابن العماد ، وابن الاثير ، وابن واصل ، والهروى ، والادريسى ، وبنيامين التطيلي ، (١)

أرخ بعض هؤلاء المؤرخين لتلك الفترة ، وزار بعضهم مصر وبيزنطـــــة ، وأوردوا وصفا دقيقا لها ، ولحالتها الاقتصادية ، وأشاروا الى العلاقـــات بين بيزنطة والاسلام .

ونلاحظ ظاهرة عامة فقد رحل معظم اولئك الكتاب الى مصر في أوقـــات مختلفة طلبا للعلم والمعرفة ، فذهب اليها ابوشامه ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ـ واجتمع بشيوخ الفسطاط والقاهرة ودمياط والاسكندرية واشتغل بالتدريـــس بها سبع سنين وحل ابن جبير بالقاهرة في ذى الحجة ٥٧٨ هـ / ١١٨٤ م في طريقه الى الحج ، واجتازها الهروى في رحلته الشهيرة ، التي زار فيهـــا القسطنطينية ، قام ابن العديم بزيارة القاهرة مبعوثا من لدن أمير حلب وظـــل مقيما بها الى أن توفي (٢) كذلك قدم الى مصر الادريسى في سنة ٥٤٨ هـ .

---

(١) العريني :(السيد الباز) مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٢
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ١ ص ١٠

وانعكست هذه الزيارات فيما أوردوه في مصنفاتهم عن مظاهر الحضارة والعمران والاداة الحكومية •

وبعض المؤرخين ألف لفترة معينة من التاريخ كأبى شامة في كتاب " الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية واهتم البعض كابن خلكان بالتراجم • جعل ابن جبير رحلته حسب الشهور والسنين •

والملحوظ أن هؤلاء المؤرخين اشتغلوا بجانب التصنيف بأعمال التدريس والقضاء • والفتيا • فاشتغل بالتدريس ابن شداد • وابوشامه وابن واصل والهروى •

وفيما يلي عرض للمصادر العربية التي تناولت النواحي التاريخية والسياسية والجغرافية •

ومن أهم هؤلاء المؤرخين ابن القلانسي • ويعتبر كتابه المؤلف الوحيد الذى وصلنا كاملا عن الفترة الواقعة بين الغزو السلجوقي لبلاد الشام وبين صلاح الدين (١) وكتابه ذيل تاريخ دمشق يعتبر ذيلا لكتاب هلال الصابى صاحب تاريخ الوزراء • وكان ابن القلانسي رئيسا لدمشق مرتين • ونقل من كتاب هلال الصابئ مايختص بتاريخ دمشق (٢) • ولم يقصره على تاريخ

---

(١) زيدان جورجي : تاريخ اداب اللغة العربية جـ ٣ ص ٧٢ •

(٢) Cahen : La syrie Nord al Epoque des croissades p.39

دمشق بل توسع فى أخبار الدولة الاسلامية فى الفترة ٤٤٨ ـ ٥٥٥ هـ بالمادة مستمدة من المحفوظات التى وقف عليها المؤلف بحكم مهنته ، واعتمد عليه كل من ابن الاثير وابوشامة وابن الجوزى وهو مصدر بالغ الأهمية فى العلاقات بين نورالدين والبيزنطيين والفترة السابقة على حكم صلاح الدين .

ابن شداد : ولد بالموصل سنة وتلقى تعليما يؤهله للتدريس والقضاء ، فقام بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم انفذه لأمير الموصل فى سفارته لصلاح الدين فى سنة ١١٨١ ـ ١١٨٢ حينما تطور النزاع بينهما ثم دخل فى خدمة صلاح الدين بناء على رغبته [1] وظل مقربا لامير حلب الظاهر غازى ثم ابنه العزيز . ولكن حين بلغ العزيز سن الرشد التف حوله جماعة من المفسدين فلزم ابن شداد داره وتخلى عن مجلس العزيز وتوفى سنة ٦٣٢ هـ بحلب [2] ، ولكتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أهمية خاصة اذ افاد من اتصاله بالعلماء والفقهاء وملازمته لصلاح الدين على أن جزء فيه هو الذى عاصره ويمتاز كتابه

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٩

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٧٠

بالادراك السليم والامانة ولقد اعتمد فى الفترة السابقة على المؤرخين السابقين له ، بينما حوى الشطر الآخر من الكتاب وصف ماشهده من الوقائع واثبات الاحداث التى جرت فى عهد صلاح الدين ولذا أشار الى ما كان من علاقات دبلوماسية بين صلاح الدين واباطرة بيزنطه [1] .

ابن الاثير : من اشهر مؤرخى تلك الفترة وهو واحد من ثلاثة اخوة مشهورين والمقصود هنا هو عزالدين بن الاثير الذى ولد فى جزيرة ابن عمر ورحل الى الموصل ثم الى الشام والقدس وذهب الى بغداد مرات عديدة رسولا من صاحب الموصل ، وبعد انهيار الدولة الاتابكية عاد الى الموصل ولزم بيته منقطعا الى العلم والدراسة وتوافرت له مادة تاريخية [٢] ، على أن أخاه ضياء الدين اتصل بصلاح الدين ثم بابنائه من بعده . وكان ابن الاثير يميل الى الزنكيين بالموصل فألف كتابا فى الدولة الاتابكية ، وهذا يفسر تحيزه وتحامله على صلاح الدين فى تاريخه لبعض الاحداث . ولقد بدأ تاريخه من أول الزمان الى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائه أى الى قبل وفاة الكامل بست سنوات . وكان ابن الاثير

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٦٨
(،) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٧
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ صـ ٤٣٨

على عادة الجغرافيين الى اقسام سبعة [1] .

ابوشامة :ـ مقدسى الاصل نشأ فى دمشق وتعلم فيها وفى الاسكندرية ودرس الفقه وبرع فى العربية وكتب فى كثير من العلوم وتوفى فى ٦٦٥هـ . ألف كتاب الروضتين ، وكتاب الذيل على الروضتين وكتاب الروضتين يشمل تفاصيل كثيرة عن الحروب الصليبية ويشمل سيرة نورالدين وصلاح الدين . وكان اهتمامه بصلاح الدين يفوق نورالدين [٢] . اعتمد على كتاب ابوالقاسم الدمشقى وابن الاثير والقاضى ابن شداد والعماد الكاتب ، وحذف الاسجاع وكل تعقيد فامتازت كتابته بالسلاسة ، وأورد كل الرسائل التى كتبها القاضى الفاضل لصلاح الدين مما القى الضوء على مراسلات صلاح الدين مع بيزنطة كرسالته الى صاحب القسطنطينية وحديثه عن البيازنة واهل جنوة . واستبعد الاخبار التى لا أهمية لها ، والرسائل التى لا تضيف جديد الى جانب مقارنة تلك الاخبار بما سمعه من افراد ثقاة عاصروا تلك الفترة [٣] .

---

(١) ابن الاثير تحفة العجائب وطرفة الغرائب ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافية .

(٢) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٥

(٣) ابوشامة : مقدمة كتاب الروضتين جـ ١ ص ٤

دقيقا فيما ينقل فاعتمد على الموازنة بين الاقاليم ومايقع فيها من احداث • وقد افادته دراسته بأنساب العرب وأيامهم ، وقد أفاد من المصادر وابن القلانسي ، وابن الاثير شديد الاهتمام والتثبت فيما يكتب ويعمد أحيانا الى نقد المصادر التى يستقى منها الاخبار ، واحيانا يعمد الى تلخيص الحوادث الماضية عند تدوين حادثة جديدة • وعاصر الكاتب اكتساح جنكيز خان والتتر لبلاد الاسلام واطلع ابن الاثير على مكاتبات صلاح الدين مع ملوك البلاد المجاورة • وهذا الكتاب من الكتب الاساسية فى كل دراسة عن الايوبيين والبيزنطيين وعلاقاتهم الحربية والسلمية والمعاهدات ودور الصليبيين فى الصراع (1) •

وليس هذا الكتاب الوحيد الذى يوضح اوضاع الايوبيين وبيزنطه ، بل له كتاب آخر يلقى الضوء على النواحى الاجتماعية والاقتصادية وهو كتاب " تحفة العجائب وطرفة الغرائب " • استقى مادته من عدد من مؤلفات الرحالة والجغرافيين مثل المناهج والمباهج للرواقى والعجائب للقزوينى والمالك والممالك الشرقية للجيهانى والعجائب للسهروردى • مازال هذا الكتاب مخطوطا • وتحدث فيه عن اسواق بيزنطة ومنازاتها وعن بعض الاثار الاسلامية أو المزارات وعرض صورة عن تقسيماتها الادارية وقد قسم العالم

---

(١) سعداوى : نظير حسان : خمسة من معاصرى صلاح الدين ص ١٠
(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ٢٠٤/٢٠٨

ابن العديم: كمال الدين ابن العديم ولد بحلب سنة ٥٧٦ هـ

وهو من اسرة كبيرة ، سمع عن ابيه وعن جماعة بدمشق وحلب والقدس والحجاز والعراق ، وكان ابن العديم مؤرخاً وفقيهاً ، ألف عدة كتب منها بغية الطلب في تاريخ حلب الذى اختصره فى كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب والتزم الكتاب الترتيب الزمنى حسب السنين ، واعتمد ابن العديم على مصادر التاريخ والكتب المؤلفة قبله ، واختار منها نصوصا نقلها الى تاريخه (١) وجعلها على حروف المعجم فى تراجم الرجال كما فعل ابن عساكر ، وذكر فيها الكتب التى نقل عنها واسماء مؤلفيها ، ولما اراد ان يلخص كتابه الكبير عاد الى بغية الطلب فنقل بعض النصوص وحذف منها اسماء الرواة والمؤلفين واكتفى برواية حادثة واحدة تحمل ما فى المصادر المختلفة من عبارات واشارات وروايات فى اسلوب موجز ومقتضب ، وأرخ ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب فى تاريخ حلب لفترة مهمة وعاصر الحكم الايوبى ، وعاصر سقوط خلافة بغداد يعتبر ابن العديم افضل من كتبوا فى تاريخ الشام ، لا تاريخ حلب فقط ويبدأ كتابه العصور الاولى للشام وينتهى عند منتصف القرن السابع للهجرة قبل وفاته بعشرين سنه وقد سجل تاريخ الشام العام لعصره وعلاقة بلده به . وهو أقرب المؤرخين الى مؤرخى العالم الحديث من حيث اعتماده على المسكوكات والسجلات والاثار الباقية والرسائل وقد ركز على حلب وانطاكيه .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب فى تاريخ حلب تحقيق سامى الدهان ج١ ص١٢

والجزء الثاني بالذات من الكتاب الذي حققه ونشره سامي الدهان ويشمل الفترة من ٤٥٧ هـ الى ٥٦٩ هـ التي شهدت الحروب بين الدويلات الاسلامية وانهيار الفاطميين ، وسيطرة صلاح الدين على مصر وحروب الفرنج وصراع بيزنطة وتحالفها مع الصليبيين ضد المسلمين ، وتغلب الاساليب السياسية على القتال . وقد قام المحقق سامي الدهان بتبويب الكتاب على هيئة أقسام وجعل الاقسام على مقاطع وعناوين صغيرة وكبيرة وهو اهم مرجع لسورية الشمالية بجبالها وقراها ومدنها .

ابن واصل : جمال الدين ابن واصل ولد سنة ٦٠٤ هـ ١٢٠٨ م بحماه وكان عالما بالفقه والفلسفة والرياضيات والتاريخ ورحل الى القاهرة سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٦ [١] وارسله الظاهر بيبرس سفيرا الى منفرد فردريك صاحب صقلية . ولما عاد عينه الظاهر بيبرس قاضي القضاه في حماه وتوفي سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٨ م وكتابه مفرج الكروب في اخبار بني ايوب من اهم الكتب التي تحدثت عن الدولة الايوبية واحداثها . اذ أرخ للدولة الايوبية وصدر دولة المماليك . ونظرا لأنه لم يعاصر الجزء الاول من الدولة الايوبية اعتمد على من سبقه من المؤرخين امثال ابن شداد والعماد الاصفهاني وعزالدين ابن الاثير وضياء الدين ابن الاثير وابوشامة . وكان اكثر اعتماده في هذه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب تحقيق جمال الدين الشيال المقدمه ص ٧

الفترة على ابن الاثير فى كتابه الكامل فى التاريخ وكتاب الدولة الاتابكية ، ورجع ابن واصل الى رسائل ضياء الدين ابن الاثير [1] . وكان يعلق على الحوادث لمجرد الموعظة وهو لا ينقل من المصادر نقلا حرفيا ، بل يتحرى الحقائق التاريخيه بوجيز ، ويصوب بعض الروايات الشفهية التى سمعها من معاصريه ويتقصى عن مصدرها وينقد الآراء ، ويأتى بالرأى الذى يعتقده انه الصواب وهو يورد وثائق رسمية عديدة ليؤكد حقائقه التاريخية ولأهمية ذلك اعتمد عليه كثير من المؤرخين فى الفترة التالية امثال ابى الفدا والمقريزى وابن تغرى بردى [2] والجزء الثانى من الكتاب اعظم أهمية فى الحوادث التى يرويها عن مشاهده حينا وعن مشاركه أحيانا . ولقد ذكر رسائل صلاح الدين الى الخليفة العباسى ومراسلات صلاح الدين مع الروم ، وموقف العادل والبنادقة وحطة حنابرين وعلاقتهم بالسلاجقة .

ابن العبرى : هو غريغوريوس ابوالفرج بن هارون ولد ١٢٢٦ م فى مدينة تيليقية قاعدة ارمينية الصغرى . ودرس اليونانية والعربية والفلسفة ، وذهب الى انطاكية سنة ١٢٤٣م واصبح اسقف ملطية واتصل بهولاكو وتوفى ١٢٩٦م . ولقد الف تاريخ مختصر الدول اولا بالسريانية ، ثم ترجمه الى العربية

---

(١) هى مجموعة من الرسائل موجهه الى صلاح الدين ومجموعة من الاعيان وكبار الشخصيات — ابن الاثير : رسائل ابن الاثير تحقيق انيس المقدسى ص ٧

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٩

فى اواخر ايامه ولكنه اختصر فى الفتوح وتوسع فيما يختص بدولة الاسلام (١) والكتاب يبدأ من أول الخليفة ومقسم عشر دول والجزء العاشر تحدث عن الدولة الايوبية وفتوحات المغول واليونان وعلاقتهم بالسلاجقة . (٢)

أما الرحلات التى قام بها جغرافيون معاصرون لتلك الفترة فقد افادت فى عرض صورة واضحة عن العلاقات التجارية والتسامح الدينى والآثار . ولقد ابدى جميع الرحالة اعجابهم بثراء كل من مصر والقسطنطينية ووصفوا اوجه الحياة والآثار وصفا دقيقا ومنهم :

الادريسى : ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الادريسى ولد بسبتة عام ٤٩٣ هـ ١١٠٠ م وطاف البلاد وزار مصر والقسطنطينية واستقر زمنا طويلا فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى فى بالرمو ولذلك لقب بالصقلى وقد اتم فى بالرمو قبل وفاة الملك وضع كتاب فى صفة الكرة الارضية المشهور باسم الكتاب الروجارى أو نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (٣) ونشر فيه احدى وسبعين خريطة وقد أورد وصفا تفصيليا لبيزنطة وآثارها والمزارات

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية - الجزء الاول مادة ابن العديم .

(٢) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول (المقدمة) ص ٥

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ مادة الادريسى .

الاسلامية .

ابن جبير : أندلسي الاصل ، راهتم بالادب والشعر قام بثلاث رحـــــلات بدأت سنة ٥٧٨ هـ زار مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية . رحلة جبير من المصادر الهامة التي تعطينا صورة واضحة عن الحالة التجارية وطـــــرق معاملة التجار والاجراءات الجمركية في عهد صلاح الدين . ورغم انه لم يسر القسطنطينية فانه سمع بأمر هام اورده لم يرد عند غيره من المؤرخين وهـــــو ذكر القصة التفصيلية عن الصراع في بيزنطة وصداقة اندرونيكي للعرب ومهاجمته القسطنطينية . والحروب مع السلاجقة (١) .

الهروى : وهو أبوبكر الهروى ولد في الموصل وطاف البلاد ولقد درس السيمياء وكان مقربا لدى الملك الظاهر ابن صلاح الدين ،واقام عنده وكان كثـــــير الرعاية له وبنى له مدرسة بظاهر حلب ، ولقد تحدث عن مصر واسواقهـــــا ومناراتها ، وتحدث عن القسطنطينية ، وعن التسامح الديني الذى نعم بـه المسلمون وتجارهم ، ويعتبر من اهم المراجع عن الصلات بين بيزنطة والايوبيين في تلك الفترة (٢) وله كتاب آخر اسمه العجائب ويذكره كثيرا في كتابه " الاشارات

---

(١) ابن جبير : الاستبصار في عجائب الامصار ص ٣٢١

(٢) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٤ جغرافيا .

الى معرفة الزيارات " ويذكر انه سيورد بالتفصيل ما أورده باختصار في الاشارات ولكن هذا الكتاب لايوجد في اى مكتبة بل ان كثير من الكتب والمراجع القديمة لم تذكر عنه شيء مثل كتب الوفيات لابن خلكان .

ياقوت الحموى : توفى في الموصل سنة ٦٢٦ هـ وكتابه معجم البلدان معجم جغرافى بأسماء البلاد جمع بين التاريخ والجغرافية فعند ذكر أى اقليم يذكر جزء من تاريخه ومن اشتهر فيه ونسب اليه من الادباء والشعراء وهو مرتب ترتيبا هجائيا (١) .

ابن سعيد المغربى : المؤرخ المشهور ولد في غرناطة سنة ٦٠٠ هـ رحل الى مصر والعراق والشام واهتم بالادب والتاريخ وشهرته كمؤرخ اكثر منه جغرافى ففى كتابه بسط الارض فى طولها والعرض تحدث عن مظاهر الحياة الاقتصادية والآثار البيزنطية وكذلك عن اواخر الدولة الايوبية (٢) .

---

(١) Encyclopedia of Islam. Vol. part 2 p. 1153

(٢) ابن سعيد المغربى : كتاب بسط الارض فى الطول والعرض تحقيق خوان قرنيط جنيس : ص ٧

المصادر اللاحقة لفترة البحث :

للمصادر اللاحقة لهذه الفترة اهمية كبيرة اذ نجد فى بعضها وثائق هامة لاتوجد فى الكتب المعاصرة رغم اعتماد اكثرها على الكتب المعاصرة لفترة الايوبيين فالمقريزى مثلا فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ، أرخ لدولتى الايوبيين والمماليك واورد فى الجزء الاول ، رسالة ارسلها الامبراطور البيزنطى الى مصر لم ترد عند احد من المؤرخين . [1] وكان هذا العصر عصر نهضة علمية وتنافس بين المؤرخين ، فهذا العصر شاهد تفتت المدن الاسلاميه وكثرة اصحاب السيادة فيها [2] ، مما ادى الى كثرة ظهور الموسوعات والتراجم ، ومن مؤرخى تلك الفترة ابن خلدون المقريزى وابو الفدا وابن تغرى بردى وابن خلكان وابن شاكر الكتبى .

•• ابن خلكان : هو قاضى القضاه شمس الدين ابوالعباس احمد بن ابراهيم من بيت كبير فى العراق وينتسب الى البرامكه ولد فى اربل وتولى قضاء الشام ودرس فى عدة مدارس ورحل الى الاسكندرية ومصر ثم عاد الى الشام وظل بدمشق لوفاته . واشتهر بموسوعته الكبرى وهى " وفيات

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ١٢٩

(٢) كانت مصر والشام فى حوذة السلاطين المماليك وهم اتراك شراكسه ، وكانت آسيا الصغرى فى حوزة السلاجقة ثم اخذها العثمانيون وكانت العراق وفارس فى سلطة الدوله الالخانية وهى مغولية وانحصرت سيادة العرب فى اليمن والمغرب ، وانتقلت مراكز العلم الى مدائن مصر والشام .
زيدان جورجى : تاريخ اداب اللغة العربية ص ١١٠

الاعيان وانباء ابناء الزمان " وقد فرغ من تأليفه واورد بعض معلوماته عن طريق النقل ، والسماع والمشاهدات ، والكتاب ذخيرة علم وادب وتاريخ واهتم بالضبط والتحقيق والتدقيق ، وقد رتب الكتاب على حروف المعجم ويزيد عدد التراجم عن ثمانمائه ، وان كان يذكر الاسماء التى لم يشتهروا بها لصلاح الدين الايوبى يذكره تحت حرف الياء (١) . ولم يذكر من الصحابة ولا التابعين الا جماعة قليلة . وكذلك الخلفاء لم يذكر احدا منهم اكتفاء بالمصنفات الكبيرة وترجم ما خلا ذلك من العلماء والملوك والامراء .

ابن خلدون : هو ابوزيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون اصله من اسرة اشبيلية بالاندلس ولد فى تونس ٧٣٢ هـ ١٣٣٠ م وتفقه بالعلوم المعروفه وعصره وتنقل بين بلاد الاندلس والمغرب ، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلب فى خدمة واوينهم . وسفر لاحد اولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطه . ولقد شاهد بنفسه احوال كثير من الدول عن كثب ولمس بيده عوامل التدهور الناشئه اظفارها بين المسلمين مما جعل لكتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر قيمة تاريخية (٢) قدم لمصر ١٣٨٢ م وتولى منصب قاضى القضاة المالكية

---

(١) [illegible] : تاريخ اداب اللغة العربية جـ ٣ ص ١٥٩٤
(٢) زيادة : محمد مصطفى المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ص ٤
(٣) دائرة المعارف الاسلامية [illegible]

واتصل بكثير من المؤرخين فى مصر والشام وظل بمصر حتى وفاته ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م ويعتبر كتابه من اهم واشمل الكتب التاريخيه وخاصة لمنهجه الفذ •

المقريزى : ابوالعباس تقى الدين بن علاء الدين ولد بالقاهرة ٨٤٥ هـ ـ ١٣٦٤ م واصل اسرته من بعلبك[٢] • وكان جده من كبار المحدثين فى بعلبك • درس المقريزى الفقه والتحق بديوان الانشاء بالقلعة ثم اصبح قاضيا واماما لجامع الحاكم ومدرسا • ولقد اراد رعية السلطان فرج بن برقوق ان يوليه نائبا للحكم بدمشق ولكنه رفض واشتغل بالتدريس فى المدرسة الاشرفية ولكن مالبث ان عاد للقاهرة وانقطع للعلم الى وفاته ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤٢ م[١] • والف العديد من الكتب منها المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ويعرف بخطط المقريزى ذكر فيه مجمل اقاليم مصر • كتابه والمقفى الكبير • درر العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة • واتعاظ

Encyclopaedia of Islam vol 3 part I p. 175 •

(١) زيادة : المؤرخون فى مصر ص٨

(٢)

واتعاظ الحنفا باخبار الائمة الخلفاء وتاريخ الدولة الفاطمية ، السدور المضيئة فى تاريخ الدولة الاسلامية ومن مقتل عثمان الى المستعصم ، وغيرها ثم كتابه السلوك فى معرفة دول الملوك وهو تاريخ مصر من ٥٧٧ هـ ـ ١٨٤٤م والكتاب مؤلف على السنين يذكر حوادث السنه ثم يترجم من مات فيها من الاعيان ترجمه مختصره ، ويطيل فى الاحداث . ولقد استعنت بالمقريزى فى الفترة التى تلت حكم صلاح الدين .

ابوالمحاسن : ابوالمحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى يحتل مركز الصدارة بين المؤرخين بعد وفاة المقريزى والعينى اواسط القرن الخامس عشر وتوفى فى القاهرة ٨٣ هـ ـ ١٤١١ ابوه مملوك يونانى للسلطان الظاهر برقوق توفى والده وهو طفل تولى رعاية زوج اخته كان ابوالمحاسن مقربا من السلطان برسباى ثم عند السلطان خشقدم وعاش اوائل سلطنة قايتباى .(١)

الف اثنا عشر كتاب لم يبق منها الا سبعة ، اشهرها كتابه فى تاريخ مصر من الفتح الاسلامى ٨٥٧ هـ الى ـ ١٤٦٧ م اسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) فى سبع مجلدات والفه من اجل السلطان المرجو محمد بن جقمق الذى توفى ١٤٤٣ م قبل ان يتحقق رجائه والكتاب مرتب حسب السنين . وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه . (٢)

---

(١) زيادة : المؤرخون فى مصر ص٢٨

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ١ مادة ابوالمحاسن .

وتمتاز كتابته بالتدقيق والتحرى وامينا فيما يذكره وهو من الكتب الهامة التى استعنت بها ومن كتبه الاخر المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى وهو حافل بالتراجم ، حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، والبحر الزاخر فى علم الاوائل .

ابوالفداء : السلطان الملك المؤيد صاحب حماه اسماعيل بن على بن محمود بن المنصور كان اميرا لدمشق وخدم الملك الناصر وهو فى الكرك وبالغ فى ذلك فوعده لحماه وبالفعل جعله سلطانا لها ، وكان ابوالفداء متمكنا من الفقه والطب والفلسفة وتاريخه (المختصر فى اخبار البشر) [1] قسمين الاول فى الجاهلية والثانى فى الاسلام الى ٧٢٩ هـ . وتحدث عن تواريخ الانبياء والفرس والعرب فى الجاهلية والخلفاء الراشدين والامويون والعباسيون والدوله الاموية فى الاندلس والفاطميون والايوبيون ، ولقد اعتمد على كتب عديدة اهمها ابن الاثير . ورتب كتابه على نهجه وفق السنين ، وتضمن اخبار ادبية وعلمية واجتماعية ، وله كتاب فى الجغرافيا وهو تقويم البلدان . وقد قام ابن الوردى بكتابه تاريخ هو تذييل لكتاب المختصر لابى الفداء انتهى به الى سنة ٧٤٩ هـ واسمه تتمة المختصر فى اخبار البشر [2]

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابوالفدا .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن الوردى .

المصادر الأوربيـــــة :

وليم الصورى : ١١٣٠م ـ ١١٨٤م .

يحتل كتاب وليم الصورى مكانة فريدة بين الكتب التى ارخت لهذه الفـــترة حتى اتخذه الكتاب الاخرون اساسا لما أورده من الاحداث المتأخره .

فالمعروف ان وليم الصورى شغل منصب رئيس اساقفة صور من سنة ١١٧٥ الى سنة ١١٨٤ . وظل مستشارا لمملكة بيت المقدس(١) حتى وفاته ١١٧٤ . كـــان وليم من سكان مملكة بيت المقدس . حيث ولد حوالى ١١٣٠م والراجــــح ان ابويه نزحا من الغرب . وكان يجيد العربية والفرنسية واليونانية والعبرية والفارسية الى جانب اجادته اللغة اللاتينية وتتلمذ على يد بطرس البرشلونى كبير القس بكنيسة القيامه ورسم قسا ولما اشتهر به آمورى من الميـــــل الى الدراسة التاريخيه . ادرك ان فتح مصر والاستيلاء عليها من يـــــد المسلمين انما يلى فى الاهمية ما حدث من قبل من فتح بيت المقـــــدس فقرر اموري ان يلتمس مؤرخا ليسجل مايحرزه من الانتصارات فعين وليـــم رئيسا للشمامسه بكنيسة صور تمهيدا لاتخاذه مؤرخا(٢) وبلغ من ثقة الملك بـــه ان ارسله سفيرا الى بيت المقـــدس ليحصل على توقيع الامبراطـــــور البيزنطى على المعاهدة ولكنه عاد بعد ذهاب الحملة . واستمر وليم عـــلى

---

(1) Grousset : Histoire des Croissades II p. 1

(٢) العرينى : مؤرخوا الحروب الصليبية ص١٠٧

صداقته بالملك حتى ان الملك طلب منه الاشراف على تربية اكبر ابنائه وهـــو بلدوين ولقد اثنى عليه وليم كتابة تاريخ المملكه ولقد بدأ فى كتابـــة ابتدأ من سنة ١٠٩٤ وهو التاريخ الذى شاع ان بطرس الناسك ادى فيــه الحج ولكن ما شهده الملك امـــورى فى مصر من حضارة حثه على ان يطلب منه كتابه تاريخ لامراء الشرق أمـــده الملك امورى بطائفة من التواريخ العربية حصل عليها من مكتبة اســـامه بن منقذ التي صادرها وليم بعد ان تحطمت سفينة قرب عكا ، واستعان بكتاب سعيد بن بطريق واتخذ الكتاب اسم

ولكن لم يلبث ان توفى أمورى وتولى العرش تلميذه المريض فصرف وليم عن كتابه التاريخ فترة ، وعين وليم مستشارا للملكه ، ثم عـــين رئيسا لاساقفة صور سنة ١١٧٥ وزار القسطنطينية ثانية ١١٧٨ ، (١) وفشـــل ١١٨٠م فى الحصول على منصب بطريرك بيت المقدس ، فتفرغ لاعـــادة قراءة تاريخه ولكن مالبث ان توفى ١١٨٥م ، ولذلك كـــان لمؤلفاته اهميـــة عظيمة بحكم كونه معاصرا ومشتركا فى الاحداث التي كان مؤرخا لها ولقـــد ضاع كتابه تاريخ امراء والشرق ، ولا توجد منه الا فقرات فى كتابات وليـــم الطرابلسي (٢) والكتاب الوحيد الذى لازال معروفا هو المشـــــهور

---

(١) العرينى : مؤرخوا الحروب الصليبية ص ١٢٥

(٢) Runicman : History of the Crusaders II p 425

باسم " A History of Deeds Done beyond the Sea "

وقام على ترجمة Babcock , Krey ونشرته جامعـــــة

كولمبيا سنة ١٩٤٣ م فى جزئين والكتاب يبدأ من ضياع بيت المقدس من

يد المسيحيين واراد ان ينتهى به فى ١١٨٢ ولم يبلغ به الانتهاية سنة ١١٧٩ او

اوائل ١١٨٠ • وقسم الكتاب الى فصول • [1] واعتمد فى الجزء الاول من

كتابه وخاصة فيما يتعلق بالحرب الصليبية الاولى على كتاب اعمال الفرنجة ،

ومؤلفات ريموند اجيل ووالتر ، وفولشر تشيمى شارتر ، والبرت الاخيتى ، [2] وكان

مايصل اليه من نتائج ، انما يستخلصها بعد مقارنه مصادر عديدة ، فاذا

حدث بينها تعارض فاما ان يأخذ بحكمه ورأيه ، واما ان يورد الروايـــات

المختلفة • ويحدث احيانا انيرفض من الروايات ما تنطوى على مبالغـــة

ظاهرة ، واعتمد وليم احيانا على الروايات الشفوية وبين ماورد من روايات

عند مؤرخى الحرب الصليبية الاولى • غير انه لم يشر الى اسم واحد منهـــم ،

انما اعتبرهم جميعا مصدر لرواية لابد من تقديرها وفحصها ، لانه يفوقهـــم

فى الالمام بجغرافية وآثار المنطقة ، وكان يهتم بتتبع موضوعا معينا منذ بداية

الى نهاية دوان يحفل بالزمن الطويل الذى يستغرقة الحادث ، وامتـــدت

---

(١) اضاف اليه فيما بعد احداث السنوات الى ١١٨٤ م
العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٢٨

(٢) William of Tyre: Aistory of Deeds done beyond the Sea. XII, P 21

مصادر بحثه الى كل الجهات تحرص على ان يختار مصادر بحثه من كل الجهات وحرص على ان يختار لكل حقيقة مستقلة مايتعلق بها من مصادر اصليه ، مثال ذلك انه لجأ الى هيجو امير قيساريه ليمده بالتفاصيل الخاصة بسفارته للخلفاء الفاطميين بمصر ومفاوضاته مع شيركوه عم صلاح الدين . والرابع انه امده ببعض المعاهدات التى جرى عقدها مع صلاح الدين . ولما فشلت حملة املريك على مصر ، طلب من كل البارونات ومن الملك امليك نفسه ان يشرحوا له اسباب الفشل [1] ، وهذه الامثلة تدل على ماتهيأ لوليم الصورى من المصادر التى استقر منها معلوماته سواء كانت من ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، او الروايات المستمدة من شهود العيان . فاذا حصل على روايتين ، اوردهما دون تحيز وجرى على هذا فى كل كتابه [2] ، ولقد افاد وليم من المصادر العربية ولكنه لم يذكر الا كتاب واحد هو سعيد بن بطريق ، ولقد استمد بعض معلومات عن التاريخ الاسلامى من الروايات الشفوية ومن نقوش مدونه على العمائر ، وحين يؤرخ للفترة التى عاصرها فهو يسهب فى التفصيل . ففى اخباره عن آمورى ، اسهب فى وصف

William of Tyre, op. Cit. Vol XX p 20 (١)

(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٣٠

احوال مصر ان أورد تفاصيل كثيرة عن موضع بابليون وتاريخها ، وعن اصل الخلفاء الفاطميين ، وعن التجارة التي تجتاز برزخ السويس ، وهو يتلمس الدعاوة لما يرويه من حقائق ، ويتطلع الى الربط المنطقي والتماسك التاريخي ، وافضل اجزاء الكتاب هي التي كتبها بعد ١١٨٠ فتمتاز بالنضج والحكم السديد الناجم عن رسوخه في العلم ، واشتهر وليم الصوري بالنزاهة والانصاف حتى ان تحليله لاسباب تمرد اليونانيين في القسطنطينية سنة ١١٨٢ ، وانتصار صلاح الدين لم يتطلب من العلماء المحدثين الا اضافات وتسويات ضئيلة ، ولم يشتهر وليم الصوري بالتعصب ضد العنصر او الدين او نظام الطبقات، فلم يكن اللاتين وحدهم ، هم الذين يستطيعون ان يؤدوا أعمالا مجيدة ، بل يشاركهم في ذلك اليونانيون والارمن والسوريون والعرب والترك ، بل انه اقر للمسلمين ايضا بالمستويات رفيعة من الاخلاق والمبادئ، ولذلك اهتم بالحياة الاجتماعية[1]. ولقد اقترن وليم من معايير ومقاييس الدراسة التاريخية الحديثة ولكن وليم افتقر احيانا الى اتساع الادراك فانه اتفق من بعض الامور بما يتعلق

---

(١) العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٢٧

بالوطن الذى يعيش فيه الى جانب عدم استطاعته التخلص من صفة الكنيسة كذلك عمد فى بعض الاحيان الى تغيير تاريخ بعض الحوادث[1] وما تعرض له وليم من المشكلات نشأ حينما اورد فى تاريخه احداثا متفرقة لا رابطة بينها . وقد اعتبر وليم الصورى المصدر الوحيد عن السنوات الواقعة بين سنتى ١١٤٤ ، ١١٨٤ واعتبر المصدر الاصلى لكل ما وقع فى زمنه من احداث. كما ان الذى ظهر فى سنة ١٩٣٨ كتابه الشامل عن الحروب الصليبية . لم يقبل صراحه فحسب ما وضعه وليم الصورى من خطة لكتابه . بل قبل ايضا معظم عباراته . كل ذلك يعتبر دليلا على ان وليم اقام مقياسا لكتابه تاريخ الحروب الصليبية وبذلك كان لكتابه اهمية كبيرة لبحثى اذ عاصر جزءا كبيرا من عهد صلاح الدين وكان مندوبا لملك بيت المقدس فى بيزنطه لعقد الاتفاقات الحربية ضد مصر .

روبرت كلارى :ـ

أحد الفرسان الذين اشتركوا فى الحملة التى سقطت فيها بيزنطة فى أيدى اللاتين ويعتبر مؤلفه احد ثلاث اسفار تناولت الغزو الغربى للامبراطورية البيزنطية وهى ـ مذكرات فلها ودوان . تاريخ القسطنطينيه

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشى ص ٢٣

(٢) Willam of Tyre op. cit. Vol XII P 20, 21

لجونتر ، مذكرات روبرت كلاري [1] .

وروبرت كلاري كان من الطبقة الشعبية وذلك يبرر الندرة فى المعلومـــات الخاصة به ، وكان محاربا تحت لواء بطرس داميان وشارك فى القتـــال الذى جرى عند اسوار القسطنطينيه ١٢٠٣م وكان اباه فصلا اقطاعيـــا لبطرس الدمياني ، ولم تكن فصيلته بالتى ترق به الى المكانة الكبرى . والكتاب مكتوب اصلا بفرنسية العصور الوسطى ، ولا توجد نسخه اصليه من هـــذه المذكرات التى املاها روبرت كلارى وفى ١٢٠٠ عهد دير كوربى لاحد النساخ بنسخ بعض المخطوطات القديمه المحفوظه به فجمع الناسخ خمس كتب فى مجلد . كان المخطوط منها فى ١٨٧٣م قام كارل هويف بنشر المذكرات ، ثم قام كونـــت ريان بنشرها سنة ١٨٦٨م وفى ١٩٢٤م قام فليب لاور بنشرها ثم ترجمهـــا بالانجليزية ادجار هولمز ١٩٣٦م وترجمه الى العربية حسن حبشى ١٩٦٤ وهى النسخة التى استعنت بها . ويمتاز اسلوبه بكثرة التكرار لعبارات معينة بسبب قلة محصوله فى اللغة واهمية مذكراته انه عاصر وكان شاهد عيـــان لحوادث الحملة منذ البداية حتى تخريب مدينة ادريانوبوليس ١٢٠٥م على يد

---

(١) روبركلارى : فتح القسطنطينه ترجمة حسن حبشى ص ٢٣

جماعات الكومان وهى الواقعة التى سقط فيها الامبراطور بلدويـن اسيرا [١] .
وهذه الفترة تشغل اغلب صفحات الكتاب فيما عدا صفحات قلائل تكلم فيهـا
عن المدة ١٢٠٥ ، ١٢١٦ ، واغلب الظن انه لم يكن فى القسطنطينة فى الفترة
الاخيرة ، وان ما دونه بناء على ماسمعه ممن عادوا من الشرق . ولقـد
استعنت بالكتاب فى الفترات الخاصة باستيلاء الفرنجه على القسطنطينـة
والتدمير الذى حل بالمدينة على يد اللاتين .

جوانفيـل : ١٢٢٤ ـ ١٣١٧

من المؤرخين ذوى المكانه اللاحقين لوليم الصورى جان دى جوانفيـل
وكان والده ، سيد جوانفيل صنجيل شمبانيا واسهم فى الحملات الصليبيـة
موجهه الى الشرق . ثم صار جان صنجيلا بعد وفاة والده .
وفى تلك الاثناء تزوج لويس التاسع من مرجريت اميرة بروفانس ، ووقع فريسـه
مرض خطير ٦١٢٤٤ ، وفى لحظه من اللحظات الحرجة اتخذ لويس الصليب [٢] .

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطنيه ص ٢٧
(٢) Joinville : History of Saint Louis . Trans.
Evans P. XIV.
(٣) الحبيشى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٥٥

واحتذاه إخوته ، ورجال بلاطه وكبار السادة ، ومن الطبيعي ان يسهم جوانفيل في الحروب الصليبية فاتخذ الصليب واتجه لمرسيليا ، وفي اثناء الحمله التي استمرت ١٢٤٨ حتى ١٢٥٤ ، دخل جوانفيل في خدمة الملك لويس التاسع ، ولما عاد الملك لويس من الحملة ، جعل لجوانفيل الذي صار من اتباعه بعض الالتزامات .

وحين عاد جوانفيل الى فرنسا وكان قد بلغ وتعدا الثلاثين من عمره وكان فارسا لامعا وبعد وفاة لويس ١٢٧ اعتزل الحياة ثم اتخذه فيليب الجميل مصرفا له وفي سنة ١٢٩٧ اتم تطويب الملك لويس التاسع وجعله قديسا وفي سنة ١٣١٠ [1] ، وحينما فرغ جوانفيل من كتابة تاريخه تقدم به الى لويس ملك نافار وشامبانيا ومات جوانفيل ١٣١٩ م [2] قام جوانفيل بتأليف كتاب " الاقوال المقدسة والافعال المجيدة المنسوبة للقديس لويس " بناء على رجاء ملكة نافار وشرع جوانفيل في تأليف مصنفه عن تجاربه الشخصية فيما وراء البحار ، ولعله كان يرمي الى ان يجعل كتابه على نحو تاريخ فيلها دوين او روبرت كلاري [3] . ثم حوله لمجرى الترجمه الذاتيه وفرغ من كتابته ١٣٠٩ وحمله على تأليف الكتاب .

---

(١) الحريري : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٥٥

(٢) Joinville : op. Cit. Trans. Evans pxv.

(٣) Joinvile : op. cit. Trans Evans p xvi

احبابه وصداقته للويس التاسع • والكتاب يتكون من حوالى ٢٤٨ فصـــــل وقسم جوانفيل الكتاب قسمين ، قسم خاص بالتعاليم الصالحة للقديس لويــــس شخصية وسلوكه وعدله ، والقسم الثانى خاص باعماله الحربية فى مصر والشـــام ولقد ردد جوانفيل فى القسم الثانى من الكتاب ، بعض الروايات التى نصادفها فى الجزء الاول • ويبدو ذلك باكثر له من التكرار حتى يتأكد من انه لـــم يفتقد شيئا فى القسم التثقيفى • وامتاز جوانفيل بموهبته فى الوصف وخاصـــة فى الجزء المتعلق بالحروب الصليبية والذى نستخلص منه ان الكتاب ليـــس الا مجموعة من الاجزاء ، جرى تأليفها فى اوقات مختلفة ، وهو لا يهتـــم بالتفاصيل كثيرا [1] ، على ان جوانفيل التزم دائما فى تآريخه لحيـــــاة القديس لويس بان يحصى حكم خالصا نقيا ، فلا يتأثر بما يكنه لسيدة من حب وتبجيل ولم يكن جوانفيل مؤرخا [2] ، ولم يحاول ان يكون مؤرخا الا فـــى الفصول ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ وهى فصول جاءت سقيمه • ولقد تأثـــرت

---

(١) الحريرى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٦٦

(٢) Joinville : op cit Trans Evans p xx

كتابته بفكرته عن الاقطاع فالمثل الاعلى للجميع هو الذى يستطيع فيـــــه كل فارس ان يولى بما لديه من رأى . ولقد اتم جوانفيل كتابه بعد أن بلـــغ من العمر ٨٥ سنة [٢] . ولم يصلنا من كتاب جوانفيل . الا مخطوطات متأخره . تعرض فيها النص لتلف شديد . غير انه بفضل الدراسة المحققه ومقارنــــة الوثائق الاصلية الصادرة عن مخطوطات جوانفيل . يسر اعادة الاصـــــل الى صحته وتقويمه . وجرت ترجمة جوانفيل الى الانجليزية ثلاث مـــــرات الاولى فى مستهل القرن السابق ترجمها جنا جافود ثم قام بترجمة كل مــــن جيمس هتو ومارل ودجورج وعمدا المترجمان الى اختصار الكتاب اما الترجمـــة الرابعة فهى التى قامت عليها جنه ايفانز ونشرتها ١٩٣٨ ولقد افــدت من جوانفيل فيما يتعلق السفارات التى جرت بين حكام اللاتين فى القسطنطينيـــة ولويس التاسع لاستغلال الحملة السابعة لصالحهم .

---

(١) Joinville op cit . Trans Evans p xxII

(٢) Joinville op cit . Trans Evans p xxII

الفصل الثاني

العلاقات بين بيزنطة والشرق الاسلامي
حتى ظهور صلاح الدين

بيزنطة والشرق الاسلامى

ظهور السلاجقة ــ موقعة مانزكرت وأثرها ــ استنجاد الكسيوس بالبابوية ــ ضعف السلاجقة وانقسام العالم الاسلامى ــ موقف بيزنطة من الحركة الصليبية ــ مشكلة انطاكية ــ سياسة اللاتين تجاه بيزنطة ــ الدولة العباسية والبيزنطيون ــ السلاجقة والبيزنطيون فى آسيا الصغرى ــ العلاقة بين البيزنطيين والزنكيين ــ موقف البيزنطيين من السلاجقة والحملة الصليبية الثانية ــ النزاع حول انطاكية ــ موقف المسلمين •

أنشأ الامبراطور قسطنطين الكبير في النصف الأول من القرن الرابع الميلادى مدينة القسطنطينية على موضع بيزنطة القديم على البوسفور ، واتخذها عاصمة لـــه[1] لما لها من مزايا ، منها ، انها تقع بين الاملاك الرومانية في آسيا وأوربا ، ولمركزها الاقتصادى بين البحر الاسود والبحر المتوسط ، ومناعة موقعها ، فلما سقطت روما في أيدى المتبربرين سنة ٤٧٦م ، وقام على أنقاض الشطر الغربى للامبراطورية ممالك جرمانية ، وأضحى امبراطور الشطر الشرقى امبراطورا للدولة الرومانية ، وظل من الناحية القانونية امبراطورا للرومان حتى سقوط القسطنطينية في أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م رغم أن القسم الشرقي عرف باسم الدولة البيزنطية[2] .

وما حدث في القرن السابع الميلادى من ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية الاسلامية ، أدى الى انثيال الجيوش الاسلامية في الاقاليم المتاخمة لبلاد العرب[3] ، فسقطت في أيديهم الدولة الفارسية ، وانتزع المسلمون من بيزنطة أقاليمها المطلة على البحر المتوسط من الشرق والجنوب فخضعت لهم بلاد الشام ، والجزيرة ، وأرمينية ، ومصر ، وبرقة وشمال افريقية وبلاد المغرب ، فضلا عن استيلائهم على جزائر قبرص ورودس ، وكوس ، وبقيام الدولة الأموية ، أكملما يـــة

---

(١) رنسمان (س.) : الحضارة البيزنطية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) ص٩

(٢) العرينى (السيد الباز) : الدولة البيزنطية ص ١٧

(٣) بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ، محمود يوسف زايد) ص٣٥٥ .

السيطرة الاسلامية على هذه السلسلة من الجزائر بالاستيلاء على خيوس وفى سنة ٦٧٠م استولى احد قادته على شبه جزيرة Cyzicus التى لا تبعد الا قليلا عن القسطنطينية فأصبحت بذلك قاعدة بالغة الأهمية فى مهاجمة القسطنطينية [١] ، وفى تلك الأثناء ، وقبل أن تصوب الضربة القاضية الى قلب الامبراطورية ، استولى جانب من الاسطول الاسلامى على أزمير سنة ٦٧٢ ، بينما احتل الجانب الآخر ليكيا وقيليقية [٢] ، وتعرضت كريت للهجوم فى نفس السنة التى فيها فرض الحصار على القسطنطينية ، والذى استمر سبع سنوات (٦٧٣ ـ ٦٧٩م) . فتعرضت القسطنطينية كل صيف لحصار من قبل الاسطول الاسلامى ، ولم ينقذها الا استخدام النيران الاغريقية فتعرضت سفن المسلمين للحرائق ، ووقع اضطراب فيها ثم تعرضت لعواصف شديدة أثناء سيرها نحو الجنوب ، ولم يصل من هذا الاسطول الضخم الى قواعده بالشام الا سفن قليلة ، فجرت مفاوضات بين الامبراطور البيزنطى ومعاوية انتهت بأن دفع معاوية جزية سنوية للدولة البيزنطية [٣] ، ولقد حالت بيزنطة دون حصول الاساطيل الاموية على مايلزمها من أخشاب وحديد [٤] ، ترتب

---

(١) العدوينى : الدولة البيزنطية ص ١٣٢

(٢) Ostrogorsky : G.) : Hist. of the Byzantine state (Trans by Joan Hussey). P. 111.

(٣) العدوينى : الدولة البيزنطية ص ١٣٣

(٤) ارشيبالد (لويس) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة احمد محمد عيسى) ص ١١١ .

على صمود القسطنطينية ازاء الهجوم الاسلامى أن توقف زحف المسلمين الى اوربا من جهة الشرق • وعلى الرغم من حرص المسلمين زمن الدولة الأموية على استكمال فتوحاتهم ، بما وجهوه من حملات للاستيلاء على القسطنطينية بعد ذلك ، كان آخرها زمن سليمان بن عبد الملك ٧١٨/٧١٧م ، واشتركت فيها القوات البرية والبحرية ، واستمر حصار القسطنطينية زمنا طويلا ، غير أنه لم يتحقق غرض الخليفة الأموى [1] •

أفادت بيزنطة من الفتن الداخلية التى وقعت فى أواخر عهد الدولة الأموية وأدت الى سقوطها سنة ٧٥٠م [2] ، وترتب على هذا الانقلاب أن انتقلت حاضرة الدولة الاسلامية من دمشق الى بغداد ، وبذلك خفت حدة حملات المسلمين وضغطهم ، وظلت بيزنطة لمدة نصف قرن آخر تقريبا بعد عام ٧٥٢م أكبر قوة بحرية فعالة فى مياه البحرين المتوسط والاسود فاحتفظت بسيادتها البحرية التى كسبتها عام ٧٤٧م [3] ، ولم يعد هناك منافسين للاسطول الامبراطورى بالمعنى الصحيح فى القسطنطينية ، ولا لأساطيل النفوذ البحرية فى بحر ايجه ، وسيطرت بيزنطة الى حد كبير على جزائر صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار ، وتحكمت فى المضايق ذات القيمة البحرية الهامة ، الواقعة على طول طرق التجارة بين الشرق والغرب [4] •

---

(١) Runciman (S.): A Hist. of the Crusades. I. P. 25.

(٢) العريني : الدولة البيزنطية ص١٨٥

(٣) Runciman: op. cit. I.P. 26.

(٤) أرشيبالد : القوى البحرية ص١٥٨

ولكن الموقف بدأ يتغير ابتداء من عام ٨٠٠م ، اذ أخذت بيزنطة تهمل شأن قوتها البحرية ويبدو أن هذا الاهمال يرجع الى أوائل عهد ايرين ، وبداية عهد الرشيد ، الذي قام بعدة حملات في آسيا الصغرى وكان يهدف من ورائها الى فتح القسطنطينية على أن اغارات المسلمين البحرية توقفت مثلما توقفت الغارات البرية على الحدود الشرقية بين المسلمين والبيزنطيين ابان انشغال هارون الرشيد في أواخر ايامه بالفتن والقلاقل ، وطوال فترة الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون [1] .

على أن العلاقات العدائية لم تتوقف نهائيا ، وفي سنة ٨٢٧م استولى أهل قرطبة الذين طردهم الخليفة الحكم الأموي على كريت ، ثم فتح المسلمون صقلية [2] .

ومنذ قيام الأسرة المقدونية بالحكم سنة ٨٦٧م تحول ميزان القوة الى جانب البيزنطيين ، الذين أخذوا يتوسعون على حساب الدولة الاسلامية ، وشجعهم على ذلك ، الى جانب قوة أباطرتهم ، ما انتاب الخلافة العباسية وتنتابه من الضعف [3] .

---

(١) العدوي (ابراهيم أحمد) : الامبراطورية البيزنطية ص ٨٧

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ ١٠ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

(٣) ازداد نفوذ الترك في دار الخلافة العباسية ببغداد ، واستقل احمد بن طولون بمصر سنة ٨٦٨م ، ونشبت الحرب الداخلية في شمال افريقية ، فاشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الاندلس. العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٣٢

وجرت بين مصر وبيزنطة فى فترة حكم الطولونيين اتصالات ، فقام أحمد بن طولون بالدفاع عن الثغور الشامية ، فآثر باسيل الأول مهادنة ابن طولون ، وأرسل اليه سنة ٢٦ هـ / ٨٨٧م عبدالله بن كاوس الذى كان قد وقع فى الاسر ومعه بضعة أسرى من المسلمين وعدة مصاحف هدية منه [١] .

وترتب على الحروب التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين ، أن امتد سلطان بيزنطة الى منبج ، وانطاكية ، وعقدت معاهدة بين الحمدانيين والبيزنطيين فى حلب ، فى صفر سنة ٣٥٩هـ / يناير ٩٧٠م [٢] ، وكان من شروطها دفع جزية سنوية للروم ، ومناصرتهم فى قتالهم ضد الفئات التى ليست اسلامية ، ولايؤخذ من نصرانى جزية ، الا اذا كان له بحلب مسكن وضيعة ، وأن يكون حكم حلب لقرعوية ومن بعده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميرا [٣] ، وقد اتخذت هذه الحروب صفة صليبية ، قبل أن تنشب الحروب الصليبية بزمن طويل ، ومن الدليل على ذلك ماورد فى رسالة يوحنا زمسكيس الى ملك أرمينيا سنة ٩٧٤م من أنه أراد أن ينتزع الاماكن المقدسة من المسلمين [٤] ، واشتد نفوذ البيزنطيين زمن يوحنا زمسكيس الى حمص وبعلبك

(١) ابن الاثير (عزالدين) : الكامل فى التاريخ جـ٧ ص ١١٠

(٢) ابن العديم (كمال الدين ابى القاسم عمر) : زبدة الحلب من تاريخ حلب (نشر سامى الدهان) جـ ١ ص١٦٣ الى ١٦٨ ، الانطاكى (يحيى بن سعيد) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ ١ ص ١٣٦ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص١٦٣ ــ ١٦٨ ، الانطاكى : التاريخ المجموع ص ١٣٦ .

(٤) حبشى (حسن) : الحرب الصليبية الاولى ص٧

فأذعنت له دمشق واستولى على بيروت وصيدا (١) .

على أن العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين لم تكن قاصرة على الحرب بل تجاوزتها الى نواحي سياسية ودبلوماسية واقتصادية واجتماعية ، واتسمت العلاقات بين بيزنطة والمسلمين في الشرق بالاحترام والاعجاب اذ كان للمسلمين في الشرق مكانة خاصة عند البيزنطيين ، لما اشتهروا به من المدنية ، ولما أقاموه من حكومة حازمة . وكان المسلمون عند بيزنطة في مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين في الغرب (٢) ، وكانت هناك مراسم خاصة لاستقبال السفارات العربية التي كانت تفد الى القسطنطينية ، ولقد حفظت لنا الكتب التي صنفت تحت اشراف قسطنطين بور فيرو جينتوس في القرن العاشر الميلادي موضوع مراسم البلاط البيزنطي DeCeremonis ووصف الاستقبال الودى البالغ الذى كان البيزنطيون يستقبلون به سفراء بغداد والقاهرة ، وكان السفراء العرب يجلسون على مائدة الامبراطور على مقاعد أعلى من تلك المخصصة لسفراء الفرنجة (٣) ، بل ان بطريرك القسطنطينية Nicholas Mysticus أشار في رسالته الى أمير أقريطش (كريت) العربي " ان دولتي العرب والروم ظاهرتان على العالم كله ، وهما تمتازان وتتألقان كالشمس والقمر في القبة الزرقاء ولهذا وحده لا مندوحة لنا عن أن نعيش معاً كأخوة بالرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين (٤) يضاف الى ذلك

---

(١) العريني : الدولة البيزنطية ص ٤٧٢

(٢) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

(٣) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤

(٣) Vasiliv (A.A.) : Hist. de L'Empire Byzantine ton I. P. 405.

أن الاسرى من كلا الجانبين كانوا يلقون أفضل رعاية ، ويشير المقدسي الى أن مسلمه بن عبد الملك لما غزا أرض الدولة البيزنطية اشترط على الامبراطور ، أن يبني بالقرب من قصره دار ينزل فيها كبار أسرى المسلمين حتى يكونوا تحت رعايته واشرافه (١) .

ومن الناحية الاقتصادية قدم كثير من التجار البيزنطيين الى المدن العربية ، كما وفد التجار العرب على بيزنطة لانجاز أعمالهم ، وبلغت التجارة البيزنطية العربية ذروتها ابان القرنين التاسع والعاشر (٢) ، اذ اقبل العرب على شراء ديباج بيزنطة الموشى ، كما سيطر العرب على تجارة المحيط الهندي بأجمعها ، وازدادت أهميتة طرابيزون فى القرن العاشر وأصبحت من أهم مراكز الاتصال التجارى العالمى ، وقال عنها المسعودى " لها أسواق يأتي اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم (٣) " ، وفى العصر العباسى الاول ضمت أكبر جالية اسلامية نزلت بالبلاد البيزنطية (٤) ، وبعد استرداد انطاكية سنة ١٠٨٥ وجه قدر معين من التجارة الشرقية عن طريق حلب الى انطاكية والى سلوكيا على البحر وكان التجار من كلا الجانبين يتمتعون بالرعاية ،

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٤٧ ، ١٤٨

(٢) ارشيبالد : القوى البحرية ص ١٢١

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ٣

(٤) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩٩ .

وكانت لهم أحياءهم وفنادقهم ، اشتمل كتاب والى المدينة القوانين التى تخضع لها التجارة السورية والتجار السوريين فى بيزنطة فكان عليهم ايداع بضائعهم فى احد الخانات ، وأن يجتمعوا جميعا فى قطاع واحد بالخان للبيع والشراء ، والا ينصرفوا فى انحاء المدينة ليبيعوا سلعهم ، وكان عليهم ايضا الا يقيموا اكثر من ثلاث أشهر فى المدينة ، [1] أما العلاقات الثقافية فظهرت فى اهتمام العرب بالثقافة اليونانية منذ الدولة الاموية ، فظلت اللغة اليونانية مستخدمة فى الدواوين ، كما وجد موظفون مسيحيون فى بلاط معاوية اذ نعم غير المسلمين بالتسامح الدينى ، ومما يدل على استمرار الأساليب اليونانية بناء الجامع الأموى وفق الاساليب البيزنطية ، كما جرت دفة الحكم فى دمشق ومصر فى الخمسين سنة الأولى من العصر الاسلامى وفق الاساليب البيزنطية ، ولقد بدأت حركة الترجمة اليونانية الى العربية فى العصر الأموى وازدهرت فى العصر العباسى فقد اتصل العرب بمراكز الثقافة اليونانية فى حران والاسكندرية وجند سابور [1] ، فترجم خالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب أصطفن القطى الاسكندرانى ، وكانت الترجمة فى الدولة الاموية مقصورة على العلوم العملية كالكيميا ، والطب والنجوم ، ولم يتعد ذلك الى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، وما الى ذلك فهذه لم تكن الا فى الدولة العباسية ، اذ كان اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية أول الأمر عن طريق الفرس ، فقد ترجم ابن المقفع كتبا من منطق اليونان ، ويبدو أنه نقلها عن الفارسية [٣]

---

(١) العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة للقرن العاشر الميلادى ص ١٠١
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٢٠
(٣) احمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٦٢

كما تولى بعض النصارى من النساطرة واليعاقبة الترجمة من السريانية الى العربيـــة ، وترجمت في العصر العباسي تأليف ارسطو وبعض مؤلفات افلاطون وكتب جالينـــــوس وأهم ما وصل اليه العقل اليوناني في العالم والفلسفة (١) ، وكان للثقـــــافة اليونانية أثر كبير في المسلمين ، وخاصة أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدويـن العلوم العربية فتسربت الثقافة اليونانية اليها ، وصبغتها بصبغة خاصة ، وكـــان للفلسفة اليونانية اثر كبير في تعاليم المتكلمين ، وهناك نوع آخر من الثقافة اليونانيـــة الرومانية وهي الثقافة الاجتماعية التي نشأت عن امتزاج ، الجنس العربي بالجنـــس اليوناني فشاهد العرب عادات البيزنطيين ، ونظم حكمهم وفنونهم من غناء وتصويـــر وما الى ذلك ، فنقل العرب عن اختلاطهم بالبيزنطيين مالم يتيسر لهم نقله عن طريـق البحث العلمي ، وكانت بلاد الشام اهم منبع لهذه الثقافة الاجتماعية (٢) ، كمـــا كان للحروب المستمرة بين المسلمين والروم ووقوع الاسرى من كلا الجانبين في يـــد الآخر أثر كبير في هذه الثقافة ، ومن هؤلاء الأسرى هارون بن يحيى الذى أســـر زمن باسيل الأول وقام بوصف القسطنطينية وعظمتها وطبوغرافيتها ، وكان من المسلمين من يتكلمون اليونانية ومن الرومانيين من يتكلمون العربية مما ساعد على تبادل الآراء والافكار في اللغة والأدب ، ويروى أن الامبراطور الروماني أرسل الى الرشـــيد يطلب أبا العتاهية ولكنه رفض الذهاب الا أن تأثير الادب كان ضعيفا اذا قيس بتأثير العلم والفلسفة ، ولقد نقل ابن النديم اسماء كتب الروم ، وترجمت حكم لفيثاغـــورث

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٦٣

(٢) الدمشقي (ابن صاعد): طبقات الامم ص ٢٧

وتسربت الفاظ يونانية الى العربية كأسماء الثياب وغيرها [1] . ويبدو أثر الحروب العربية البيزنطية في الادب في خلق نماذج لابطال يتصفون بالبسالة والاقدام والكرم . واصبح بعض هؤلاء شخصيات اسطورية لها قوة خارقة ومن ذلك محارب عربي اسمه عبد الله البطال . ربما يكون استشهد في معركة اقرينون في آسيا الصغرى سنة ٧٤٠م . كما نجد شعراء الحمدانيين اعمال المسلمين في الحروب مع بيزنطة كشعر ابوفراس الحمداني . وكذلك كان الامر في الجانب البيزنطي مثل ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التي نشأت حول شخصية ديمنيس اكرتياس وتدور حول شخص قتل في الحرب ضد العرب في آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م ويقال أن هناك ارتباطا بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليوناني وملحمة سيد البطال التركية التي لم تدخل في دائرة الشعر التركي الا بعد نقلها الى اللغة التركية وأصلها عربي [2] .

---

(١) ابوالفرج الاصفهاني : الاغاني ج ٣ ص ١٧٩
(٢) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٣

موقعة مانزكرت وأثرها :

يعتبر ظهور السلاجقة فاتحة عصر جديد لا فى التاريخ الاسلامى فحسب ، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام ، والسلاجقة فرع من الاتراك الغز نزحوا مع زعيمهم " سلجوق " الى بلاد ما وراء النهر حيث استقروا قرب بخارى ، وهناك اعتنق سلجوق الاسلام ، وتبعه قومه ، وسرعان مانمت قوة السلاجقة اذ بدأوا منذ سنة ١٠٢٨م يغيرون على حدود ايران الشمالية والشرقية واستولوا على خراسان ، ثم غزوا ايران ، وتطرقوا الى اقليم الجزيره واذ ضعفت الخلافة العباسية ، لم يسع الخليفة العباسى " القائم بأمر الله " الا أن يعترف بزعيم السلاجقة " طغرل " الذى دخل بغداد سنة ١٠٥٥م ، فى موكب رسمى ، ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة .

وعندما توفى طغرل ١٠٦٣م خلفه ابن أخيه " ألف أرسلان " الذى حكم فترة قصيرة مليئة بالاحداث ، اذ أن السلاجقة كانوا سنيين متحمسين ، فتحمسوا لنصرة الخليفة العباسى السنى ، ولذا أرسلوا حملة الى الشام لمحاربة الفاطميين ، استطاعت استرداد حلب ومكة ، والمدينة ، كما أخضعت الثورات التى قامت فى فارس[1] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٥

Runiciman: op cit vol I P. 64

وترجع شهرة ألب أرسلان الى موقفه من الدولة البيزنطية ، اذ أنه لم يلبث أن أغار على أطراف الدولة البيزنطية فى قبادوقيا واستولى على قيصرية ، فهب الامبراطور رومانوس الرابع ديوجنيس (١٠٦٧ ـ ١٠٧١م) للدفاع عن بلاده ، ولم تلبث أن دارت بين الفريقين معركة حاسمة عند مانزكرت[١] ، حيث أحرز الب ارسلان انتصارا حاسما ، ووقع الامبراطور البيزنطى فى الأسر ، ولم يطلق سراحه الا بعد دفع فدية كبيرة ، والتعهد بألا يقاتل المسلمين ، وأن يطلق سراح الاسرى المسلمين ، فضلا عن عقد هدنة لمدة خمسين سنة[٢] غير أنه لما عاد الامبراطور الى القسطنطينية تقرر خلعه عن العرش ، وخلفه فى الحكم الامبراطور ميخائيل السابع[٣] ، (١٠٧١ ـ ١٠٧٩م) ، وتعتبر مانزكرت من أفجع الهزائم فى تاريخ بيزنطة ، فقد بدت بيزنطة كأنها خسرت فى ميدان القتال كل دليل على انها حامية المسيحية[٤] ، ويشير وليم الصورى الى أن هذه الهزيمة خدمت الحركة الصليبية ، واثبتت أن بيزنطة لا تستطيع حماية الشرق ، ومن نتائجها ايضا القضاء على التحالف البيزنطى الفاطمى ، على أنه برغم انتصار السلاجقة فى مانزكرت ، لم يستغل الب ارسلان هذه الفرصة للتوسع فقد ظلت بيزنطة تحتفظ باقاليم الاطراف[٥] .

---

(١) مانزكرت أو ملاذكرت مدينة أرمينية تقع الى الشمال من بحيرة خان

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٧٥ Vasiliev: op. cit. I.P.469

(٣) عاشور (سعيد عبدالفتاح) : اوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٢٤

(٤) Runciman: op. cit. I. P; 64

(٥) Vasiliev : op. cit Tom. I. P. 356.

وتلى معركة مانزكرت زوال بقايا الادارة البيزنطية فى أرمينيا وقبا دوقيا بعد أن هجرها أهلها ، ويضاف الى ذلك أن السلاجقة كانوا يتدخلون لنصرة الاباطرة البيزنطيين والطامعين فى العرش البيزنطى وأخذوا يوطدون سلطانهم بآسيا الصغرى ، واستطاع سليمان بن قتلمش أن يحقق للسلاجقة السيادة بهذه الجهات.

وما حدث من التنازع على عرش بيزنطة ، والتجاء الطامعين الى السلاجقة لمساندتهم ، والى مناوءة العناصر النورمانية المأجورة فضلا عن دخول الترك جنودا مرتزقة فى القوات البيزنطية ، كل ذلك هيأ للسلاجقة الطريق لتوطيد سلطانهم بأسيا الصغرى. واستيلاء السلاجقة على حلب ودمشق وبيت المقدس منذ سنة ١٠٧٠ ، ثم انتزاع انطاكية من ايدى البيزنطيين سنة ١٠٨٥ [١] ، وما أصاب بيزنطة من الانهيار ، كل ذلك حمل البيزنطيين على الشعور والاحساس بأن السلاجقة اشد خطرا على دولتهم من العرب اثناء هجومهم على بيزنطة فى صدر الاسلام ورأوا انه ليس بوسعهم وقف تقدمهم ، فلم يسعهم الا التماس العون والمساعدة من غرب اوربا ، ولم يجد الامبراطور الكسيوس كومنين وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات ، حتى انتهى به الامر الى ارسال بعثة الى البابا اربان الثانى سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحيين بوجه عام [٢] .

---

(١) Runciman: op. cit. vo. I. P. 65.

(٢) عاشور : اوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٤٦ .

وبينما ارتفع شأن السلاجقة ، وامتد سلطانهم من بحر ايجسى شرقا الى حدود الصين غربا ، ومن بلاد القوقاز شمالا الى المحيط الهندى جنوبا ، وأخذ سلطان الفاطميين يتقلص ، فاستقل عنهم الساحل الشرقى للبحر المتوسط بسبب الازمات الاقتصادية التى حلت بالدولة وضعف الخلفاء فضلا عن المنازعات بين العناصر المختلفة بالجيش الفاطمى ، ومع ذلك استطاع الفاطميون أن يستردوا بيت المقدس سنة ١٠٨٩ (١) ، وما تعرضت له كل من الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية من خطر من قبل السلاجقة ، أدى الى قيام تحالف بينهما لمواجهة تهديد السلاجقة (٢) .

على أن أحوال العالم الاسلامى فى الشرق الاوسط ، ازدادت تدهورا [illegible] وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ ، فقامت امارات سلجوقية مستقلة بأسيا الصغرى والعراق وخراسان وكرمان . أما بلاد الشام فانقسم الى امارات متفرقة يدين بعضها بالولاء للسلاجقة بينما كان البعض الآخر وخاصة المدن الساحلية وبيت المقدس يخضع للفاطميين ، واستقل أمراء آخرون التى تولوها سواء من قبل السلاجقة أو الفاطميين ، بينما نشب النزاع بين ولدى تيتش ، رضوان ودقاق ، على مملكته التى اقامها بالشام ، واذ حل الضعف بالقوى الاسلامية التى تسيطر على منطقة الشرق الاوسط ، حيث

---

(١) Gibb (H.A.R.): The Claphite and the Arab State P.95

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٠١

ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب جـ ١ ص ١٦

تقع الاماكن المقدسة التى تطلع المسيحيون بغرب اوربا الى الاستيلاء عليها نهضت بيزنطة من كبوتها فى عهد الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨) [١] ، فما اتصف به الكسيوس من الدهاء ونفاذ البصيرة ، حمله على أن يستخدم من الأساليب مايكفل له القضاء على الفتن الداخلية ، وتوطيد مركزه ، واصلاح الاحوال الاقتصادية ، واعادة بناء الاسطول ، وتشكيل جيش جديد من المرتزقة [٢] ، والايقاع بين الامراء والقادة السلاجقة الذين هددوا ماتبقى له من أملاك فى أسيا الصغرى [٣] .

موقع بيزنطة من الحركة الصليبية :ــ

كان الامبراطور الكسيوس يأمل من وراء طلب امساعدة الغرب لــه أن يتوافر له من الجنود المرتزقة عما يعينه على طرد الترك من آسيا الصغرى ، وما طلبه من الغرب من امداد لم يقصد به الا اعتبارهم جنودا مأجورين يخضعون لسلطانه ، وينفذون أوامره ، ويردون اليه ما يستولون عليه من البلاد من أيدى المسلمين ويعترفون له بالسيادة والسلطان [٥] . وبفضل ما اشتهر به الكسيوس من المهارة السياسية ، وما أغدقه من الهدايا والتشاريف على قادة الصليبيين فضلا

---

(١) Runciman : op. cit Vol I. P. 75

(٢) Runciman: op. cit. vol. I.P. 76

(٣) ابن الاثير / الباهر فى الدولة الاتابكية (نشر عبدالقادر طليمات) ص٧

(٤) عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٢٠

(٥) Runciman: op. cit. I. P. 150.

عن الافادة من التنافس والتشاحن الذى وقع بين الجيوش الصليبية المختلفة ، استطاع أن يحمل القادة الصليبيين على بذل يمين الولاء له [١] . وكأنما تعين على الصليبيين أن يعيدوا الى بيزنطة ماكان لها من ممتلكات بالشام وقيادوقيا والرها ، [٢]

وبهذا استخدم الكسيوس الغرب المسيحى لتحقيق مطامع بيزنطة السياسية ، وبذلت بيزنطة للصليبيين كل ما لديها من مساعدات مادية وخبرة بطبيعة بلاد آسيا الصغرى ، ومهارة سياسية فى العلاقات مع الترك ، والافادة من السكان اليونانيين ، ووقوع النزاع بين القوى الاسلامية المختلفة بآسيا الصغرى [٣] ، كل ذلك حقق للصليبيين ، أمر الاستيلاء على المدن الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى الى أطراف الشام ، حتى بلغوا انطاكية ، وتهيأ للامبراطور أن يسترد بفضل الصليبيين الجانب الغربى من آسيا الصغرى [٤] .

مشكلة انطاكيــــة :

توجه الجيش الصليبى الرئيسى لحصار انطاكية التى تعتبر من أهم مدن الشام ، وكانت الثغر الجنوبى للاملاك البيزنطية وانتزعها سليمان بن قتلمش سنة ١٠٨٥ ، ولم تلبث أن أضحت من أملاك السلاجقة بالشام ، وكان يتولى

---

(١) حبشى : الحروب الصليبية الاولى ص٢٧

(٢) Grousset: Hist. des Croisades Tom. I. P. 27.

(٣) Runciman: op. cit. vol. I. P. 194.

(٤) Ostrogorsky: op. cit. P. 322.

حكوماتها من قبل السلطان ملك شاه ، ياغى سيان وظل يحكمها حتى سقطت فـــى أيدى الصليبيين سنة١٠٩٨ واستطاع بوهمند النرمندى أن يظفـر باحتلالهـــــا ، بعد أن اشتد النزاع عليها بين الامراء الصليبيين [1] .

والواقع أن امتلاك الصليبيين لانطاكية ، أدى الى التخاصم والتنـــازع بينهم وبين الدولة البيزنطية منذ بداية الحروب الصليبية ز، وتحكم الى حد كبــــير فى سياسة بيزنطة الصليبية [2] . فعلى الرغم من أن الامراء الصليبيين بذلوا يمــين الولاء للامبراطور الكسيوس ، فأصبحوا بذلك اتباعا له ، فيما يستولون عليه من أمــلاك ومدن وقلاع ، تعتبر من أملاك الامبراطور يمنحها لمن يشاء من الاجراء الاقطاعيـين [3]. على أن الامراء رأوا غير ذلك ، فاعتبروا أن مايفتحونه من بلاد داخل حدود الشـام ليس للامبراطور سلطان عليه ، ويعتبر من حقوق الامراء ، ولهذا حرص بوهمند بعــد الاستيلاء على أنطاكية على أن يتخلص من كل أثر ونفوذ بيزنطى ، فأوهم الامراء الصليبيين أن الامبراطور الكسيوس يكيد لهم ويتحالف مع السلاجقة ، ولم يسع ممثل الكســيوس وهو تاتيكيوس الا أن يفر الى قبرص ، وزعم الصليبيون أن الامبراطور أخل بشـــروط يمين الولاء ، اذ تخلى عنهم أمام انطاكية فى أحرج الاوقات ، ولم يقدم لهم مـــا يحتاجونه من المؤن والعتاد . وصار لبوهمند من النفوذ والسلطان ما جعله آخـر

---

(١) Runciman: op. cit. vol. I.P. 224.

(٢) Grousset : op. cit. Tom. I. 143.

(٣) Chalandon (F.): Hist. de la Premiere Groisade. P.227.

الأمر ينفرد بامارة انطاكية [1].

والواقع أن الصليبيين أفادوا من مساعدة البيزنطيين فيما احتلوه من الاراضى الاسلامية ، كما أفادوا من تفكك القوى الاسلامية فيما اتخذوه من سياسة مع الامراء المسلمين ، فان ماحدث من انقسام الشام بين السلاجقة والفاطميين والاتابكة والامراء المستقلين ، أضعف شأن المسلمين فى الشرق الاوسط ومن الدليل على ذلك ماحدث من محاولة الفاطميين الاتفاق مع الصليبيين ، بناء على نصيحة الامبراطور الكسيوس ، اذ أنه بذل النصيحة للصليبيين بالتماس صداقة الفاطميين [2] ، فأرسل الوزير الافضل بن بدر الجمالى الى انطاكية سفارة فى يناير سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م ، ومكثت بها شهرين وكانت هذه السفارة تحمل مشروع اتفاق بين الفاطميين والصليبيين ، تحصل فيه مصر على بيت المقدس ، وينفرد الصليبيون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الاماكن المقدسة بفلسطين ويسمح لهم بممارسة شعائرهم على الا تزيد اقامتهم اكثر من شهر واحد والا يدخلوها بسيوفهم ، ولقد رحب بهذه السفارة الصليبيون وأرسلوا معها وفدا الى القاهرة [3] ويبدو أن الصليبيين لم يهتموا فى ذلك الوقت بفكرة التحالف ، وأنهم ابعد مايكونون عن معاونة الفاطميين على استعادة ممتلكاتهم فى الشام ، اذ جعلوا كل اهتمامهم

---

(١) Runciman: op. cit. I.P.204.

(٢) Setton: A Hist. of the Crusades . vol.11. P. 316

(٣) Runciman: op. cit. vol. I. P.205.

موجها الى المسير الى بيت المقدس بعد استيلائهم على انطاكية [١] . ولذلك لم تحقق السفارة هدفها . وظن الفاطميون في مصر أن انتصار الصليبيين في انطاكية يحول دون زحف السلاجقة جنوبا ، ويمنع الخطر عن مصر ، كما اعتقدوا أن الصليبيين سوف يتوقفون في زحفهم عند بيت المقدس [٢] ، وبذا يؤلفون امارة حاجزة بين السلاجقة والفاطميين .

واذ أدرك الصليبيون ماوقع من الشقاق بين القوى الاسلامية فاتصلوا بدقاق أمير دمشق [٣] ، حينما علموا باستعداد كربوقا أتابك الموصل لمساندة ياغي سيان أمير انطاكية ، وأشاروا الى انهم لن يتعرضوا لممتلكاته بأذى ، وأنهم لا يقصدون سوى البلاد التي كانت بأيدي الروم ، والبيزنطيين [٤] على أن دقاقا لم يلتفت اليهم ، واستنجد بالسلطان السلجوقي في بغداد بركيارقا ورضوان صاحب حلب ، وأميرى حماه وسنجار ، فلم يسع الصليبيون الا الانتهاء الى البيزنطيين ، ومع ذلك فان بوهمند استطاع آخر الأمر أن يظفر بأنطاكية بفضل بسالة رجاله وخيانة أحد القادة الأرمن ، كان يخدم ياغي سيان [٥] ، وذلك دون أن ينتظر قدوم القوات البيزنطية ، بينما أعلن الامبراطور أن مصلحة الامبراطورية

---

(١) Grousset: op. cit. Tome. I. P. 83.

(٢) Grousset: op. cit. tome. I. P. 83.

(٣) Setton: op. cit. vol. I. P. 316.

(٤) حبشي : الحروب الصليبية الاولى ص ٥٤

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٣
ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٠٢

تستوجب العودة وتجنب التعرض لهجمات السلاجقة وكل ماكان يهتم به هو مصلحة الامبراطورية ورفاهيتها ، ولما وصلت الانباء الى المعسكر الصليبي بأن الامبراطور عاد الى عاصمة ملكه ، ورفض النهوض لمساعدتهم اعتبروا ذلك تخاذلا من الامبراطور، فاطمأن بوهمند بذلك الى أن تحققت أحلامه بالانفراد بأنطاكية (١) .

سياسة اللاتين تجاه بيزنطة :

على الرغم من أن الامبراطور لم يواصل السير لنجدة الصليبيين في انطاكية فانه أظهر استعداده لمساندتهم عند زحفهم على بيت المقدس فطلب منهم انتظاره لشهر يوليو ، ولعل السر في التأجيل يرجع الى أن الامبراطور حريص على الا يغفل أمر الاتفاقية السرية التى عقدها مع الفاطميين ، اذ ارتاب البيزنطيون في توسع الصليبيين ومتاخمتهم لحدودهم وأدركوا انه لابد من ابعادهم عنها (٢) .

والمعروف أن اليونانيين كانوا يؤلفون جالية كبيرة في انطاكية وكان البابا اوربان الثاني قد أوصى الأسقف ادهيمر بتوطيد العلاقات الودية مع بيزنطة وعدم التعرض لليونانيين الارثوذكس أملا في

---

(١) Runciman: op. cit. I.P.240.

(٢) Setton: op. cit. I.P.329.
Grousset: op.cit Tom I.p. 37

(٣) حبشي : الحرب الصليبية الاولى ص ٢١

التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فأعاد ادهمير بطريرك انطاكية الى كرسيه ، غير ان بوهمند قرر عزله بعد أن استقر في انطاكية وكشف مابين البيزنطيين والفاطميين من علاقات .

لم يسع الصليبيون الا أن يقرروا السير الى بيت المقدس بعد أن ارسلوا رسالة الى البابا يدعونه لقيادة الحملة ، ولكن البابا اعتذر ، وفى اثناء سير الصليبيين الى بيت المقدس وصلت رسالة من الامبراطور البيزنطى فى سنة ١٠٩٩م ، تذكرهم باتفاقهم السابق ، وما بذله جميع البارونات من يمين الولاء ، التى تلزمهم بأن يردوا اليه ماوقع بأيديهم من المدن والقلاع وفقا لاتفاقية سنة ١٠٩٧ م ولقد كتب الفاطميون الى الكسيوس حين تقدم الصليبيون فى أراضيهم لايضاح مدى صلته بتلك الحركة (١) واشتراكه فيها ، فأنكر صلته بها وكان سبب اتخاذه ذلك الموقف ، تصرفات بوهمند وعدم وجود مصالح له فى بيت المقدس. أما واجبه نحو الارثوذكس المسيحيين بصفته حاميا لهم ، فقد حمله على الاعتقاد أن بقاءهم تحت الحكم الفاطمى أفضل من حكم الفرنج المخالفين لهم فى المذهب ، والذى بدت دلائله تجاه السكان الوطنيين بما تعرضوا له من اضطهاد وتعذيب ، وفى نفس الوقت لم يقطع علاقته بالصليبيين ، ولكن تلك الرسائل وقعت فى أيدى الصليبيين الذين اعتقدوا فى خيانته لهم . ورغم ذلك تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس (٢) .

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٠٥

(٢) عاشور / الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٤

اقام الصليبيون لهم فى الشرق الادنى فيما بين سنتى ١٠٩٧ ، ١٠٩٩ ثلاث أمارات : الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، فتغيرت الاوضاع السياسية بهذه المنطقة ، اذ حرص الصليبيون على تثبيت أقدامهم ، ولم يلبث أن ظهرت أطماعهم السياسية والشخصية والاقتصادية . اذ حرص كل أمير على تملك ما وقع فى يده من المدن والقلاع الاسلامية ، وحازت الجمهوريات الإيطالية من الامتيازات ما جعل مساعدتها بالغة الاهمية للصليبيين ، كما تغير موقف بيزنطة من الصليبيين ، ويدل على ذلك ما انتهجته من سياسة تجاه حملة سنة ١١٠١م [1] التى بدأ فى تأليفها لمساندة الصليبيين فى الاستيلاء على انطاكية سنة ١٠٩٨م ولم تتحرك الا بعد سقوط بيت المقدس اذ تعرضت هذه الحملة لهزيمة ساحقة على أيدى السلاجقة [2] ، وترتبت على هذه الهزيمة نتائج خطيرة ، اذ استعاد السلطان السلجوقى نفوذه فى آسيا الصغرى ، واتخذ قونية عاصمة له ، وهدد الطريق الرئيسى بين القسطنطينية والشام ، كما مد غازى الدانشمندى نفوذه الى الفرات ، فأصبح يهدد الرها ، واصبح طريق آسيا الصغرى موصدا مرة أخرى امام الصليبيين والبيزنطيين [3] ، وألقى الصليبيون مسئولية هذه الهزيمة على عاتق بيزنطة ، فى حين اتهمتهم بيزنطة من جانبها بأنهم لم

---

(١) العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ ١ ص ٣٠٠

(٢) Runciman: op. cit. vol . II. P. 21

(٣) Ostrogorsky: op. cit. P. 323.

يتبعوا خطط الامبراطور البيزنطى ، ونتج عن ذلك أن أصبح من المحتم على الصليبيين والبيزنطيين عند توجيه أى حملة ، أن يسلكوا طريق البحر ، فاستفادت المدن الايطالية بيزا وجنوه فى الحصول على مزايا تجارية ضخمة [1] .

الدولة العباسية والبيزنطيون :

بدأت حركة الافاقة فى الدولة الاسلامية ، وبدأت تظهر بوادر توحيد الجبهة الاسلامية وفكرة الوقوف فى وجه الصليبيين فى شمال العراق أولا ثم بلاد الشام [2] ، ولكنها لم تتضح تماما ، فلم يكن للمحاربين عزيمة صادقة فى الجهاد ، وقد بدأت حركة الافاقة فى شمال العراق ، وذلك لقربها من الرها والخوف من الصليبيين ، ولقد بدأها جركمش حاكم الموصل ، ثم مودود اتابك الموصل ، ولقد تسربت فكرة الجهاد الى نفوس العامة ، فى البلدان التابعة للخلافة العباسية حيث انذروا الخليفة العباسى بوجوب مقاومة الغزو الصليبى ، بعد أن تعرضت حلب لحصار الصليبيين ، فخشى المسلمون استيلاء الفرنج على بقية بلاد الشام [3] ، فسار جماعة من أهل حلب الى بغداد ، مستنصرين على الفرنج ، واغتنم

---

(1) Runciman: op. cit. vol II. P. 29.

(2) Grousset: op. cit. Tome. I. P. 416.

(3) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص١٥٢

الكسيوس كومنين الفرصة ،وأرسل لسلطان السلاجقة ببغداد يحثه على قتال الفرنج ، ووصلت سفارته وقت وصول أهل حلب ، فاشتد أهل حلب فى حث السلطان على الجهاد بأن قالوا للسلطان " أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم اكثر حمية منك للاسلام حتى لقد أرسل اليك فى جهادهم " (١) وتضمنت رسالة الامبراطور البيزنطى للسلطان السلجوقى والخليفة العباسى عرض التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، كما تضمنت الاشارة من طرف خفى الى نوايا الصليبيين وأنه منعهم من العبور الى بلاد المسلمين ، وكانت هذه السفارة تهدف الى القيام بجهد مشترك بين بغداد وبيزنطة ، ضد الصليبيين اذ كان الامبراطور يعلم الا أمل فى أن ينفذ قادة الفرنج اتفاقاتهم معه وتسليمه انطاكية (٢) ، وليصفو له الجو ويضعف كلا الجانبين (الصليبى والاسلامى) ، نهضت جيوش عربية تولى قيادتها مودود زنكى ، حاصرت تل باشر سنة ١١١٠م ٥٠٤ هـ واشرفت على أخذها (٣) .

السلاجقة والبيزنطيون فى آسيا الصغرى :

منعت غارات السلاجقة الامبراطور البيزنطى من التدخل فى شئون

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٠٣

(٢) Runciman: op. cit. vol I.P. 121.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٥٨

سوريا ، وبعد موت الغازى كمشتكين الدانشمندى سنة ١١٠٦ م كان لبيزنطة في الاناضول قوات كبيرة ، اذ أن الكسيوس كان يهدف الى بسط سلطانه على المناطق الغربية على الشاطىء الجنوبي [١] وحكم قباد وقيا القائد السلجوقي حسن الذى حاول سنة ١١١٠م الاستيلاء على اراضى الدولة البيزنطية ، وتقدم في اتجاه فيلادلفيا وكان يهدف الاستيلاء على أزمير ، ولكن القائد البيزنطى Eustathius philoces قائد الجزء الجنوبي الغربى من الاناضول حرص على احباط محاولة حسن واستنقاذ الشاطىء الايجيني من هجمات السلاجقة [٢] ، وفي نفس الوقت كان اكبر أولاد قلج ارسلان قد تخلص من أسر الفرس واتخذ قونيا عاصمة له بعد محاربة القائد حسن في محاولة لاسترداد اراضى اسلافه ، فاتجه الى فيلادلفيا سنة ١١١٢م ، حيث التحم مع الجنرال البيزنطى Gabras واشتبك معه مرة ثانية سنة ١١١٣ م فأرسل حملة سريعة الى بيثينيا وأسوار قونية فحاصر قائدهم محمد مدينة Poemarenum حيث قبض على القائد البيزنطى ، واتجه الى ابيدوس كما حاصر ملكشاه Pergamum واستولى عليها ، وخرج الامبراطور بنفسه لمواجهة السلاجقة ، وانتظرهم اثناء عودتهم محملين بالغنائم وفاجأهم واشتبك معهم قرب Catyaeum فاستعاد الاسرى

---

(١) Runciman: op. cit. vol. II. P. 138.

(٢) Runciman: op. cit. vol II. P. 138

والغنائم ، وفى سنة ١١١٥م ترددت انباء على أن ملكشاه يستعد للحرب مرة ثانية وقضى الكسيوس السنة فى احتلال بيثينيا ، وفى السنه الثالثة كان مريضا ، ومع ذلك عزم على أن يبدأ بالهجوم ، واتجه جنوبا الى قونية وانتصر البيزنطيون فى Philomelum [1] ، واضطر ملكشاه لطلب الصلح واعترف بحدود بيزنطة التى امتدت من طرابيزون الى قليقيا والمناطق الواقعة غرب انقرة ، ثم قتل ملكشاه على يد أخيه مسعود بعد تحالفه مع الدانشمند ولكن استمر الترك فى غاراتهم فى جوف الاناضول ، ومنع هذا بيزنطة من اتخاذ اجراءات فعلية فى سوريا ، وكل هذا أفاد امير ارمينيا Thoros ، والنورمان فى انطاكية ولقد توازنت قوة البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى ، لذلك منعت تلك الاحداث الكسيوس من الذهاب الى روما [2] .

وفى سنة ١١١٨م توفى كل من الخليفة المستمين فى بغداد والكسيوس كومنين وبلدوين الاول [3] .

سار يوحنا كومنين (١١١٨م - ١١٤٣م) على سياسة ابيه الكسيوس ، الذى خلف له اسطولا قويا وثروة ، فضلا عن جيش تجهز

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P.324.

(٢) أسد رستم : الروم ص١٣٣

(٣) Chama,dp,: Alexis comene p 263
Runciman: op. cit vol II. P: 134

بالمتاد ، وتلقى تدريبا جيدا نحرص على تأمين الحدود ، واستمادة مافقدتـــه الامبراطورية من املاك ، وتأكيد ســلطة بيزنطة على شمال الشام [١] ، بينمــــا كان السلاجقة منقسمين على انفسهم : فالسلطان مسعود فى قونية يســـيطر على الجزء الجنوبى من شبه جزيرة الاناضول من سنجار الى طوروس ، ثـــم الامير غازى الدانشمند يحكم من هاليس الى الفرات وبين أملاكهما مدن يحكمهـــا افراد مستقلون [٢] ، وكان طغرل ارسلان امير ملطية لاينفك فى الاغارة عـــلى سواحل أدنة وسائر قليقية ، فقاد يوحنا جيشه واستعاد أدنـه رالاناضـــول [٣] وكان من حسن حظ بيزنطـة أن وقعت الفتنة بين السلاجقة ، فنشب خـــلاف بين السلطان مسعود وأخيه عرب على امارة طغرل وملطية فاضطر مسعود للهـــرب للقسطنطينية حيث استقبله الامبراطور استقبالا حسنا ،ولكن مسعودا استطـــاع استعادة عرشه ولجأ عرب بدوره الى قليقيه ثم القسطنطينية ، وأمضى الامبراطور الاعوام من ١١٣٠ ــ ١١٣٥ فى مهاجمة دانشمند ، ولكن عكر عليه صفو ذلـــك هروب أخيه اسحق ١١٣١ م حيث قضى تسعة اعوام ، يدبر المكائد مع الامـــراء المسلمين والارمن ، ومنذ وفاة الامـــير غازى دانشمند لم تستطع قوة سلجوقيـــة

---

(١) Grousset: op. cit. I. P. 462

(٢) Runciman: op. cit. II. P.201.

(٣) Ostrogorsky: op. cit. P. 336.

أن تعترض طريق الامبراطور يوحنا الذى استعاد كل ممتلكاته التى فقدها [1] .

العلاقة بين البيزنطيين والزنكيين :

ظلت مشكلة انطاكية موطن الشقاق ، وسبب التوتر بين الصليبيين والبيزنطيين ، فبعد أن تخلص الامبراطور من مشاكله مع السلاجقة ، حاول استعادة انطاكية بعد مصرع بوهمند الثانى سنة ١١٣٠ ، والمعروف أن ملك بيت المقدس لذلك تدخل فى أمر انطاكية للمحافظة عليها من اطماع البيزنطيين وزنكى [٢] ، غير أن اليس الوصية على العرش لجأت الى كل من زنكى والامبراطور البيزنطى ثم اختارت لابنتها ريموند بواتيه ليكون زوجا لها ، فأثار هذا غضب الامبراطور ضد انطاكية ولجأ لاستخدام القوة ، وان كانت المراجع الاسلامية [٣] تشير أن السبب فى قدوم الامبراطور البيزنطى يرجع الى استنجاد الفرنج به ، ولما مضت القسس والرهبان الى بلاد الروم واستفزوهم المسلمين بسبب عماد الدين ومنازلة بعرين وتماجأت اخبار الحملة كل من الارمن والصليبيين ، وقبض الامبراطور على ابن لاون وسيره الى القسطنطينية . ثم اتجه الى انطاكية وحاصرها ، ولم يكن ريموند فى انطاكية بل كان يساعد ملك بيت المقدس فى قتال زنكى فى بعرين ، ولكنه استطاع

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 33b.

(٢) ترزعم عماد الدين زنكى حركة الجهاد فى النصف الاول من القرن الثانى عشر .

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٣٢

دخول المدينة مع حرسه [1] وأثر الامبراطور يوحنا ألا يقدم على تحطيم قـــــوة انطاكية ولا سيما بعد أن ظهرت قوة زنكى [2] ، ولم تنقل الى ريموند مساعدة خارجية فأرسل يعرض على الامبراطور المفاوضة ثم توصلا لاتفاق اعترف فيه بسيادة الامبراطورية البيزنطية على أنطاكية ، وعلى أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الامبراطور ، واتفقـــا على القيام بحملة سنة ١١٣٧ ، تحددت اهدافها ، فى تحطيم قوة زنكـــــى فى حلب ، وامارة بنى منقذ فى شيزر ، وانتزاع حمص [3] من اتابكية دمشـــــق ثم اقامة امارة تشمل الاجزاء الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشـــــيزر وحماه وحمص ، على أن يعين ريموند براتيه اميرا على تلك الامارة الجديـــــدة وفى هذه الحالة يتحتم على ريموند أن يعيد انطاكية الى الامبراطور البيزنطـــــى ، على الرغم من ان الامبراطور البيزنطى أرسل الى زنكى سنة ١١٣٧ مبعوثا من قبـــله يخطره بأنه لن يقصده ويقاتله [4] ،وفى يناير سنة ١١٣٨م بدأ الاستعداد الفعلى للحملة فقبض على التجـار والرعايا المسلمين من اهل حلب حتى لا تتسرب انبـــاء الحملة الى زنكى ،وهبط الجيش البيزنطى الى الشام تسانده جيوش انطاكية والرهـا [5]

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 336.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٢

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٨٣

(٤) وصل الرسول الى زنكى ، وهو متوجه الى القبلة فرده ومعه هدية الى ملــك الروم فهود وبذاه وصقور على يد الحاجب حسن ، ابن المديم : زبـــدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٣

(٥) ابن المديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٥

واتجهوا الى الشمال الشرقي من حلب واستولوا على بزاعة سنة ١١٣٨ م[1] ، وكــان زنكي يحاصر حمص فأرسل بعض قواته بقيادة سيف الدين سوار لتقوية حلب ، ولـم يستطع الصليبيون بسبب مناعة وقوة استحكامات حلب الاستيلاء عليها ، فهبطـوا للجنوب واستولوا على الاثارب ومعرة النعمان وكفر طاب ، وواصلوا الزحف الـى أن وصلوا شيزر ، ولكن الحصار على شيزر لم يحقق نجاحا لمناعتها ، ولأن أميـر انطاكية والرها انصرفا الى أمورهما الداخلية ونهض زنكي لمساعدة شيزر ، وأرسـل الى بغداد للدعوة للجهاد الديني ، فأرسل القاضي كمال الدين الشهزوري للسلطان مسعود السلجوقي الذى اضطر امام ثورة اهل بغداد الى اعداد حملة ، كمـا نهض عساكر دمشق لمساعدة زنكي ، الذى أرسل الى الامير الدانشمند يطلب منـه الاغارة على آسيا الصغرى ، ووقف زنكي على النزاع بين الصليبيين والبيزنطييـين فسعى الى اثارة الفرقة بينهم ، فكان يرسل الى ملك الروم ، " ان فرنج الشـام خائفون ، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه" ، ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم " ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا ، فاستشعر كل مـن صاحبه "[2] فاحجم كل من أميرى الرها وانطاكية عن مشاركة الامبراطور فى الهجوم على شيزر، اذ كره جوسلين أن يرى ريموند قريبا منه ، فى حين خشي ريموند أن يضطر

---

(١) العريني : الشرق الاوسط جـ ١ ص ٥١٣

(٢) ابوشامة : الروضتين جـ ١ ص ٣٢

للتنازل عن انطاكية ، وأدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين والبيزنطيين الى فشل الحملة (١) ، وما كاد جانب من المدينة يسقط حتى التمس السكان الهدنة ، فأجابهم الامبراطور ، وتضمن الاتفاق دفع مبلغ كبير من المال جزية سنوية رمزا للتبعية للامبراطور ، فضلا عن الهدايا والخيول . وانسحبت الجيوش البيزنطية الى انطاكية وطلب الامبراطور من ريموند تسليم انطاكية ولكن جوسلين كونت الرها اثار النفوس على الامبراطور والارشوذكس وخوفهم من نوايا الامبراطور ، واندلعت ثورة عامة فى انطاكية واعتدوا على الجيش البيزنطى (٢) ، وأغار سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى على قليقية وادنه والمصيصة بايعاز من زنكى ، فاضطر الامبراطور للعودة للقسطنطينية .

استعاد زنكى فى مايو سنة ١١٣٨م حصن بزاعة والاثارب ، وضاعت مكاسب بيزنطة . (٣)

عاد الامبراطور يوحنا سنة ١١٤٢ لاستعادة انطاكية ، ولكن ريموند اعتذر بأنها ملك لزوجته كونستانس ، وليس بوسعه التنازل عنها ، وقرر الامبراطور استعادة المدينة بالقوة (٤) ولكن قدوم الشتاء منعه من الهجوم ، واتجه الى قليقية واستعاد بعض القلاع من الدانشمند ، ولقد اراد الحج

---

(١) العريني : الشرق الاوسط ج ١ ص ١٦

(٢) Grousset: op. cit. Tome. I.P. 121,123. P 124

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٩٠ Stevenson: The crusaders in the East.

(٤) Ostrogorsky: op. cit. P. 336.

والقدوم الى بيت المقدس على رأس جيشه ، ولكن تولك رفض لتخوفه منه من دخـــول جيش بيزنطي ، فقال انه يرحب بحاشية صغيرة ، وانكر اى حق شرعي للامبراطـــور البيزنطي فى بيت المقدس ، مما اثار الامبراطور وقرر القتال ،ولكن عاجلتـــــه المنيـــة [1] .

تولى عرش بيزنطة مانويل (١١٤٢ ـ ١١٨٠) الذى اشتهر بميـــله الى الغرب والتقاليد الغربية ولكنه لم يتخل عن مصالح بيزنطة فى الشرق ، فقامـت الدبلوماسية البيزنطية فى عهده على اساس المحافظة على توازن القوى فى الشـــرق بالايقاع بين القوى الاسلامية المختلفة والايقاع بينها وبين الفرنج ، لتعـــود الفائدة فى النهاية على بيزنطة وتتجلى سياسته فى علاقته بامراء الحملة الصليبيـــة الثانية والسلاجقة ونور الدين الذى تولى قيادة الجبهة الاسلامية بعد ابيـــه عماد الدين زنكـــى .

موقف البيزنطيين من السلاجقة والحملة الصليبية الثانية :

كان لسقوط الرها سنة ١١٤٤ م على يد عماد الديـــن زنكـى اثـــره الكبـــير بالنسبة لصليبى الشـام فارسلوا يســـتنجدون بالغـرب الاوربـــى [2] ،

---

(١) Ostrogrosky: op. cit. P. 337.

(٢) Runciman: op. cit. vol II. P.247

بل ان الاساقفة الارمن أخبروا البابا بما حدث فى الشرق وطلبوا مساعدته ضـــد بيزنطة . ودعا البابا الى حرب صليبية جديدة ويكون هدفها استعادة الرهـــا ، ولقى هذا النداء استجابة من اكبر ملكين في الغرب وهما كنراد الثاني امبراطـــور المانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وبدأ الاستعداد للحملة التي كان لابد لهـــا ان تجتاز اراضى الدولة البيزنطيـــة (١) .

اختلف موقف بيزنطة من هذه الحملة عن موقفها عن الحملات الاولـــى ، فالمعروف أن الكسيوس هو الذى استنجد بالفرنج لقتال الترك لاستعادة آسيا الصغرى ، أما فى عهد مانويل فان الامبراطورية البيزنطية استعادت آسيا الصغرى واصبحـــت الامارات اللاتينية حاجزة بينها وبين المسلمين ، واعترف ريموند (٢) امير انطاكيـــة بالتبعية ، فلم يكن لهذه الحملة اهمية بالنسبة لبيزنطة ، بل انها سوف تجلـــب لها متاعب نجمت عن تصرفات الصليبيين ، ولا سيما أن ريموند امير انطاكية كـــان من الداعين للحملة (٢) ، اذ يمت بصلة القرابة لملك فرنسا احد قادة الحملـــة ، وزاد الامر سوءا علاقة الامبراطور بالسلاجقة ، واتفاقه معهم ، مما اثار النفوس بـــين

---

(١) Runciman : op. cit. II. P. 247, Grousset op. cit. II.P. 230-232

(٢) Berry: The Second Crusades P. 470.

(٣) كان ريموند قد توجه الى القسطنطينية واقسم للامبراطور يمين الولاء سنة ١١٤٤ واتفق معه على مهاجمة حلب سنة ١١٤٥ .

بيزنطة والصليبيين . حدث بعد وفاة السلطان غازى الدانشمند أن وقع النـــزاع بين ابنائه الثلاثة ، واستغل سلطان قونية مسعود الفرصة لبسط نفوذه على الاناضول والتوسع فى ارض الدانشمند ، فلم يسعهم الا التحالف مع بيزنطة ســنة ١١٤٣م ، وعندئذ تقدم مسعود سنة ١١٤٥م فاستولى على املاك الدانشمنديين فى ايزوريــا ، وتوسع فى وادى نهر ، بينما حاصر الامبراطور البيزنطـــى قونية ، وفى اثناء الحصار بلغته انباء الحملة الصليبية الثانية ، وتعرض املاكـــه لهجوم روجر ملك صقلية فتحتم عليه رفع الحصار ، واذ ارتاب مانويل فى نوايـــا الصليبيين عقد اتفاقية مع السلاجقة ، حين ارسل اليه السلطان مسعود سفارة[1] .

ولقد ارتاع[2] الامبراطور البيزنطى مانويل لما ذاع من انباء اشـــتراك الامبراطور كنراد فى الحرب الصليبية ، وأراد أن يخرج من نطاق المحالفـــة التى انعقدت بينهما ضد روجر ملك صقلية ، نظرا لانه ليس بوسعه فرض سلطانـــه على مايستولى عليه كنراد من الاراضى التى بحوزة المسلمين ، واثناء اجتيـــاز كنراد اراضى الامبراطورية ارسل مانويل يونانيين فى سفارة اليه ، يسعيان للوقــوف على نوايا الامبراطور الالمانى ، واشارا بأنه لن يسمح للالمان باجتياز الاراضـــى

---

(١) Runciman: op. cit. vol II. P. 264

(٢) العرينى : الشرق الاوسط جـ ١ ص٥٢٣

البيزنطية مالم يتعهدوا بعدم الحاق الاذى والضرر بمصالح الامبراطور البيزنطى ، فتعهد كنراد بذلك ، ووعد الامبراطور البيزنطى ، بتوفير المؤن [1] ، ولكن ادلاء البيزنطيين لم تكن خالصة ، فلم يقدموا مافيه الكفاية من المساعدة والمرشدين ولم يشتركوا فى مهاجمة السلاجقة ، وبذلك حالوا دون القضاء على تلك العقبة التى ظلت تعترض الطريق البرى للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب [2] .

عبر كنراد الثالث المسفور الى آسيا الصغرى ، ولم يتخذ الطريق الذى نصح البيزنطيون به وهو طريق الساحل الغربى الى اضاليا ، والذى يخضع لسلطان بيزنطة ، واختار كنراد أن يشق طريقه فى جوف البلاد مخترقا اراضى السلاجقة ، ودب النزاع بين الالمان ودليلهم البيزنطى ، فتركهم الدليل وتخلى عنهم مما عرض الصليبيين لأسوأ النتائج ، ودارت بالقرب من دوريليوم معركة بين الترك والصليبيين سنة ١١٤٧م وهلك فيها معظم الجيش الصليبى ، [3] ووصلت تلك الانباء الى الملك لويس السابع الذى كان قد قدم ووصل امام اسوار القسطنطينية فى سنة ١١٤٧ وصدم بأنباء الصلح المنفرد الذى عقده الامبراطور مع سلاجقة قونية وطلب منه مانويل كالعادة الا يستولى لويس على بلد أو حصن بمملكة مانويل ، وان يرد له ما ينتزعه من البلاد من أيدى المسلمين ، وأمر بوقف امدادهم بالمؤن

---

(١) العرينى : الشرق الاوسط ج ١ ص ٥٥٢

(٢) Grousset: op. cit. II. P. 222.
Berry, op. cit P 488

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٥

الا اذا اقسموا له يمين التبعية [1] .

وسلك الامبراطور الطريق الجنوبي المحاذي لساحل بحر ايجه بعيـدا عن السلاجقة ، واتجه لويس ومعه كنراد الى ازمير ثم الى افسوس ، وارسل مانويل يطلب اليه تجنب قتال الترك الذي احتشدوا للوقوف على الفرنسيين . التزم الامبراطور بمعاهدته مع المسلمين ، ولم يستجب لويس لنصيحته فتعرض مع جيوشه لهزيمة ساحقة من قبل الترك السلاجقة سنة ١١٤٨م واتجه الى انطاليا ، وقـرر لويس السابع اتخاذ طريق البحر الى السويدية وانطاكية [2] ، ولقد ظهرت صعوبة اخرى ، اذ أظهر البيزنطيون عداءهم مرة اخرى ، فامتنعوا عن تقديم السفن اللازمة للصليبيين ، بل انهم سعوا لاثارة المتاعب والعقبات في وجه الصليبيين ، مما اثار الغرب الاوربي ضد الاباطرة البيزنطيين ، بل ان الامبراطور عمد الى معاقبة اهل اضاليا بعد أن أمدوا الصليبيين بالمؤن [3] ولما كانت السفن التي اجتمعت لنقل الصليبيين غير كافية ، ركب لويس السابع وحاشيته في سنة ١١٤٨ ما اعده من السفن ، أما بقية الحملة فقد ظل رجالها في انطاليا يقاسون الامرين من سوء معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة ، حتى تم نقلهم على دفعـات الى الشـام . [4]

---

(١) العريني : الشرق الاوسط جـ ١ ص ٥٥٦

(٢) عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٢٧

(٣) Camb. Med. Hist. IV. P. 307.

(٤) العريني : الشرق الاوسط جـ ١ ص ٥٦٠

ولم تحقق الحملة الثانية ماهو مرجو منها ، فبدلا من تحطيم قـــوة نورالدين بعد استيلائه على الرها ، وتأمين الطريق من انطاكية الى طرابـــلس والى بيت المقدس اذ تتوجه الحمله بناء على رغبة ملك بيت المقدس الى دمشـــق والى معين الدين آنر ، وذلك لحماية مملكة بيت المقدس من الغارات التي يشنهـا المسلمون ، وتحقيقا لاطماعهم التوسعية [1] ،ولم يشترك في الحملة امراء انطاكيـة وطرابلس على أن الحملة برغم ضخامتها لم تنجح في الاستيلاء على دمشق لما وقـع من النزاع بين قادتها ، ولمهارة وزير دمشق معين الدين انر في الايقـــاع بين رجالها ، فضلا عن تحالفه مع نورالدين [2] .

عاد لويس الى الغرب حاقدا أشد الحقد على بيزنطة حتى انه تحالــف مع النورمان في يولية سنة ١١٤٩م أثناء عودته ،بعد ان هاجم البيزنطيون ســفنه واستولوا على بعضها ، ومضت اشهر قبل ان يوافـــق الامبراطور على اعـــادة الرجال والبضائع لفرنسـا .

ما إحل بالحملة الصليبية الثانية من كوارث [3] اثناء اجتياز آسيا الصغرى أساء الى العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين وأخذ كل فريق يكيــل التهم للآخر ، فاتهم البيزنطيون بأنهم لم يقدموا الا مقادير قليلة من المؤن مقابـــل

---

(١) Grousset: op. cit. II. P. 243.

(٢) العريني : الشرق الاوسط ج ١ ص ٥٦٧

(٣) العريني : الشرق الاوسط ج ١ ص ٥٧٢

مبالغ ضخمة ، ولم يوفروا السفن اللازمة لنقل الجنود ، ولم يقدموا الادلاء اللازمين فضلا عن تحالفهم مع الترك ضد الصليبيين ، بل ان لويس السابع والقديس برنارد قررا الدعوة لحملة صليبية لمناوأة بيزنطة ، وما جرى من توجيهه التهم للصليبيين انصب على ما لجأ اليه الجند من نهب البلاد وتخريبها واعتداء الفرمان على الاملاك البيزنطية باوربا والبلقان (١) .

أفاد الجانب الاسلامي من فشل الحملة الصليبية الثانية اذ تحطمت اسطورة الصليبيين ، ولم يعد من العسير على القوى الاسلامية ان تنهض لقتال الفرنج ، ولا سيما بعد أن وضع عماد الدين زنكي سياسة ترمي الى توحيد الجبهة الاسلامية ، وأثارة حركة الجهاد الديني ، يضاف الى ذلك اشتداد خطر المسلمين على سائر الامارات الصليبية في الشام بعد اتحاد الموصل وحلب ، وماجرى من المنازعات في داخل الامارات الصليبية وخارجها ، كل ذلك جعل الصليبيين يتطلعون الى بيزنطة لحمايتهم (٢) .

انتهج نورالدين الوسائل السلمية لبسط سيادته على الامراء المسلمين المجاورين ، في آسيا الصغرى والشام ، من ذلك ماحدث من المصاهرة بين نورالدين وامراء السلاجقة في آسيا الصغرى ، وترتب على

---

(١) Runciman : op. cit. II. P. 286. 287.

(٢) Grousset: op. cit. II. P. 288.



ذلك اقتسام نورالدين والسلاجقة ماتبقى من املاك الرها ، وما كان من المعاهدة بينه وبين أنر وزير دمشق ، والافادة من المنازعات الناشئة بين الصليبيين .

النزاع حول انطاكيـــة :

ثار خلاف بين البيزنطيين والصليبيين حول انطاكية ذلك أن كونســـتانس أرملة ريموند طلبت من الامبراطور البيزنطي أن يلتمس لها زوجا ، غير انها لم تأنس لاحد ممن رشحهم الامبراطور [1] وتزوجت آخر الامر من ريجيالد شايتون ، الـــذى اشتهر بالمغامرة ، وانكار حقوق البيزنطيين ، والحرص على تحقيق مطامعه الشخصية ، وحاول بلدوين الثالث — ملك بيت المقدس — التقرب من البيزنطيين للحفـــاظ على املاكه ، وتزوج تيودورا ابنة أخ الامبراطور [2] ، وقاد الامبراطور جيشـــه تجاه قليقية ، ليسترد حقوقه في انطاكية ولتأديب ثورس لتحالفه مع ارناط (ريجنالد) لمواجهة صلاجقة الروم والدولة البيزنطية ، في الوقت اتخذ الامبراطور من سلاجقـة الروم حاجزا يحول دون تزايد نفوذ الامير الارمني .

ولما علم أرناط (ريجنالد) بالامر ، طلب مساعدة بلدوين للتوسط عنـد الامبراطور ولكن بلدوين رفض هـذه الوسـاطة ولم يجد ارناط بـــدا مـــن التوجه الى الامبراطور . وتذكر المراجع أن أرناط دخـل عـلى الامبراطـــور

---

(1) Vasiliev : op. cit. P. 81.

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص٦٧٣

عارى الرأس حافى القدمين فعفى عنه الامبراطور وعقد معه اتفاقا بشرط اعترافه بسيادة الامبراطور البيزنطى على انطاكية وعودة البطريك الكاثوليكى وامداد جيشه بفرقة . ثم توجه بلدوين الى الامبراطور وقضى فى ضيافته عشرة ايام استطاع ان يقنع الامبراطور بالعفو عن ثوروس [1] ، وعقب هذا الاتفاق زار الامبراطور انطاكية فى احتفال مهيب واتفق بلدوين وريجنالد والامبراطور على توجيه حملة لحلب ، بعد أن ازداد نفوذ نورالدين عقب استيلائه على دمشق وشيزر وتوحيد الجبهة الاسلامية (١١٥٤ ـ ١١٥٧) .

موقف المسلمين :

نهض نورالدين لمواجهة العدو المشترك من الصليبيين والبيزنطيين ، ويشير ابوشامة الى ماجرى من المصالحة بين ملك الفرنج وملك الروم فيقول : " وتقررت بينهما المهادنة والله يرد بأس كل منهما الى نحوه ويذيقه عاقبة غدره ، ومكره " [2] .

ولم يلبث أن اعتزم مانويل الزحف على انطاكية وقصد المعاقل الاسلامية ، فبادر نورالدين بالتوجه الى البلاد الشامية لاثارة الطمأنينة فى نفوس اهلها . فسارت قوات بيزنطة فى اتجاه حمص وحماه وشيزر ولكن بدلا من أن تسير الحملة

---

(١) Runciman: op. cit. vol. II. P. 352.

(٢) ابوشامة : الروضتين : جـ ١ ص ١٢٣ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦

فى طريقها الطبيعى اذ بالامبراطور مانويل يرسل السفارات الى نورالدين بـدلا من القوات ،وهذا التغيير فى موقف بيزنطة يرجع لعوامل عديدة ، منهـا أن الامبراطور البيزنطى فى حاجة ماسة لمساعدة نورالدين ضد سلاجقة آسيا [1] ، وكان من سياسة مانويل الاحتفاظ بميزان القوى فى الشرق حتى يضمن خضوع الصليبيين له ، طالما شعروا بتهديد المسلمين بزعامة نورالدين ، فاذا تحطمت قوة نورالدين لم يعد الصليبيون يتطلعون الى مساعدته ، ويضاف الى ذلك ماوقع من مؤامرات فى القسطنطينية وعلى اطراف الامبراطورية باوربا ، اما نورالدين فانه لم يقبل المفاوضة مع البيزنطيين الا لاحساسه بوقوعه بين عدوين ـ الصليبيين والبيزنطيين .

وترددت الرسل بين الجانبين واتفقا على عقد معاهدة لتبادل الاسرى سنة ١١٥٩ ، ووصلت سفارة بيزنطية تحمل هدية الى دمشق ، وشهد الرسل البيزنطيون فى دمشق فى ٥ مارس ماجرى من تدابير الصلح ، اذ امر نورالدين اطلاق سراح عدد كبير من الاسرى وكان العدد يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف من اشهرهم برترام حفيد كونت تولوز ومقدم الداوية برتراند بلانكفورت [١]

---

(١) Stevenson : op. cit. P. 181.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ـ ابوشامه الروضتين ج ١ ص ١٢٢ .

(٣) العرينى : الشرق الاوسط ج ١ ص ٦١٨

واجيب ملك الروم الى ما التمسه من اطلاق مقدمى الافرنج المقيمين فى حبس نورالدين فانقذهم باسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه " [1] .

عاد الامبراطور مانويل كومنين الى القسطنطينية مباشرة ليقوم سنة ١١٦٠ ــ ١١٦١ م بحملة لقتال سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وهى الحملة التى انزل فيها الهزيمة بقلج ارسلان الثانى سلطان السلاجقة [2] ، مما يوحى بأن الاتفاقية السابقة بين نورالدين وبين الامبراطور البيزنطى تضمنت نصا سريا ، يقضى بتحالف الطرفين ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، هذا وان كانت المراجع العربية والصليبية لم تشر اطلاقا الى مثل هذا النص . ولم يلبث قلج ارسلان أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ ، حيث قدم ولاءه للامبراطور البيزنطى واعلن تبعيته له ، وذلك قبل أن ينقضى قرن على موقعة مانزكرت فاعتقد رجال البلاط البيزنطى أن قونية اصبحت فى عهده محمية تابعة لبيزنطة [3] .

---

(١) ابوشامة : الروضتين ج ١ ص ١٢٣ ، ابن القلانسى : الذيل ص ٣٥٧

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٦ ــ ٦٧٧

(٣) Chalandom: les comnenes. P. 480.

(الفصل الثالث)

صلاح الدين والبيزنطيون
١١٧٤ – ١١٨٠م

الدولة البيزنطية والصراع الاسلامى الصليبى حول مصر ــ تجــدد التحالف الصليبى البيزنطى ــ نورالدين والسلاجقة والبيزنطيين ــ سقوط الخلافة الفاطمية ــ الاوضاع فى العالم العربى بعــــد وفاة نورالدين وبلدوين ــ بيزنطة والسلاجقة ــ بيزنطــــــه وصلاح الديــــن •

الدولة البيزنطية والصراع الاسلامي الصليبي حول مصر :

دخلت العلاقات بين كل من الجانب الاسلامي والبيزنطي في طور جديد ، اذ أن مركز الثقل انتقل من انطاكية الى مصر ، وأصبحت مصر مركزا هاما تتجه اليها انظار كل من الصليبيين ، والبيزنطيين ، اذ أن ماوقع من أحداث في السنوات الاولى من عصر اطريك الذي خلف بلدوين الثالث في حكم بيت المقدس برهنت على ضعف مصر بعد أن أصبحت الخلافة الفاطمية تحت سيطرة الوزراء الذين تجاذبتهم الاطماع وسادت بينهم الخلافات ، وجعلتهم يستنجدون بالقوى الخارجية (1) ، فضلا عن انها كشفت ايضا عن اسباب ضعف القوى الصليبية بشمال الشام ، وادراك مدى الفائدة التي تعود عليهم من محالفة الامبراطور البيزنطي مانويل الذي انطوت خطته على اعادة الوفاق مع روسيا ومد سلطان بيزنطة صوب الغرب والشرق والجنوب ، ويعتبر مانويل اكثر الاباطرة البيزنطيين رغبة في التعاون مع اللاتين ، وفي نفس الوقت سعى اطريك الى تحسين علاقاته مع بيزنطة بعد أن تحسنت علاقة بوهيمند امير انطاكيه بالامبراطور ، وترتب على هذا التقارب بين بوهمند الثالث والامبراطور البيزنطي ، ان تقرر تعيين بطريرك يوناني في انطاكية ظل يمارس واجباته حتى لقى مصرعه ١١٧٠ ، وافاد بوهمند من بيزنطه ، في القضاء على كل مقاومة يتعرض لها من رعاياه (1) ، ولتوطيد اواصر الصداقة ارسل ...

---

(1) William of Tyre: op. cit. vol II P. 503-504.

وليم الصورى الى القسطنطينية لاختيار عروس بيزنطية لاموريه سنة ١١٦٥ عقب انفصاله عن زوجته اجنس ، وفعلا وصلت الى صور الاميرة ابنة اخ الامبراطور مانويل ، بعد انتهاء الحملة الصليبية على مصر وكان برفقتها الكندر كونت جرافينا ، وميخائيل أوترانتو مبعوثين من قبل الامبراطور مانويل كومنين من القسطنطينية [1] فجرى استقبالهما بحفاوة زائدة واشترك فيها كل من كان موجودا عند الملك • وشرح المبعوثان أسباب قدومهما ، وقدما للملك رسالة من الامبراطور بهذا الشأن [2] •

ومما جاء بهذه الرسالة " انظروا لما ادركه الامبراطور من أهمية مملكة مصر ، انها ظلت حتى وقتنا هذا منيعة الجانب ، بالغة الثراء ، غير أنها لم تلبث ان وقعت في ايدى فئة ضعيفة مستكينة ، واحس الاقوام المجاورين ما كان من ضعف وعجز حكامها وامرائها • ولما كان من المستحيل ان تظل هذه البلاد (مصر) على هذه الحالة الراهنة ، فلابد أن يقع في أيدى الامم المجاورة حكومتها وممتلكاتها ، فان الامبراطور يعتقد أن بوسعه أن يخضع في سهولة ويسر هذه البلاد لسلطانه بفضل مايبذله الملك له من مساعدة " [3] •

---

(١) Grousset: op. cit. Tome. II. P. 508.

(٢) William of Tyre op. cit. II. P. 348.

(٣) Runciman: op. cit. vol. II. P.508.

وتتولى البحث ، ولهذا القول وزنه ، اذ ان طلائع يعد القصد من هو أول من بادر بعرض هذا الامر على الامبراطور ، بأن أرسل اليه الرسل والرسائل التي يحثه فيهما على أن يبذل له المساعدة بالجند والاساطيل والاموال اللازمة ، على أن يحصل الامبراطور مقابل ذلك على شطر من تلك المملكة (مصر) وما قد يقع من غنائم [١] ، وكان يهدف الى أن تستولى القوات المتحالفة على الدلتا وأن تتظاهر القوات البيزنطية البحرية امام انطاكية والاسكندرية حتى يلتزم نور الدين خطة الحياد ولا يتدخل في شئون مصر [٢] .

هذه كانت طبيعة المسألة التي جاء من أجلها الرسولان الى الملك ، ولما لم يتم الاتفاق نهائيا على شروط المعاهدة بين الجانبين ، أرسل الملك وليم الصوري مع وفد القسطنطينية العائد الى بيزنطة ويشير وليم الصوري الى أن الرسل وهم معهم ، قد التقوا بالامبراطور : " واستقبلنا الامبراطور بكل حفاوة ، فعاملنا بما اشتهر به من اللطف والكرم ، وعرضنا عليه الباعث على رحلتنا وسفارتنا ، وشرحنا له بالتفصيل محتويات المعاهدة ، واستمع بارتياح الى شرحنا وتقديرنا واقر كل شيء " [٣] . وبعد أن أقسم

(١) Grousset : op. cit. II. P. 509

(٢) William of Tyre: op. cit. vol. II. P. 348

(٣) William of Tyre. op. cit. vol. II. P. 349

الطرفان على ماجاء بالمعاهدة ، صدق الامبراطور بما له من سلطة علـــى التفاصيل وفقا للترتيب الذى وضعه المندوبون ، وأقر المعاهدة " التـــى بمقتضاها يقتسم الامبراطور والملك فتوحاتهما فى مصر " [١] ـ وجه مندوبو الامبراطور على رسائل تزيد فى قوة نص المعاهدة فى شكلها الاخير ، ثـــم انصرفنا بعد أن أنعم علينا بالهدايا طبقا لم تقرر من العادات والتقاليـــد " وبذا انتهت مهمتهم ، وشرعوا فى العودة الى بيت المقدس فى اول اكتوبـــر ١١٦٧ [٢] .

بمقتضى هذا الاتفاق كان على الجيشين البيزنطى والصليبى ان يخرجا بقيادة املريك لفتح مصر فى السنة التالية ، واتفقا على أن تكون القيـــادة لملك بيت المقدس وأن يطيعه القائد البيزنطى فى كل مايأمره به ، [٣] .
ولكن حدث قبل أن يرجع وليم الصورى حاملا شروط الاتفاق ان ارتحل املريك الى مصر لفتحهـــا ، بحجة أن فرسانه أجبروه على المضى لفتحها ، ويشيـــر ابن الاثير لذلك الخلاف بقوله " ولقد شـــاور ملك الفرنج ذوى الـــــرأى منهم فكان منهـــم من أشار بقصدها وملكها وقال لهم : انا لانقصدهـــا ، فانها طعمة لنـــا واموالهـــا تســـاق الينـــا ، فنستقـــوى بها علـــى

(١) William of Tyre: op. cit vol.II. P. 349
(٢) Runciman: op. cit. vol. P. 379.
(٣) Grousset: op. cit. Tom II. P. 511.

نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ، ويقاتلوننا ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ، فلم يصغوا الى قوله وقالوا : ان مصر لا مانع لها ولا حافظ ، والى أن يصل الخبر الى نور الدين ، ويجهز العساكر ، يسير بهم الينا تكون نحن قد ملكناها ، وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلام فلا يقدر عليها "[1] ، وكانت الداوية تمثل جانب المعارضة فى تلك الحملة ، اذ رفضوا أن يشتركوا فى حرب مع مصر ، التى ارتبطوا معها بالصداقة ، وبرروا ذلك بأنها قد أوفت بشروط المعاهدة التى كانت تنص على دفع مائة الف دينار وابقاء بعض قواتهم بالقاهرة ،[2] وكان الدافع الحقيقى لمعارضتهم ، ارتباطهم بعلاقات تجارية مع المسلمين والتجار الايطاليون ، فى بينما أصر الاسبتارية وقدمهم جلبرت ومعظم البارونات على الحرب ، للاستيلاء على مصر ، والاستفادة من خيراتها ، فتجهز أماريك للسفر وتذرع بامتناع شاور عن دفع الجزية ، فاستولى الصليبيون على بلبيس ونهبوها ، ووصل اسطول بحرى وهاجم تنيس واستمرت المذابح خمسة أيام ثم اتجهوا الى القاهرة ، وظهروا امام الفسطاط ، وادرك شاور انه لا يستطيع الدفاع عن القاهرة والفسطاط ، فأمر اهلها بالجلاء عنها ، واشعل بها الحرائق

١) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٧ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٢١

Gibbon (E.): Decline and fall of the Roman Empire vol. VI. P. 386

تشير الى حملة ١١٦٧ التى استنجد فيها الخليفة العاضد بنور الدين واستنجد شاور بالصليبيين وانتصر شيركوه فى معركة البابين وحوصر صلاح الدين فى الاسكندرية وفى يونيه ١١٦٧ اتم الاتفاق على الجلاء وترك مصر لشاور على ان يبقى للفرنج شحنه بمصر ويدفع مائة الف دينار .

(٢) ابوشامه : الروضتين جـ ١ ص ١٤٣

التى استمرت مايقرب من أربعة وخمسين يوما ، وهدد بأنه سوف يضرم النار فى القاهر بنفسها ، وسعى الى التفاوض مع الفرنج اذ انه لم يرغب فى تدخل نور الدين ، فعرض على الصليبيين مليون دينار مصريه فقبلوا ذلك العرض [1] ، وكان الباعث لهم على القبول خوفهم من نور الدين .

لم يسع الكامل .... ابن شاور الا الاستنجاد بنور الدين والاستعانة به ، فعرض عليه ثلث خراج البلاد وان تكون اقطاعات العسكر خارجة عن الخراج [2] ، فلم يكن ابن شاور راضيا عن تصرف ابيه ، كما ارسل الخليفة العاضد عقب الحريق الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، فقرر نور الدين ارسال اسد الدين شيركوه الى مصر وحثه نور الدين على ذلك لتخوفه ان يملكها الفرنج ويصبحوا مصدر تهديد له فى بلاد الشام " فقال صلاح الدين " لو اعطيت ملك مصر ماسرت اليها ، فقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا انساه " [3] وحذر شاور

---

١) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٥٤

٢) William of Tyre : op. cit. vol. II.P. 357,358

٣) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٩

اموريك من جيوش نور الدين . فغادر اموريك القاهرة الى بلبيس حيث طارده جيش شيركوه ووصل الى القاهرة ولم يجد اموريك بدا من الانسحاب (١)

واستقبل شيركوه استقبالا حافلا ، ولكن شاور الذى توجس خيفة أخذ يماطل فيما وعد به العاضد من اموال واقطاعات وسعى الى التآمر عليه ، ولكن صلاح الدين تخلص من شاور وايده الخليفة العاضد فى ذلك ، وتولى اسد الدين شيركوه الوزارة فى يناير سنة ١١٦٩ ، واصبح صلاح الدين يباشر امور الدولة ، وعندما توفى شيركوه فى مارس سنة ١١٦٩ تولى الوزارة بعده صلاح الدين بناء على رغبة الخليفة العاضد الذى أخذ بنصيحة مستشاريه الذين رأوا أنه ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف (٢) .

تجدد التحالف الصليبى البيزنطى :

شعر الصليبيون بالخطر الذى يتهددهم من سيطرة نور الدين على مصر وأدرك ذلك أموريك بعد انسحابه من مصر ، واستقرار صلاح الدين بها ، وترتب على ذلك حرمان الفرنج من موارد الثروة الضخمة التى كانوا يحصلون عليها من التجارة مع مصر ، الى جانب انه قد اصبح بوسع نور الدين بفضل اسطوله الضخم الذى يرابط فى مصر ،

---

١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٢٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤

٢) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٧٢

وان يضيق الخناق على مملكة بيت المقدس ، ويفرض الحصار على المدن الساحلية برا وبحرا ، بجيوشه فى الشمال والجنوب ، فضلا عن اعتراض طريق الحجاج القادمين الى الاراضى المقدسة ، أو منعهم من المرور نهائيا .

وأثار هذا الامر اهتمام وليم الصورى فقد كان على الفرنج ان يواجهوا احوالا شديدة الاضطراب ، وبالغة القلق ، فما توافر بمصر من الموارد ، والثروة الضخمة كان كفيلا بسد حاجاتهم ، وكانت حدودهم من تلك الناحية من المملكة مأمونة الجانب ، فلم يكن بالجنوب من الاعداء من يخيفهم ، وهيأ البحر من الامن والسلام والهدوء ، ما يمنع من يحاول القدوم اليهم ، وكان بوسع اقوامنا ان ينفذوا الى الاراضى المصرية دون خوف أو وجل ، فهيأت لهم الاحوال لممارسة التجارة والصناعة بها . وجلب المصريون الى المملكة من المتاجر الاجنبية ، والسلع الغريبة مالم يكن معروفا لهم حتى وقتذاك ، وكلما قدموا اليهم كان ذلك ربحا عظيما ، يضاف الى ذلك ان ماانفقه المصريون من الاموال الوافرة بينهم كل سنة ، زاد فى حال البلاد وخزانتها فضلا عن ازدياد ثروة الافراد [(١)] .

غير أن كل شىء لم يلبث أن تغير الى أسوأ ، فكيف جرى هذا التغيير ، يشير وليم الصورى الى " فأينما وجهت

---

(١) William of Tyre : op cit vol II. P.357,358

تذرى ، لم أجد الا دواعي الخوف والقلق ، فلم يعد البحر مــن الهدوء والاطمئنان ، مايكفل السلامة والامن ، لمن يقصدنا زه وكل مايحيط بنا من البلاد ، صار خاضعا لعدونا ، واخذت الممالك المجــاورة تتجهز لتدميرنا والقضاء علينا ، ولم يجلب هذه الكوارث لنا الا رجــل نعهم شره ، فما اشتهر به من الفهم ، الذي يعتبر أصل الشــرور ، افسد مانعمنا به من الهدوء والصفاء ، [(١)] واخذ كل فريق من الفرنــج يلقى المسئولية على الآخر [(٢)] ، وسعى الصليبيون الى العمل علــى اثارة حملة صليبية جديدة وكان اطريك قد ارسل سفارة برئاسة رئيس اساقفــة قيسارية في صيف سنة ١١٦٩ برسالة للامبراطور فردريك بربروسه ، ولويــس السابع ملك فرنسا وهنرى الثاني ملك انجلترا ، ووليم الثاني ملك صقلية ، وغيرهم ، ولكنها عادت بعد يومين من سفرها بسبب العواصف ، فارسل سفارة ثانيــة يرأسها فردريك رئيس اساقفة صور وصلت روما سنة ١١٦٩ م فأرسل معهم البابا

---

(١) William of Tyre: op cit. vol II. P. 357,358

٢) العريني : الشرق الاوسط ج ١ ص ٧٠٧ ،

٣) ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٨١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٨١ وتشير المراجع الاسلامية الى " ان فرنج الساحل لما ملك اسد الديــن مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكتبوا للفرنج الذين بالاندلس وصقليــة يستنجدونهم ويعرفونهم ماتجدد من ملك مصر وانهم خائفون على بيــت المقدس وارسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركــة فأمدوهم بالمال والرجال .

رسالةلاقناعه ، ولم تحقق هذه السفارة الغرض المنشود [1] .

قرر الصليبيون الاتجاه الى القسطنطينية وكانت مساعيهم هناك أكثر نجاحا ، اذ سعى الامبراطور مانويل الى تنفيذ المعاهدة التى سبق أن عقدها مع وليم الصورى ، فقد م اسطوله ليعاون اماريك فى فتح مصر [2] ، وكان الاسطول بقيادة اندرونيكس وتألف من ٢٢٠ سفينة [3] ووصف المؤرخون الاوربيون هذه القوة بأنها كانت " أرمادا " وكفلت للصليبيين التفوق البحرى ، وكان البيزنطيين اكتفوا باعداد مؤونة ثلاثة أشهر اعتقادا منهم ان الحملة لن يطول أمدها ، وسار جزء من هذا الاسطول الى قبرص حيث وقعت فى اسره سفينتان مصريتان ، بينما سار الجانب الاكبر الى عكا ، ونزل جزء من الجيش ليصحب الجيش الصليبى فى المسير الى مصر وتأخرت الحملة مايقرب من شهرين ، لتخوف اماريك من نوايا البيزنطيين ، ولحرصه على عدم المغامرة بحملة على مصر ، الا بعد أن يؤمن فلسطين من غارات نور الدين فأبقى قوة من الفرسان لحماية المملكة اثناء غيابه لاسيما بعد أن تبين له مايقوم به نور الدين من الاستعداد للاغارة على الاطراف المتاخمة لدمشق ، [4] وفى منتصف سنة ١١٦٩ تحرك

---

١) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٨١ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص١٨١

٢) Runciman: op. cit. II. P. 384.

٣) Settom op. cit. II. P. 556-557

٤) Runciman: op. cit. vol II. P. 385.

الجيش الصليبي البيزنطي من عسقلان ، بينما وصلت القوات البيزنطيـــة والصليبية الى الفرما ١١٦٩ وكان الاسطول البيزنطي قد وصل الى الفرمـــا قبل قدوم قوات الصليبيين ، واجتاز الجيش الفرع البلوزى على سفن بيزنطيـة ، حتى وصلوا الى تنيس ، ومنها ساروا الى دمياط [١] ، وكان صلاح الديـن يعتقد أنهم سيهاجمون بلبيس فشحنها بالعساكر وعزز حاميات القاهـــرة والاسكندرية ، على حين أن الصليبيين والبيزنطيين حرصوا على ان ينغصـــوا الاتحاد بين مصر والشام ، فقدموا بقوات ضخمة ، واعدوا الاحتلال البـــلاد خطة مدروسة ، بأن عزموا على أن يجعلوا من دمياط قاعدة بحرية [٢] .

أرسل صلاح الدين الى دمياط خاله شهاب الدين محمود وابـــن اخيه تقي الدين عمر فدخلاها قبل حصار الصليبيين [٣] ، وارسل الـــى نور الدين يشكو اليه ما هو فيه من مخاوف وانه ان تخلف عن دمياط ملكهـــا الفرنج فضلا عن تخوفه من المصريين وخروجهم عن طاعته ، ولا سيما بعـــد أن دار من مفاوضات سرية بين املريك ورجال الجيش الفاطمـــي [٤] . فجهـــز اليـــه نور الديـن عساكر ، وكلما تجهـــزت طائفـــة

(١ William of Tyre: Op. cit. vol II. P. 562 - 563

(٢ Wiet (G.) L'Egypte Arabe. P. 301.

٣) ابو شامة : الروضتين جـ١ ص١٨٠ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ١ ص١٨١

٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ١٤٣

أرسلها اليه ، طائفة تلو طائفة ، واغار هو على البلاد الصليبية واستطاع أن يلحق الاسطول البيزنطى اى معونة من الصليبيين [١] .

حاصر الصليبيون دمياط فى المنطقة الواقعة بين المدينة والبحر وانتظروا وصول الاسطول البيزنطى الذى تأخر بسبب الريح ثم ظهر بعد ثلاثة ايام ولكن منع رسوه سلسلة من الحديد اغلقت الميناء ، فارتاب الصليبيون فى نوايا البيزنطيين ، واعتقدوا أنهم يحرصون على الانفراد بمصر ، وتراءى فشل الحملة ، بعد أن نفذت المؤن ، واشتد هطول المطر، وهبوب العواصف ، وصبر المسلمون على مقاومة الحصار نحو خمسين يوما ، يضاف الى ذلك ما وقع من الخلاف بين املريك وقائد القوات البيزنطية ، وادى الى عدم تنسيق الاعمال فى البر والنهر ولقد قاسى البيزنطيون من قسوة الجوع ولم يستطع الصليبيون على الشاطئ أن يمدوا لهم يدا [٢] ، مما ادى الى يأس الصليبيين والبيزنطيين ، ولا سيما بعد أن فشلوا فى اجراء مفاوضات مع صلاح الدين ، وبعد أن تعرضت الممتلكات الصليبية بالشام لهجمات نور الدين ، فلم يسع القوتان المتحالفتان الا الانسحاب فى ديسمبر سنة ١١٦٩ [٣] .
بعد أن احرقـــوا أدواتهم الحربيـــة الثقيلـــة حتى لاتقع فى يـــد

---

(١) Lane-Poole (S.): Salaclin. P. 103.

(٢) Lane-Poole: op.cit. P. 105.

(٣) Runciman: op. cit vol. II. P.387.

صلاح الدين ، ثم غادروا دمياط الى عسقلان بينما ابحرت السفن البيزنطية صوب الشمال ، غير أن هبت عاصفة شديدة اعترضت طريقهم فتحطمت سفن كثيرة ، ولقى عدد كبير من العساكر والبحارة البيزنطيين مصرعهم (١) .

وهكذا فشل التحالف البيزنطى الصليبى وأخذ كل من الفريقين يوجه اللوم الى الآخر ، ويتهمه بالتأخر فى المسير ، والقصور فى توفير المؤن للحملة ، ويقال أن جماعة من المصريين حملوا الى الامبراطور البيزنطى الهدايا وشروط الصلح ، حتى ينفرط عقد التحالف البيزنطى الصليبى (٢) .

نور الدين والسلاجقة والبيزنطيون :

على أن الاوضاع السياسية فى العالم الاسلامى وفى الامارات الصليبية والقوى المسيحية فى آسيا الصغرى وبيزنطة والغرب ، كان لها بالغ الاهمية فى توجيه الدبلوماسية الاسلامية ، والمسيحية ، بعد ارتداد الصليبيين والبيزنطيين عن دمياط سنة ١١٦٩ ، واستيلاء نور الدين على الموصل سنة ١١٧١م .

---

(١) William of Tyre op. cit. vol II p. 320.,

Runciman: op. cit. vol II.P.340.

(٢) ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٦٨

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٤٠

كان نور الدين حريصا على اذكاء روح الجهاد عند الامراء المسلميـــــن فى آسيا الصغرى ، ومن الدليل على ذلك ماحدث من نهوضه سنة ١١٧٢ لقتال قلج ارسلان سلطان قونية ، كيما يلزمه بامداده بما يحتاج اليه من القوات عند قتال الفرنج ، نظرا لأنّ السلطان السلجوقى يملك طرفا كبيرا من بـــلاد الاسلام ، وترك الروم وجهادهم وهادنهم[1] ، فكتب اليه " اما ان تنجدنـــى بعسكر لاقاتل بهم الفرنج ، واما ان تجاهد من يجاورك من الفرنج "[2] . وتمت المصاهرة بين الزنكيين واسرة قلج ارسلان ، يضاف الى ذلك انه من دواعى تحالف الصليبيين مع بيزنطة ، ماوقع من أحداث فى قليقية وارمينيا الصغرى ، التى تولى امرها سنة ١١٦٨ روبين الثانى ، ونازعه السلطان عمه مليح الــذى لقى التشجيع من نور الدين ، بأن اعتبره من اتباعه وبذل لهاقطاعا ، وامـــده بالعساكر ، فطرد من حصون قليقية واذنه وطرسوس ، والمصيصة العساكــــر البيزنطية والفرسان الداوية[3] ، ويشير ابن الاثير الى أن مليح كان يتقـــوى بنور الديـــن على مـــن يجـــاوره من الارمـــن والـــــروم[4] .

١)
٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠ـــ١٦١
) ذهب قلج ارسلان بنفسه الى القسطنطينية وقع معاهدة بمقتضاها وافق على ان يقدم مساعدته لبيزنطه وان يقوم باعادة بعض المدن البيزنطيه التى استولـى عليها
٣) Lane-Poole: op. cit. P. 120.
٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ١٥٧ ، الباهر ص ١٦٠

وساق مليح لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين اسيرا فسيرهم نور الديـــن الى الخليفة المستضىء [1] .

حملت هذه العوامل اطريك على أن يتوجه سنة ١١٧١ الى القسطنطينيـة بعد عقده مؤتمر للصليبيين فى الشام ، وكان الهدف من الزيارة حث الامبـــراطور على ضرورة اخضاع مصر فتجدد بذلك التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين [2] وتضمن الاتفاق بينهما فيما يبدو اعتراف اطريك فى صورة غامضة بسيادة الامبراطور مانويل على المسيحيين الوطنيين فى مملكة بيت المقدس ولقد اكد مؤرخا الاغريـــق كيتهاموس ونيكتاس التبعية [3] ، فى حين ان وليم الصورى الذى ابـــــدى اهتماما بزيارة اطريك والشرف الذى اضفى عليه لم يذكر اى نوع من الولاء ، وما كتبه لا يدل على أن ملك بيت المقدس كان تابعا ، بل يذكر انه حليف قـــوى وأن الامبراطور يسعى للتحالف معه [4] .

وعد مانويل ببذل مساعدة برية بحرية كما تم الاتفاق على اتخاذ اجـــراء مشترك لقتال مليح ورغم ذلك لم يحقق هذا التحالف نتائج مثمرة [5] ، اذ ثبت أن مانويـــــل لـــم يقل كفـــاءة عن ابيـــــه وجـــــده ،

١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٩

٢) Setton: op. cit. P. 550

٣) Lamonte : Byrantine Empire and crusading states

٤) Byzantion 1932 tom vii P. 262

٥) Lamente: op cit Tome VIE P 262
Runciman: op. cit. II. P. 391

ولم يختلف عنهما فى الحرص على مصالح بيزنطه الخاصة ، وفى التماس الوسائل التى تحقق غرضه ولو لم تلائم مصالح الصليبيين .[١] وكان من اثر ذلك أن حاول املريك تأديب مليح ، بأن أرسل العساكر الى قليقية ، غير أن نور الدين اجبره على العدول عن قتال مليح ، بأن هاجم الكرك[٢] .

اما مشروع الحملة المشتركة على مصر ، فلم يتحقق ، فما رتع من الاحداث وراء حدود بيزنطة وبيت المقدس ، ادى الى ارجاء سير الحملة بعد أن سعى اطريك الى التماس مساعدة الغرب فى سنة ١١٧٢[٣] ، وان كان قد ادى التحالف الى منع انطاكية من الوقوع فى ايدى المسلمين لعجز السلاجقة بآسيا الصغرى عن الانحياز لنور الدين ، ولم يلبث التحالف ان انفض بوفاة املريك سنة ١١٧٤[٤] .

سقوط الخلافة الفاطميــة :

كان من دوافع اتجاه نور الدين الى مصر القضاء على الخلافة الفاطمية وادخال مصر فى المذهب السنى ، وحثه الخليفة على ذلك ، فأرسل نور الدين الى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة للخليفة الفاطمى ، واقامة

---

(١) Setton: op. cit. I. P. 560

(٢) William of Tyre: II. P. 386.

(٣) Setton: op. cit. I. P. 560

(٤) Runciman: op cit. II. P. 393.

الخطبة للخليفةالعباسى ، فاعتذر صلاح الدين خوفا من ثورة أهل مصر وامتناعهم عن ذلك لميلهم للعلويين [1] ، فأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما . وكان العاضد قد انتابه المرض ولم يعلم بأمر قطع الخطبة ، ثم مالبث ان توفى سنة ١١٧١ ، وبعد وفاته انتهت الدولة الفاطمية . وأصبح صلاح الدين يتولى تدبير الامور فى مصر نائبا عن نور الدين ، على أن العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين اخذت تزداد تأزما ، وبات كل يشك فى نوايا الآخر . اذ اختلفت وجهات نظر كل منهما تجاه مصر . فنور الدين يرى ان الميدان للجهاد فى الشام ، اما مصر فيقتصر دورها على الامداد بالمال والرجال ، على حين ان صلاح الدين رأى أن مصر هى الميدان الحقيقى ، وكان رأيه بناء عن محاولات الصليبيين للاستيلاء على مصر ومن حملة دمياط وما وقف عليه ، فيما يبدو من المفاوضات بين امالريك والامبراطور البيزنطى [2] . فاراد ان يستخلص مصر لنفسه ولأسرته حتى يستطيع ان يضطلع بأعباء الجهاد . وطن نور الدين امره على قصد مصر ، وعزل صلاح الدين ولكنه توفى سنة ١١٧٤ م قبل ان تخرج فكرته الى حيز التنفيذ ، فاستتب الامر لصلاح الدين فى مصر [3] .

بدأت فى تلك الفترة تتغير سياسة بيزنطة تجاه الصليبيين ومصر . وتجلى تغير هذه السياسة ، فى المؤامرة التى تعرض لها صلاح الدين

---

١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٣٣ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٢٦٣ .

٢) Stevenson: op. cit. pp. 106-107
Setton: op cit. I. P. 565

٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٢

فى بداية حكمه فقد راسل الشيعة سنة ١١٧٤م ، الحشيشية والصليبيين وانضم اليهم ملك صقلية ، واتفقوا على غزو مصر برا وبحرا ، فيتولى الصليبيون الهجوم من البر ويقوم ملك صقلية بالاغارة على الشواطئ المصرية ، فى حين يقوم انصار الفاطميين باعلان الثورة فى القاهرة ، ولكن صلاح الدين علم بتفاصيل المؤامرة قبل تنفيذها وقضى على جميع افرادها فى مصر فى ابريل سنة ١١٧٤م[1] وبعد حوالى شهرين توفى املريك ولم يحرك الصليبيون ساكنا لما حدث للمتآمرين فى مصر وطرحوا هذا الموضوع جانبا ، اما حاكم صقلية فقد وافق على هذه المؤامرة وفصلا وصل الاسطول الى الاسكندرية[2] ، وكان صلاح الدين على علم بأمره ، اذ ارسل الامبراطور البيزنطى قبل وصول الاسطول تحذيرا لصلاح الدين عن هجوم سيقوم به الاسطول الصقلى[3] ، نظرا لما وقع من الخلاف بين مانويل وملك صقلية الذى رفض كل مساعدة من قبل الامبراطور البيزنطى واراد ان يثبت انه يستطيع ان يحقق من النجاح مالم يتأت للبيزنطيين احرازه[4] ، ويرد صلاح الدين ماحدث فى رسالته الى امراء الشام يشرح ضخامة الاسطول الصقلى ، " فأمر ذلك الاسطول كان قد اشتد وروع عبد المؤمن فى البلاد المغربية وهدد به فى الجزائر ، فشوهد فى الثغر

---

(١) Lane-Poole: op. cit. P. 120
Stevenson: op. cit. P. 203

(٢) Setton: op. cit. I. P.565

(٣) Runciman: op. cit. II. P. 403.

(٤) رفض حاكم صقلية التحالف مع بيزنطه والزواج من ماريا ابنة الامبراطور
Runciman: op. cit. vol II p. 403

من وفور عدته وعظيم الهمة وفرط الاستكثار [1] ، ورغم ضخامة الاسطول فقد قام اهل الاسكندرية الحصار بسالة حتى تقدم صلاح الدين بجيوشه لمواجهتهم ، وتوالت الامدادات عليهم . وكان لقدوم صلاح الدين اثر كبير فى رفع الروح المعنوية للشعب المقاتل وانتهى الامر بهزيمة الاسطول الصقلى ، وفشل الحملة [2] .

ويتضح من حوادث هذه الحملة ان بيزنطة تخلت عن سياستها التقليدية وهى العداء السافر لمصر الذى استمر طوال فترة حكم مانويل كومنين . والواقع انه برغم امل بيزنطه فى امتلاك مصر لم ترد ان يكون الفضل فى الاستيلاء عليها لصقلية وحاكمها ، يضاف الى ذلك ماحدث من تفكك التحالف اللاتينى البيزنطى [3] .

كان صلاح الدين على علم باساليب الدبلوماسية ومناوراتها ، ففى رسالته الى الخليفة العباسى ينوه بموقف بيزنطة وقوتها وموقفها من الحملة الصقلية فاعتبرها اكبر قوة مسيحية ذات سلطة على الممالك اللاتينية فى الشرق " فأما الاعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم اشداء ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الاكبر والجالوت الاكفر وصاحب المملكة التى اكلت على

---

١) ابو شامة : الروضتين ج١ ص٢٣٤ ، ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٠٧

٢) Grousset: op. cit. tome II. P. 617

٣) Setton: op. cit. vol. II. P. 122.

الدهور وشربت وقائع النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحرية ومناقلات ظاهرة وسرية ، ولم تخرج من مصر الى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح والانتقال من معاداة الى مهاداة ومن مفاضحة الى مناصحة حتى انه انذر بصاحب صقلية واساطيله التى تردد ذكرها وعساكره التى لم يخف امرها " (١) .

الاوضاع فى العالم العربى بعد وفاة نورالدين وبلدوين :

ترتب على وفاة كل من نور الدين واطريك ان تعرض الشرق الاوسط لوضع جديد فاذا نظرنا الى الجانب الصليبى : خلف اطريك ابنه بلدوين الرابع سنة ١١٧٤ الذى كان فى الثانية عشرة وكان أبرص ضعيف البنية وتولى الوصاية ميلون دى بلانسى ، ولكن لم يلبث أن لقى مصرعه ، وعين ريموند كونت طرابلس وصيا على المملكة لمدة ثلاث سنوات ، اصبح وليم الصورى رئيس اساقفة ثم تولى الوساطة بين الصليبيين وبيزنطه على ان المملكة تعرضت للشقاق (٢) بسبب وجود حزبين تألف احدهما من البارونات والآخر من القادمين حديثا من الغرب (٣) .

اما الجانب الاسلامى فيتمثل فيما حدث بعد وفاة نورالدين من منازعات حول ولاية الحكم اذ ان نور الدين ترك طفلا

---

١) ابو شامه : كتاب الروضتين ، ج ٢٢ ص ٢٤٣

٢) Grounet: op. cit. tome II. P. 611,61 2.

فى الحادية عشرة هو الملك الصالح اسماعيل فتشاحن امراء نور الدين فى السيطرة على الامير الطفل وعلى الوصاية على المملكة [١] وسعى الى ذلك ابن المقدم وابن الداية ورأى شمس الدين (ابن المقدم) استشارة صلاح الدين بوصفه سيدا على اغنى امارات المملكة وهى مصر ، فرفض الآخرون هذا الرأى وخافوا ان يدخل صلاح الدين ويخرجوا [٢] ، ومع ذلك فقد اعترف صلاح الدين بسلطنة الملك الطفل وذكر اسمه فى الخطبة وضرب السكة باسمه ، واغتنم سيف الدين غازى صاحب الموصل تلك الفرصة واقتطع اجزاء من مملكة نور الدين ، فطلب الديار الجزرية ، ورأى صلاح الدين انه احق الامراء بالوصاية على الطفل وخاصة بعد أن عقد ابن المقدم هدنة مع الفرنج ، وأرسل صلاح الدين اليهم يعلن حقه فى الوصاية على ابن نور الدين ، وكاتبه جماعة من الامراء للتقدم الى الشام ، كما ارسل صلاح الدين اليهم خطابا يقول فيه " لو أن نور الدين يعلم ان فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته الى لسلم اليه مصر التى هى اعظم ممالكه وولاياتها ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى " [٣] وكان الصالح وقتذاك فى دمشق ، فارسل اليه ابن الداية سعد الدين كمشتكين

---

١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ١٦٤

٢) ابو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٣٦

٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٢٧

لاحضاره الى حلب • ولم يلبث كمشتكين أن قبض على ابن الداية وتخلى الوصاية على الصالح • فأرسل ابن المقدم الى صلاح الدين يطلب اليه القدوم الى دمشق فوافق ذلك الطلب هواه ، وتوجه الى دمشق في ٢٧ نوفمبر ١١٧٤ حيث استقبله اهلها ورحبوا به على أن صلاح الدين ابقى الخطبة والسكة للصالح واعلن انه ماقدم الا لتربية الصالح اسماعيل ، ثم استولى على حمص واتجه الى حلب وحاصرها ، فاستنجد امراؤها بالاسماعيلية والصليبيين وامير الموصل واستولى صلاح الدين على حمص وحماه في ديسمبر ١١٧٤ • ثم استولى على بعلبك [1] ، وشعر صلاح الدين بان تلك المنازعات تهدد الجبهة الاسلامية وتعرض البلاد لخطر الفرنج ، وأن خلفاء نور الدين لن يستطيعوا المضى في الجهاد بل انهم سوف يعرقلون جهوده ، ويمنعونه من التفرغ لحركة الجهاد كما ان بقاءه بمصر لن يهيئ له الفرصة لمناوأة الصليبيين [2] • فأرسل الى الخليفة في بغداد يطلب منه تقليدا جامعا بمصر والشام والمغرب واليمن •

واجتمعت عساكر الموصل وحلب لقتال صلاح الدين ، ثم راسلوه في

---

(١) Lane-Poole: op. cit. P. 137.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ١٦٤ ، ابو شامة جـ ١ ص ٢٤٣
Setton: op. cit. I.P. 122.



امر الصلح على ان يرد جميع ما استولى عليه ويحتفظ بدمشق ويكون نائبا عن الصالح اسماعيل ، فوافق ولكنهم غالوا فى مطالبهم فرفضها ، والتقت الجيوش فى قرون حماه سنة ١١٧٥ وانتصر صلاح الدين ثم استولى على حلب وقطع الخطبة والسكة عن الصالح ، واتخذ لقب ملك مصر والشام . وتم الصلح على أن يحتفظ صلاح الدين بما استولى عليه من البلاد ، واسترداد منهم المعرة وكفر طاب ، على أن يجتمعوا لقتال الصليبيين . وفى سنة ١١٧٥ قدمت رسل الخليفة بتقليد الولايات التى طلبها صلاح الدين [١] .

بيزنطة والسلاجقة :

تعتبر دولة سلاجقة الروم حلقة اتصال بين البيزنطيين والايوبيين ، نظرا لما يربطها بالجانبين من الحدود والمصالح المشتركة . واذا كان قلج ارسلان الثانى (١١١٥-١١٩٢م) منعه الخوف من نور الدين من التدخل فى شئون الدانشمنديين ، فان وفاة نور الدين أتاحت له الفرصة للتدخل وهو آمن فى امور الدانشمنديين والاعتداء على ممتلكات بيزنطة [٢] . وشجع قلج ارسلان على ذلك عدة امور منها ، انصراف الامبراطور البيزنطى مانويل الى الاهتمام بالامور السياسية فى اوروبا ،

١) ابو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٤٤

ومنها النزاع مع الامبراطور فردريك بربروسة ، والعلاقات مع العجرييد الماشيا وحاولة الامبراطور البيزنطى التقرب من البابا اسكنـــدر الثالث عن طريق اقامة علاقات طيبة اذ كتب اليه يقول : " ان الوقـــت قد حان لارسال حملة صليبية جديدة لتأمين طريق آسيا الصغـــرى الى الاراضى المقدسة "(١) . هذا بالرغم من عدم الثقة فى نوايـــا بيزنطة وسياستها فى الغرب وتبادل اللاتين والبيزنطيين هذه الكراهية (٢) .

ازدادت أوضاع مانويل وموقف بيزنطة سوءً نظرا لمعارضة ملـك صقلية للسياسة البيزنطية التى ترمى الى أن تظفر بيزنطة بمكانة فى ايطاليا . والتمس مانويل كل الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، فحاول ان يزوج ابنته مارى من وليم الثانى (ملك صقلية) ، غير أن فردريك بربروسه احبـط هذا المشروع ، وما نشب من الصراع بين مانويل والبندقية ، وما ترتـب على ذلك من انقطاع العلاقات الدبلوماسية والقبض على البنادقة فى الاملاك البيزنطية ، ومصادرة متاجرهم ، حمل البندقية على أن تتحالف مع وليـم الثانى ملك صقلية وان تثير الصعاب فى وجه مانويل (٣) ، واستطـاع مانويـل ان يفرض سلطانه على بلاد المجر التى حكمها ملـك

---

(١) Runciman: op. cit. vol. II. P. 474

(٢) انظر ماذكره المؤرخ اليونانى

Nictetas choniates : ostrogorsky op. cit P 346.

(3) Camb . Med. Hist. IV. P. 370,371

موال له ودانت لبيزنطة دالماشيا [1] ، وعمد فردريك بربروسة مرة اخرى ، الى اثارة المتاعب فى وجهه بأن شجع سلطان قونية قلج ارسلان على الثورة على بيزنطة ، فحرض قلج ارسلان سنة ١١٧٥ على التوسع فى آسيا الصغرى بينما قام مانويل فى عام ١١٧٦ باعداد حملتين احداهما قادها بنفسه والاخرى عهد بقيادتها الى أحد اقربائه وهو Andronicus Vatatses وكان الهدف من جيش اندرونيقوس هو اعادة ذنون السلجوقى الى ممتلكاته • ولما سمع قلج ارسلان بذلك ، طلب السلام والتفاوض [2] ولكن مانويل رفض الاستجابة له ، على ان حملة اندرونيقوس تعرضت لهزيمة ساحقة وقتل قائدها وارسل رأسه الى السلطان ، اما الامبراطور فقاد جيوشه عبر ممرات فريجيا الجبلية ، ونصح بعض القادة الخبراء فى الامور العسكرية مانويل بالا يقود جميع جيشه خلال الممرات [3] ، ولكن حماس القادة الشبان ، حمله على اتباع رأيهم ، بعد أن اقنعوه بالهجوم أما السلطان قلج ارسلان الثانى فحشد جيشا لا يقل عن جيش مانويل من حيث العدد فضلا عن مهارة الجند وحماسهم وفى ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ سار الجيش البيزنطى خلال الممر فأحاط بهم الترك من جميع الجهات عند ميريوكيفالون Myriocepholun وسدوا جميع المنافذ وابادوا

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 346

(٢) Camb. Med. Hist. vol IV. P. 377.

(٣) Runciman : op. cit. vol II. P. 412.

مقدمة الجيش وقتلوا امير انطاكية بلدوين ثم حاقت الهزيمة ببقية الجيش والقى السلاجقة برأس القائد Vatatses امام بقية الجيش. وفر الامبراطور بعد أن خانته شجاعته وحاول من تبقى من الجيش ان يتجمع ولكن لم يحظ بذلك الا عدد قليل نظرا لأنّ الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار (١) ، وحدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، ثم انفذ قلج ارسلان رسولا يعرض الصلح على الامبراطور (٢) الذى كان يجمع فلول جيشه فى السهل فى مقابل ان يعيد اليه قلعتى Sublaeum, doryDaeum بعد نزع سلاحهما فبادر الامبراطور الى قبول العرض.

ولم يدرك قلج ارسلان اهمية انتصاره ، ولعل ذلك راجع الى انه ركز كل اهتمامه فى الجبهة الشرقية ، اذ أن كل ماكان يريده هو تأمين حدوده فقط. اما مانويل فان ماحاق به من هزيمة تضارع فى الاهمية ماحل بالبيزنطيين من الهزيمة فى معركة مانزكرت ، وضاعف فى مرارة هذه الهزيمة فشل سياسة مانويل فى الغرب ، اذ ارسل اليه الامبراطور فردريك بربروسه كتابا يطلب منه ان يدخل فى طاعته (٣) .

وترجع اهمية هذه الحادثة الى النتائج التى ترتب عليها سواء

---

١) Diehl (c): Hist. of the Byzantine Empire P. 119

٢) Runciman: op. cit. vol. II. P. 413

٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص١٦٧ ، ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٧٥

من الجانب الاسلامي او البيزنطي وارتباطها بما حدث من تغير الاوضاع بعد وفاة نور الدين ، ووفاة اطريك ، ونهوض صلاح الدين فالجيش الضخم الذي حوى كل من الكسيوس الاول ويوحنا على اعداد ميتد ريبه تحطم ، وكان لزاما على مانويل ان يقضى سنوات عديدة في اعداده من جديد . ولما كان كل ماأنشأه لايتجاوز ماهو مطلوب للدفاع عن الحدود فتعذر على الامبراطور المضى الى سوريا ، وفرض سيطرته على انطاكية او الولايات اللاتينية الشرقية (١) ، وادرك اللاتين آخر الامر ، بأن لبقاء بيزنطة اهمية في المحافظة على املاكهم ضد اخطار المسلمين . فالخوف من الامبراطور هو الذي منع نور الدين من أن يمضي بعيدا في فتوحه وفي مهاجمة المسيحيين .

فهزيمة ميريوكيفالون سنة ١١٧٦ كانت بالغة الاهمية عند اللاتين بعد أن ادركوا اهمية بيزنطة لهم في الشرق وشعروا بأن وجود بيزنطة مهم بالنسبة لهم لمواجهة قوى الاسلام النامية اذ كانت بيزنطة حليفا مسيحيا قويا يعتمد عليه ، على حين ان الاتابكيين في الشام ، الذين تنازعوا الوصاية على الصالح اسماعيل لم يشعروا بمدى اهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللاتين في الشرق (٢) ، وكان صلاح الدين منصرفا الى توطيد سلطانه في مصر والشام . ولم يلبث أن احس اللاتين بالخطر المباشر

---

(١) Runciman: op. cit. vol II. P. 414.

(٢) Cahen : op. cit. P 417
Ostrogorsky: op. cit. P. 374.

بعد أن زار وليم الصورى القسطنطينية ، بعد ثلاثة اعوام من تجديد التحالف ضد مصر .

بيزنطة وصلاح الدين :

ازدادت الاحوال فى بلاد الشام سوءا بينما قوى امر صلاح الدين واقتصرت جهود صلاح الدين فى الفترة السابقة على قيام الدولة الايوبية الى سنة ١١٧٨ على مناوءة الزنكيين ، والحشيشة ، ثم رد الهجوم الصليبى على الدولة الايوبية فى مصر والشام ، واعاد تنظيم قياداته الحربية فى الشمال . شعر الصليبيون بمدى الخطر الذى يحيق بممتلكاتهم فى الشام من سيطرة صلاح الدين على مصر والشام ، ومن الدليل على ذلك عبارة وليم الصورى " ان كل ازدياد فى قوة صلاح الدين يثير فينا الخوف والرعب ، لانه كان رجلا حكيما اذا اشار هدامًا فى الحرب ، اذا نهض لهما ، بالغ السخاء اذا غنى ، ومن الخير ان نبذل المساعدة للملك الطفل لامراعاة لصالحه ، بل لتشجيعه باعتباره عدوا لصلاح الدين "(1) .

ونتيجة للاحداث فى الشام التى جلست وفاة أملريك ونولى بلدوين الرابع ، واصبح ريموند الثالث كونت طرابلس قيما على الملك الصغير بلدوين الرابع ، وأن تنازع السلطة اثناء

William of Tyre: op. cit. II P 415 (1)

فترة وصاية حزبان تألف احدهما من البارونات ـ المحليين والاسبتارية ، يؤيد ريموند ويسعى للتفاهم مع جيرانه ، اما الحزب الآخر فيتألف من القادمين حديثا من الغرب ، ومن الداوية ، وممن اشتهروا بنزعتهم العدوانية وتزعم هذا الحزب ريجنالد شاتيون [1] . وفي سنة ١١٧٧ بلغ بلدوين الرابع سن الرشد واستقل بالملك ، ولاصابته بالبرص كان يعلم أنه لن يعيش طويلا ، فكان عليه ان يبحث عن زوج للاميرة شقيقته سبيلا ، وارسل الى وليم مونتفرات يعرض عليه الزواج من اخته وتم الزواج فعلا ولكن مالبث مونتفرات ان توفى سنة ١١٧٧ ، وبعد وفاته وضعت طفلا واختير ريجنالد شاتيون نائبا للملك [2] . ولما ارسل بلدوين الرابع سفارة للحصول على زوج لاخته كان من اهداف السفارة ايضا الدعوة لحملة صليبية جديدة .

وكان يعتقد ان البيزنطيين ليسوا بالقادرين على تقديم مساعدات فعلية كما كانوا يفعلون من قبل نتيجة لهزيمة ميريوكيفالون لوقوع النزاع بينهم وبين فردريك بربروسه والمجر والنورمان مما دفع مانويل الى التماس مساعدة البابا الذى رحب بازالة الحواجز بين الكنيستين ولكن اشترط مانويل ان يضع البابا التاج على رأسه ، ولكن الاكليروس الشرقى تردد فامتنع

---

١) العرينى : الشرق الاوسط ج ١ ص ٧٦٣

٢) William of Tyre: op. cit. II. P. 415, 417.
Runicman: op. cit II P 414

البابا [1] ، وبازدياد قوة صلاح الدين سنة ١١٧٧م قدمت الى بيت المقدس سفارة من القسطنطينية تلح في تنفيذ التحالف الذى سبق ابرامه من اجل فتح مصر فاذا كان الجيش البيزنطى قد انهار نتيجة لمعركة ميريوكيفالون فان الاسطول مازال من القوة مايكفى للتدخل ، ولكن الملك بلدوين كان قد اشتد به المرض وتنذاك عند قدوم حملة من الغرب ، واشيع ان الملك لويس السابع وهنرى الثانى قادمان ، ولكن الذى قدم بالفعل كان فيليب فلاندر [2] وكان اللاتين يأملون من وراء قدومه تحقيق اغراض كثيرة واذا اشتدت علة الملك ، كان فى حاجة ماسة الى من يقوم باعباء الحكم . ولذا رحب كبار رجال الدولة بقدوم فيليب فلاندر وعرض الملك عليه ان يتقلد حكم المملكة وادارة امورها والقيام بالوصاية على المملكة والدفاع عنها فى حالة الحرب والسلام [3] .

ووصلت اخبار حملة بيزنطة ، فوصل اسطول بيزنطى مؤلف من سبعين سفينة وجنود مدربين وسلاح . وهذه الحملة هى التى كان مقررا ارسالها وفقا للمعاهدة التى عقدها اطوريك مع مانويل سنة ١١٧١م اثناء زيارته ، وتأجل تنفيذها بسبب وفاة اطوريك ، فارسل مانويل ... الى بلدوين الرابع يعلن التزامه بما بذله من وعود ، واشار مبعوثو الامبراطور الى ان الاحوال مواتية لمهاجمة مصر سنة ١١٧٧م لما يصادفه صلاح الدين

(١) Camb. Med. Hist vol IV. P. 370.

(٢) Runciman: op. cit. II. P. 414

(٣) William of Tyre : vII op. cit. vol II. P. 417

من العداء في حلب من قبل الزنكيين ، ولما يلقاه من الكراهية في مصر من قبل انصار الفاطميين ، فاذا اسهم فيليب كونت فلاندر ، ازداد الامل في القضاء على صلاح الدين . وطلب بلدوين من فليب الاشتراك مع بيزنطه في مهاجمة مصر ، فاعتذر ، وقال انه جاء ليقوم بزيارة الاماكن المقدسة ولا يلزم نفسه بالاضطلاع بأى مسئولية [1] . وانه سوف يعود للبلاد متى اقتضت الاحوال ، ورفض ماعرض عليه الملك من ان ريجنالد شاتيون سيشاركه في قيادة الحملة وأن اسطول بيزنطة سيعاونه ورأى انه لايوجد مايبرر اجبارة على التعاون مع البيزنطيين ، ثم كشف عن نواياه حين ابدى اعتراضه على عدم استشارته في موضوع زواج سبيلا [2] على الرغم من قرابته الوثيقة بهما ، وادرك البارونات مايضمره الكونت من رغبته في الى نزع الملك من الملك . على انه اعلن صراحة انه لم يأت لبحث امر الزواج من احدى الاميرتين ايزابيلا او سبيلا ، ومع ذلك حرص اللاتين على المحافظة على المعاهدة المعقودة مع بيزنطة والافادة من المساعدة التي عرضتها [3] .

---

(١) William of tyre op. cit. II. P. 417

(٢) Runciman: op. cit. II. P. 415.

(٣) Runciman: op. cit. vol. II. p; 415

ويرفض فيليب الاشتراك فى الحملة ، تقرر ارجاء اتخاذ اى قرار عن الحملة الموجهة الى مصر . وشعر رسل بيزنطة آنه لا أمل فى حملة على مصر فانتظروا مايقرب من شهر . ولما يئسوا ابحر الاسطول دون ان يقوم بأى عمل ، وابلغوا سيدهم ان الفرنج لا امل فى شفائهم من خستهم [١] . على ان مانويل ظل طوال الفترة الممتدة من سنة ١١٧٦م (محركة ميريوكيفالون) حتى وفاته سنة ١١٨٠ منصرفا الى قتال السلاجقة بآسيا الصغرى [٢] .

اما كونت فلاندر فانه اراد بذل بعض المساعدات ، فلما عرض عليه ان يهاجم المسلمين على اطراف انطاكية أو طرابلس لم يتردد فى الاستجابة لهذا الطلب رغم ان الهدنة بين المسلمين والفرنج ، لا زالت قائمة ، غير انه ورد فى نصوصها مايشير الى ان للفرنج الحق فى نقضها ، متى جاء من الغرب امير صليبى محارب فانفذ بلدوين القوات من بيت المقدس للتعاون فى القتال ، بينما هبطت قوات من طرابلس الى وادى الاور . وتقررت مهاجمة حماة وحارم بناء على طلب ريموند وبوهمند . واستمر حصار اللاتين لحارم اربعة اشهر ، وكان اللاتين يأملون بأن تسقط حارم نظرا لصغر سن اسماعيل وتغيب صلاح الدين فى مصر وهددهم الصالح اسماعيل بأن صلاح الدين فى طريقه الى سوريا فوافقوا على رفع الحصار . [٣]

عاد فيليب الى بيت المقدس ومنها الى اللاذقية ثم الى القسطنطينية .

ولقد اعتبر وليم الصورى كل من ريموند امير طرابلس وبوهمند امير انطاكية متواطئين مع فيليب فلاندر ومسئولين عن فشل الحملة البيزنطية الصليبية [٤] .

---

١) Stevenson: op. cit p; 216

٢) Lane-Poole: op. cit. P. 154

٣) Stevenson: op cit. P. 216

٤) Runciman: op. cit. vol II. P. 418.

William of Tyre op cit vol II P. 417

وبفشل الحملة عاد فيليب فلاندر دون ان يؤدى عملا هامـــا ، ولم يغتنم الصليبيون الفرصة التى هيأتها لهم بيزنطة بقواتها واسطولها ولا سيما ان صلاح الدين كان منصرفا وقتذاك لتدبير احوال مصر ، وفى سنة ١١٧٨م توجه وليم الصورى لحضور مجمع اللاتيران فاستقبله البابا اسكندر الثالـــث استقبالا حسنا . ومن المعروف ان اسكندر الثالث كان على علاقة طيبة بالامبراطور البيزنطى مانويل نظرا لكراهيتهما للامبراطور الالمانى فردريك بربروســـه ، وارسل البابا وليم الصورى فى سفارة الى بلاط القسطنطينية حيث دارت محادثات تمهيد يةلتوحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية الغربية (١) ،وهذا المشـــروع عطل وليم الصورى عن الذهاب لبيت المقدس ، ولم يعتبر وليم الصورى نفســـه غريبا فى القسطنطينية ، اذ رحب بهالامبراطور ومكث مايقرب من سبعة اشهـــر بها ،شهد اثناءها خطبة ابن الامبراطور لابنة لويس السابع ملك فرنسا كمـــا حضر زواج ابنة الامبراطور مانويل من كنزاد شقيق وليم مونتفيرات وعهــــد الامبراطور البيزنطى الى وليم بالقيام بسفارة لانطاكية . وتحدث الامبراطـــور معه بشأن تجديد التحالف مع اللاتين لمناوءة مصـــر . ولكن هذا المشـــروع لم يخرج الى حيز التنفيذ (٢) .

أدرك صلاح الدين ماحدث من تداعى التحالـــف اللاتينـــى

---

(١) William of Tyre: op. cit. vol. II P. 417

(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١١٨

والبيزنطى ، وازدادت الاحوال سوءا عند الصليبيين ، فما حدث من تدهور احوال المملكة ، وسوء حالة الملك الصحية ، حملا الملك على أن يسعى الى ان تتزوج اخته سبيلا من جاى لوزجنان [1] ، اما انطاكية فقد سادها الشقاق والنزاع بسبب تعدد زيجات بوهمند الثالث بينما توالت انتصارات صلاح الدين ، وتدعم مركزه فى مصر والشام ، وهاجم الصليبيين فى بانياس وانتصر عليهم فى معركة مرج عيون ، كما استخدم الاسطول فى مهاجمة عكا ، واضطر بلدوين لعقد هدنة سنة ١١٨٠ لمدة عامين [2] وفى تلك الاثناء توفى اهم نصير وحليف للفرنج هو مانويل امبراطور الدولة البيزنطية .

تغير سياسة بيزنطة تجاه الصليبيين بعد مانويل :

سار مانويل على سياسة كل من الكسيوس ويوحنا فى بذل المساعدة للفرنج بما لا يتعارض مع مصلحة الامبراطورية . فضلا عن طموحه لخدمة المسيحية الذى دفعه الى مغامرات ليس فى وسع الامبراطورية ان تتحمل نفقاتها ، فما كان يرسله من جيوش الى هنغاريا وايطاليا ، كان فى اشد الحاجة اليها فى الاناضول ، كما ان هزيمة ميريكفالون كانت قاتلة لجيشه [3] . وازدادت الكراهية للاتين بالقسطنطينية زمن مانويل [4] ، فانهم

---

1) Runciman: op. cit. vol. II. P. 425.

٢) العرينى : الشرق الاوسط جـ ١ ص ٧٧٣

3) Runciman: op. cit. vol II. P. 420

4) Ostrogorsky: op. cit. P. 345

بعض المؤرخين مانويل بانه فى سبيل بعض الميزات الدبلوماسية منح البنادقة امتيازات اقتصادية تسببت فى انهيار اقتصاد بيزنطة • كذلك عقد اتفاقية سنتى ١١٦٨ ، ١١٧١م مع بيزا وجنوه [1] ، وتسبب البنادقة فى زيادة حدة الكراهية والبغضاء تجاههم فى الامبراطورية لاحتكارهم للتجارة بين بيزنطة والشرق ، وقيامهم بامداد الاساطيل الامبراطورية بالبحارة ، وقيامهم بامداد الاساطيل الامبراطورية بالبحارة وبذلك اصبحت الامبراطورية تحت رحمتهم [2] • يضاف الى ذلك ماحدث من انتزاع بيزنطة دلماشيا من البندقية ، ورفض البنادقة بذل المساعدة للامبراطور فى حروبه مع النورمان فى عهد مانويل • واذ اصاب البنادقة الغرور ، لما ظفروا به من نجاح فى نشاطهم التجارى ، حتى شكا البيزنطيون من جشعهم واحتقارهم لليونانيين حرض الاباطرة البيزنطيون على اخضاعهم وفرض الضرائب والخدمة العسكرية • وفى ١٢ مارس سنة ١١٧١ ، امر الامبراطور مانويل بالقاء القبض على جميع البنادقة بالقسطنطينية وبلاد الروم وصادر سفنهم ، فاشتدت ثائرة البنادقة وتحتم عليهم خوض الحرب ،

---

١) ديل (شارل) : البندقية جمهورية ارسطقراطية ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ص ٢٣

٢) Ostrogoroky : op. cit. P. 345

فأرسلوا أسطولهم الى الشرق ، ولكن الحرب لم تسفر عن نتائج مرضيــة وانما ترتب عليها انقطاع التجارة مع الامبراطورية لسنوات عديدة . على أن هذه الكراهية كان يقابلها شعور عدائى ايضا من الغرب تجاه بيزنطة ، اذ اتهمهـا الصليبيون بأنها مسئولة عن فشل حملاتهم فــى الشــام ومصر [1] .

ولم تكن العلاقــات طيبة بين بيزنطة وامبراطور المانيا فردريـــك بربروسة ، بل ان تحالف بيزنطة مع البابا اسكندر الثالث لمناهضــــة فردريك لم يؤد الى نتيجة ، ولم يلبث ان ساءت العلاقات ، ولم يتحقـــق التعاون فى المجال الدينى بما قد يؤدى الى التفاهم . اذ عارض الشعــب التقارب بين البابا ومانويل وقاوم التحالف بين الجماعة المنحرفة فى الوطـــن والعقيدة . وحدث التقارب بين البابا والامبراطور فردريك وعقدت معاهـــدة سنة ١١٧٧ ، وتم طرد جميع الرعايا البيزنطيين من ايطاليا [2] .

أما فى الشرق الاسلامــى ، فان معركة الامبراطور مع السلاجقـــة

---

(١) Runciman: op. cit. vol II. P. 420

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 340

وهزيمته حطمت الجيش البيزنطى ومنعته من التدخل الفعلى فى الامارات اللاتينية فى الشرق وحرمت الصليبيين من حليف قوى [١] ، واستشعر اللاتين بعدئذ بما افتقدوه من التحالف مع بيزنطة ، وهذا يبرر ان قطرة واحدة من الدم البيزنطى لم ترق فى موقعة حطين ، ولم يشترك جنود بيزنطة فى المعركة التى حددت مصير مملكة بيت المقدس .

اما المرحلة الجديدة ، التى تبدأ بوفاة مانويل سنة ١١٨١ ، فأهم ماتسمت به ، هو ماجرى من تغيير فى السياسة البيزنطية ، نحو اللاتين ، والنزوع الى التقارب مع الايوبيين [٢] .

وتفصيل ذلك أن الطفل الكسيوس الذى ولى العرش بعد وفاة ابيه مانويل لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، فسيطرت امه اللاتينية ماريا الانطاكية على امور الدولة ، وكانت اول لاتينية تحكم الامبراطورية وتوثقت علاقتها وصداقتها بالكسيوس كومنين وهو من اقارب الامبراطور الجديد ، فتعرضت بذلك للكراهية من الشعب والارستقراطية على حد سواء . فالارستقراطية رأت أن هذا الرجل وصل لمركز مرموق برغم افتقاره الى الكفاية والمقدرة ، ولم ينس البيزنطيون خلافاتهم ومنازعتهم مع انطاكية [٣] . فضلا

---

(١) Gibbon: op. cit. P. 409.

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 340.

(٣) Runciman: op. cit. II. P. 427.

عن اعمال الصليبيين العدوانية اثناء مرورهم بالاراضى البيزنطية . فما زال البيزنطيون يذكرون مذابح البندقية وبيزه وجنوه ، وسيطرتها على تجارة الامبراطورية وجنى الارباح الطائلة ومهاجمة المواطنين المسالمين (1) ، وازدادت الكراهية لحاشية الملكة المؤلفة من التجار الايطاليين والجنود المأجورين ، ولما ظفر به اللاتين من امتيازات ، بينما شعر اليونانيون بالحقد الشديد عليهم ، فصب البيزنطيون غضبهم على تلك السياسة ولا سيما بعد انهيار مركز بيزنطة سواء فى الداخل والخارج . وجرت عدة محاولات لاغتيال الامبراطورة وصديقها منها محاولة ابنة مانويل وزوجها ، ولكنها باءت بالفشل .

ولقد بدأ التغير واضحا فى مخطط السياسة البيزنطية فأرسل الامبراطور الكسيوس كومنين الثانى الى القاهرة مبعوثا سنة ١١٨٠ ـ ١١٨١ لعقد الصلح مع صلاح الدين (٢) ، ورغم انهيار حكم الملكة والامبراطور الكسيوس الثانى بعد ذلك ، فان المخطط الجديد لم يتغير ، فقد ثار عليها اندرونيكس كومنين وهو ابن عم مانويل ، وسياسته تختلف عن سياسة مانويل اختلاف تام . اذ انه عدوا للارستقراطية الاقطاعية وخصما عنيدا للاتين فى الشرق ، ولكن فى نفس الوقت كان متقلب الاهواء (٣)

(١ Ostrogorsky: op. cit. P. 340

٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢

(٣ Ostrogorsky: op. cit. P. 351.

اذ رأى نذر الخطر تحيط به . واستطاع اندرونيكس آخر الامر ان يهزم الكسيوس فأمر بسمل عينيه وادخله الدير ، ودخل القسطنطينية واعدم الامبراطورة واجبر الامبراطور الطفل على أن يوقع الحكم بشنق والدته ، وسيطر على الامبراطور الطفل الكسيوس الثاني ، وتعرض اللاتين لما أجراه اندرونيكس من مذابح ، ذهب ضحيتها اعداد كبيرة من اللاتين ، وقام البيزنطيون بالتنفيس عن حقدهم للاتين بالمشاركة في تلك المذابح الضخمة والاستيلاء على متاجرهم وممتلكاتهم ، وكانت المقاومة اليائسة التي ابداها اللاتين حافزا لهم على القسوة ، فلم يراعوا سنا أو جنسية أو روابط أو صداقة وامتلأت الطرقات باشلائهم ، وحرق رجال الدين كنائسهم والمرضى في المستشفيات وبيع آلاف منهم كرقيق للترك . واسهم رجال الدين في الدعوة لهذه الحركة ، بل تقربوا الى الله شاكرين حين فصلت رأس الكاردينال الروماني مندوب البابا . ولم يستطع الافلات الا عدد محدود ، واستقلوا سفنهم الى الغرب ، وتجنبوا كل الموانئ البيزنطية حيث اطلعوا الغرب على أخبار تلك المذابح ، وأثار هذا نفوس المسيحيين في الغرب [1] ، ولم يلبث أن لقي الامبراطور الكسيوس الثاني

---

(١) Gibbon op. cit. Vol VI. P. 404.
Diehl: op. cit. p. 134
Ostzogorsky. op. cit. p. 351

مصرعـه سنة ١١٨٣ ، وصار اندرونيكـى امبراطورا ، وما ارتكبـه من الجرائـم [1] وما اقدم عليـه من مناهضـة اللاتين فى الشـرق والغرب سواء ، كل ذلك حمله على أن يلتمس حليفا جديدا بين المسلمين فى الشرق وكان هذا الحليف ، صلاح الدين . [2]

(١ Runciman; op. cit. vol II, P. 428.

Gibbons: op. cit. vol VI P. 404-405

" الفصـــل الرابـــع "

التحالف الايوبى البيزنطى فى عهد صـــلاح الديـــــــن

١١٨١ ـ ١١٩٣م

تعرض صلاح الدين والبيزنطيين لتهديد عدو مشترك ـ سفارة اندرونيكس الى صلاح الدين (١١٨٥م) ـ ترحيب اسحق انجيلوس بمحالفة صلاح الدين ـ سفارة صلاح الدين الى اسحاق ـ المفاوضات بين الايوبيين والبيزنطيين بشأن الحملة الصليبية الثالثة ـ اهتمام صلاح الدين باقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية ـ العلاقات بين البيزنطيين وحملة فردريك بربروسه ـ مراسلات اسحق الى صلاح الدين بشأن حملة فردريك ـ رفض صلاح الدين لطلبات البيزنطيين .

———

حدث قبيل الحرب الصليبية الثالثة أن ، انحاز صلاح الدين ، سلطان مصر والشام ، الى أكبر دولة مسيحية فى الشرق ، الدولة البيزنطية ، للمحافظة على مصالحهما المشتركة التى تنطوى على مقاومة اللاتين فى الارض المقدسة [١] واعتبر الغرب هذا الاتصال انتهاكا لرابطة الدين وتحطيما للتقاليد ، وذلك لأن الحروب كانت تكون مستمرة بين البيزنطيين والمسلمين ، منذ ظهور الاسلام ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى انتزع المسلمون السلاجقة معظم بلاد الاناضول من الامبراطورية الشرقية وما حدث بعد الحملة الصليبية الاولى ، من تعاون بيزنطة مع المسيحيين فى الغرب ، كانت تأمل من وراءه أن تجعل لنفسها الحماية على الامارات الصليبية فى الشام ، وفى أن تظفر بالمساعدة ، لمقاومة الزحف الاسلامى على اطرافها الشرقية [٢] ، ومع ذلك فان اندونيكوس ، آخر اباطرة أسرة كومنين ، وخليفته اسحاق انجيلوس ، غيرا هذه السياسة رأسا على عقب ، وتحالفا مع اكبر عدو للصليبيين ، صلاح الدين بل انهما حاولا جاهدين ، ان يستأصلا الدول اللاتينية من الشرق هذا التقارب بين العدوين القديمين (البيزنطيين والمسلمين ، سهله ويسره ما جرى أخيرا من علاقات شخصية ، وما أملته الضرورة السياسية فحينما تقرر نفى

---

(١) Runciman: op. cit. vol II. P.412.

(٢) Setton: op. cit. vol II P. 154

اندرونيكوس ، ثم الى دمشق وبغداد ، حيث توطدت الصداقة بينه وبين نورالدين [١]
وحدث بعدئذ أن حل فى بلاط صلاح الدين ، الكسيوس انجيلوس واخوه الاصغر
اسحاق ، اللذان هربا من طغيان اندرونيكوس [٢] ، وكان الكسيوس لايزال فى
بلاط صلاح الدين ، حينما نصب الرعاع بالقسطنطينية ، اسحاق امبراطورا [٣] ومن
هنا عرف هؤلاء الحكام قادة المسلمين والقوى الاسلامية .

وفى سنة ١١٨٥ تعرض كل من البيزنطيين وصلاح الدين لتهديد
نفس الاعداء من المسلمين والمسيحيين . اذ أن صلاح الدين واجه الامارات
الصليبية التى قامت وفصلت بين شطرى ممتلكاته والمعروف أن قبرص التى تمردت
واعلنت العصيان تحت زعامة اسحاق كومنينوس من اقوى المتحمسين لدعوة
اللاتين وللمصالح اللاتينية ، وكانت من قبل ترجح كفة اللاتين ضد صلاح الدين ،
ومن الطبيعى أن البيزنطيين كانوا يأملون أن يستردوا هذه الجزيرة [٤] . ومما
حدث سنة ١١٧٦ من احراز السلاجقة انتصارا حاسما فى معركة ميروكيفالون وطد
سلطانهم فى جون الاناضول ، حيث أضحوا مصدر خطر شديد ، وتهديد كبير على

---

(١) Ostrogorsky. op. cit. P 351

(٢) Gibbon : op. cit. Vol. VI P. 405

(٣) William of Tyre op. cit. vol II P. 354

(٤) Lamonte: op. cit. p. 12

الممتلكات البيزنطية فى بحر ايجة وعلى املاك صلاح الدين فى شمال الشام ، فتوافر للبيزنطيين مثلما توافر لصلاح الدين من دواعى الخوف من جهة الغرب ، وأثار حديث الحروب الصليبية عندهم ذكريات أليمة عن تجاربهم مع الحروب الصليبية المتقدمة ، فما بذله مانويل كومنين من جهود لاسترداد الاقاليم التى فقدتها بيزنطة فى ايطاليا ، أسهمت فى تباعد الامبراطورية الغربية ، ومملكة صقلية ، والبندقية بما تمتلكه من اسطول قوى ، وما حدث سنة ١١٨٢ من اجراء مذبحة مروعة بين الايطاليين المقيمين فى القسطنطينية أحزنت جنوا وبيزا ، اذ أن رعاياهما كانوا اكثرا من عانوا من هذه المذبحة ، ومن الطبيعى ان تسميا الى الانتقام[1]

ازداد اندرونيكس طغيانا فقتل الكثير من انصار مريم الانطاكية من البيزنطيين وسمل اعين آخرين ، واساء الى البطريرك ونتيجة لذلك فر من وجهة عدد كبير من رجال العاصمة والتجأوا الى الامراء الصليبيين فى انطاكية وغيرها ولاسيما القدس[2] واقام بعضهم فى صقلية وايطاليه والبعض الآخر فى قونيه وكان اندرونيكس قد نفى احد افراد اسرة كومنين واسم الكسيوس كومنين الى روسيه فهرب منها والتجأ الى ملك صقلية وليم الثانى وطلب مساعدته اندرونيكس فأجاب وليم الثانى التماسه وجرد حمله فى سنة ١١٨٥م مما حرك الامل فى اقامة ثورة لصالحه[3]

---

(١) اسدرستم : الروم ج ٢ ص ١٦٠

(٢) ابن جبير الاستبصار فى عجائب الامصار الرحلة ص ٣٢٣
شاهد ابن جبير الجيوش الصقلية وهى تحشد استعدادا للحملة ضد بيزنطه كذلك شاهد المطالب المرش اثناء وجوده بصقلية .

(٣) Ostrogorsky: op. cit. P. 355

واستولى على دراخيوم ١١٨٥م واتجه الى سالونيكا وهاجم الاسطول جزائر كورفو وكيفالونيا • واستولى الجيش النورمانى على سالونيك ثانى مدن الامبراطورية ونهبها • وزحف على العاصمة ذاتها • ولم يسع اندرونيكوس • بعد أن جرى تطويقه من جميع الجهات • وبعد أن تعرض لتهديد وضغط مباشر من غارة النرمان وما تهدده من ثورة ( ) • الا أن يلجأ الى صلاح الدين • املا فى أن يحصل على مساعدة فعالة (١) •

ووفقا لذلك ارسل اندرونيكوس • سنة ١١٨٥ • سفارة الى صلاح الدين يستعيد ما كان بينهما من صداقة قديمة • ويعرض قيام تحالف بينهما • ونظرا لأن اندرونيكوس كان امبراطورا فكان لزاما على صلاح الدين ان يبذل له الولاء • وان يقدم له المساعده • فيجرى فتح فلسطين واقتسامها بينهما • على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ماعدا عسقلان • واذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى • فلابد من اضافتها حتى انطاكية وارمينيا • الى الامبراطورية الشرقية • ولا شك أن اندرونيكوس • مقابل هذه المساعدة والاملاك • وعد بأن يبذل المساعدة للمسلمين فى نضالهم ضد اللاتين فى سوريا وليس معروفا مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات • غير أنها فيما يبدو حازت القبول •(٢) والراجح أن كل الحقوق والامتيازات الاقليمية

---

(١) Gibbon: op. cit. vol . VI. P. 405

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 354

Grousset: op. cit. II. P. [illegible]-751. note 1

توقفت على مايقوم به البيزنطيون من تنفيذ نصيبهم فى المعاهدة ، ولكن اندرونيكوس طرد من العرش (١٢ سبتمبر سنة ١١٨٥) ، على يد سكان المدينة الذيـــن حنقوا لما أصابه من هزائم وفشل فى الحرب النرمانية [1] ، قبل أن يصل الـــى القسطنطينية رد صلاح الدين .

أما طلب اندرونيكوس ، بأنه ينهض على صلاح الدين أن يبذل لـــه الولاء ، لأنه امبراطور ، فان صلاح الدين ، سلطان مصر والشام ، اعتبـــره طلبا داعيا للسخرية ، ولا يقبله بأى حال من الاحوال . فضعف الامبراطوريـــة البيزنطية وتخاذلها كان امرا معروفا فى كل مكان [2] . فلم يكن النورمان وحدهـــم هم الذين غزو سالونيك ، بل ان جزر الارخبيـــل تعرضت لغزو القرصان اللاتيـــن وغاراتهم ، واندلعت فى قبرص ثورة لقيت نجاحا كبيرا ، وتجاوز الترك والمجريـــون فى غاراتهم اطراف الامبراطورية . أما سلطة صلاح الدين فانها اخذت وقتـــذاك تمتد وتتسع ، وما أحرزه من انتصار باهر على الامارات الصليبية كان معروفا ولـــم

---

(١) عن سفارة اندرونيكوس لصلاح الدين انظر :

Cahen: op. cit. P. 424 ,425

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 355

يكن موضع تفكير مطلقا وقتذاك ان يخضع العالم العربى للبيزنطيين ، ومع ذلك فان طلب اخضاع العرب ، انما يمثل عند الامبراطور فكرة بيزنطية تقليدية ، باعتبار ان الامبراطور ممثل الله على الارض ، فما من أحد يساويه فى المكانة (١) ، والدليل على أن اندرونيكوس لم يكن يهتم بأكثر من مجد خيالى ماجرى من طلبه بأن تكون له بيت المقدس وساحل فلسطين ، والواضح أن صلاح الدين رفض دعوى بيزنطة فى السيادة .

وما كان من قبول صلاح الدين فكرة اندرونيكوس فى التحالف معه ، رحب بها الامبراطور الجديد ، اسحاق الثانى انجيلوس ، الذى سره أن يجد حليفا فى صلاح الدين ، بعد أن تعرضت عاصمته القسطنطينية لتهديد النورمان ، فأقر المعاهدة (بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين فيما بعد) (٢) واستدعى أخاه الكسيوس ليعود من لدى صلاح الدين كان ألكسيوس انجيلوس لا يزال ضيفا على السلطان صلاح الدين مثلما كان اسحاق من قبل ، غير أنه حدث سنة ١١٨٦ بعد أن استدعى اسحاق اخاه ، اخذ الكسيوس فى المسير الى القسطنطينية فأمسك

---

(١) Cahen: op. cit. P. 425

(٢) أشار كاتب الرسالة المجهولة الى مصدر من المصادر التى يصح انه استقى منها معلوماته ، فى سنة ١١٨٦ علم كونت طرابلس وامير انطاكية بالتحالف بين اسحاق وصلاح الدين .

Branrd (c) : saladin and Byzantium P. 167 (speclum 1945 vol xx

به كونت طرابلس اثناء اجتيازه عكا وامر بحبسه وذلك حينما وصل الى الامـــــارات الصليبية نبأ التحالف البيزنطى الاسلامى . وفى اثناء اعتقاله ، بذل له البيازنـة المساعدة بما قدموه له من القروض ، التى فيما بعد تسديدها . ولما علم اسحـاق بهذا الاجراء كتب الى صلاح الدين يحثه على مهاجمة الامارات اللاتينية ، كيمـــا يتم اطلاق سراح اخيه الكسيوس.

وفى ربيع سنة ١١٨٧ م ، بعث البيزنطيون بأسطول لمهاجمة قبرص وفـــى الاراضى المقدسة ، جرى تفسير تحرك الاسطول البيزنطى على أنه مساعدة بحريـــة كيما يقوم صلاح الدين بهجوم على الامارات الصليبية ، غير ان القوات البيزنطيـة تعرضت للهزيمة فى قبرص على يد اسحاق كومنين ، وحلت الكسرة بالاسطول عـلى يد القائد الصقلى . وفى تلك الاثناء ، هاجم صلاح الديـن مملكة بيت المقدس ، بسبب ماتعرض له من اهانات من قبل اللاتين لا بســـبب تشجيع اسحاق ، فاستولى صلاح الدين على بيت المقدس والمدن الساحليـــة (١) . ولما سقطت عكا فى يد صلاح الدين ، جرى اطلاق سراح انجيلوس من معتقلـه فعاد الى القسطنطينية على ظهر سفينة جنوية ، ولم يدفع نفقة الرحـلة حتى سنة ١٢٠١م (٢) .

---

(١) Branrd op. cit. P 169-170

(٢) Lane-poole: op. cit. P. 214-218

على أن صداقة صلاح الدين لاسحاق انجيلوس ليس لها أى صلة بفتح الارض المقدسة الا من ناحية واحدة . فالمعروف أن ماحدث من قبل من استسلام بيت المقدس انما يرجع فيما ذاع وشاع الى أن اليونانيين الارثوذكس المقيمين ببيت المقدس والمعروفين باسم الملكانية كانوا مستعدين لتسليم المدينة بطريق الخيانة . واتصل بهم المسلمون عن طريق يوسف بطيط
وهو ملكانى ، ولد ونشأ فى بيت المقدس ، وعد بتدبير فتح ابواب المدينة على يد بنى جلدته وديانته . ولما وقف زعماء اللاتين على كراهية الملكانيين وعلى تدبير مؤامراتهم ، كان هذا من اسباب مبادرتهم بتسليم المدينة [١] .
لم يكن ثمة صلة معروفة أو ضرورية تربط بين اسحاق انجيلوس ، وماكان من اعمال الملكانيين ، غير أنه من الملحوظ أن تحالف صلاح الدين مع البيزنطيين ادى الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالاراضى المقدسة الى الشعائر اليونانية . والراجح أن الملكانيين فى بيت المقدس علموا ما بذله صلاح الدين لهم من وعود ، والواضح انه لم يكنوا المحبة لجيرانهم من الفرنج [٢] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٣

(٢) Gibbon : op. cit. vol VI 374

واذا فرح صلاح الدين بما احرزه من انتصارات على الصليبيين ارسل الى اسحاق سفارة تعلن ما اصابه من نجاح وفوز. ووفقا لتقاليد الدبلوماسية الشرقية ، حمل السفراء الى الامبراطور البيزنطى هدايا فاخرة ، منها فيل ، وخمسون من السروج التركية ، ومائة من الاقواس التركية ، بما تحتاجه من سهام ، ومائة من الاسرى البيزنطيين من بلاد اليونان ، ١٠٥ حصانا تركيا وذهبة كبيرة من البهار ، واظهر اسحاق سرورا بما جاءه من أنباء طيبة ، ومن هدايا ثمينة فاستضاف الرسل فى قصر منيف فى وسط القسطنطينية وجدد المحالفة مع صلاح الدين (1) . واكثر ما أظهره له الامتنان والشكر ، ما جرى من اطلاق سراح شقيقه من حبس الصليبيين ورد اسحاق على صلاح الدين ، بهدايا تضارع ما أرسله له فى القيمة والروعة ، فمنها اربعمائة زردية ، وأربعة آلاف رمح من الحديد ، وخمسة آلاف من السيوف . وكلهامن الاسلحة التى استحوذ عليها من هزيمة جيش وليم الثانى الذى اغار على املاكه ، واثنتا عشرة قطعة من القماش الفاخر ، وقد حان من الذهب ، وثلثمائة من فرو السمور ، وأرسل هدايا من القماش والخلع الامبراطورية الى شقيق صلاح الدين والى ابنائه الثلاثة ، وأهم من كل ذلك ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٧

حمل الرسولان الى السلطان تاجا مرصعا بالذهب ، ورسالة من اسحاق نصهـا
" أبعث اليك بهذا التاج ، لأنك فى رأيى تعتبر ملكا وانت جدير بالملك ، وذلك
بفضل مساعدتى وعون الله ، " وبهذا الرمز وبهذه العبارات على الرغم من انه
لم تكن صادقة ، سعى الامبراطور الى ان يبرهن على سيادته على صلاح الدين .

أبحر الرسل الى عكا ، حيث اقام لهم صلاح الدين ، فى ٦ يناير
سنة ١١٨٨م ، بعد أن رفع الحصار عن صور ، ورادقا فخما حافلا لاستقبالهم
وبعد التحالف مع بيزنطة ، وذلك بحضور ابنائه وامرائه وموظفيه ، وأشاد الرسل
بصفة خاصة بصلاح الدين لما أجراه من اطلاق سراح الكسيوس انجيلوس " فبفضلك
تم تخلصه وانقاذه من ايدى اللاتين " (١) وسأل صلاح الدين هؤلاء الرسل
عن احوال الامبراطورية (البيزنطية) ، والحروب مع الفلاح ، الحروب مع سائر
الحكام (الواضح أنه يقصد ملوك الغرب) ، وأهم خبر حمله هؤلاء الرسل البيزنطيون
الى صلاح الدين ماحدث فى الغرب من الدعوى الى حملة صليبية جديدة لتخليص
بيت المقدس (٢) .

---

(١) ابوشامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٣٦

(٢) تشير رسالة القاضى الفاضل الى سيف الاسلام باليمن المؤرخة ٥٨٤ هـ
(١١٨٨ ـ ١١٨٩) الى ماورد من الانباء من حاكم القسطنطينية ،
الاسكندرية ، ومن شمال افريقية ، بشأن تجمع واعداد حملة صليبية
فلا داعى لان نفترض قدوم سفارة اخرى من اسحاق ، لتحمل هذه
الانباء الى صلاح الدين كما يزعم Dolger انظر / ابوشامة الروضتين
جـ ٢ ص ١٣٦

Grousset ; op. cit. Tome III P 13

بعد فترة من التمهل والارجاء ، الراجح أن صلاح الدين تلقى أثناءها من جهات أخرى ما يؤكد احتشاد الحملة الصليبية الثالثة ، عزم على أن يزيد من توثيق علاقته باسحاق كيما يضمن مساعدته ازاء ما يصح أن يمر بأراضيه من رجال الحملة (1) . ولهذا انفذ مع السفارة البيزنطية عند عودتها ، سفارة من قبله ، عهد اليها بالقيام بمفاوضات من هذا القبيل ، وفاقت هداياه كل ما سبق أن ارسله من هدايا اذ كان منها عشرون حصانا لاتينيا ، وصناديق كبيرة من العطور (الجامات والبلسان ، وثلثمائة عقد من الجواهر صندوق من العود ، ومائة كيس من المسك ، وعشرون الف بيزنطا ، وفيل صغير وغزال ، وزرافة ، وخمسة فهود ، وثلاثون قنطارا من الفلفل وانواع البهار الاخرى ، وقدر كبير مصنوع من الفضة وكميات كبيرة من الدقيق والحبوب السامة وهذه الاطعمة المميته (التى جرى اكتشافها عند تجربتها مع احد الارقاء اللاتين حينما لقى مصرعه) كان الغرض منها فعلا ، توزيعها على الصليبيين القادمين من الغرب ، عند اجتيازهم الاراضى البيزنطية . وحوت حوليات فردريك بربروسه قصصا عن محاولات تدمير الالمان بالالتجاء الى مثل هذه الوسائل .

ومن هدايا صلاح الدين ، فى هذه المناسبة " منبر " والذى

---

(1) Runciman: op. cit. vol III. P. 63-74

كان لابد للامبراطور أن ينصبه ، ويعمل على تمجيده وتبجيله ، تكريما للمسلمون ، وفقا لما بذله من وعد سابق ، ففي اثناء المفاوضات الثالثة ، مع اسحاق ، اهتم صلاح الدين بالمحافظة على الشعائر الاسلامية ، وعمارة مسجد القسطنطينية ، مثلما ابدى اسحاق رغبته في مراعاة الشعائر اليونانية في كنائس الارض المقدسة [1]

ومع ذلك فان المنبر الذى بعث به صلاح الدين ، في هذه المناسبة لم يصل الى القسطنطينية ، اذ استولى الجنويون على السفينة التي تحمله الى العاصمة البيزنطية ، وحملوه الى صور ، ولما كان المنبر يعتبر دليلا ملموسا على التحالف بين الامبراطور وصلاح الدين حرص كنراد مونتفرات (الذى حكم وقتذاك في صور) على ان يذيع النبأ الاستيلاء عليه [2] ، في سائر انحاء اوربا ، وما أرسله فيليب الثاني ملك فرنسا من سفارة الى القسطنطينية ، حملت من الانباء ما يقصد بها تشجيع التجهيز والاستعداد والتجنيد للحملة الصليبية القادمة ، وفي خريف سنة ١١٨٨ ، اصبح معروفا في غرب اوربا خبر معارضة اسحاق للحملة الصليبية ،

وفي ٢٠ سبتمبر ١١٨٨ ، وحينما بعث كنراد مونتفرات برسالة الى اسقف كانتبيرى عن الاستيلاء على المنبر ، توافر لديه من الانباء مايكفي

---

(١) ابوشامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٥٩

(٢) Gibbons op. cit. vol VI P. 407

لأن يضمن رسالته اهم ماورد فى المحالفة بين صلاح الدين والبيزنطيين من شروط ، قرر صلاح الدين ان تسير كل الكنائس فى فلسطين التى استولى عليها وفقا لمذهب بيزنطة (الارثوذكس) ، والتزم اسحاق بأن تجرى الشعائر فى مسجد القسطنطينية على مذهب صلاح الدين [١] . وفيما يتعلق بحصار انطاكية التزم اسحاق بأن يبعث مائة سفينة حربية ، لمساعدة صلاح الدين ، ومع ذلك فان مقاومة الحملة الصليبية الثالثة المقبلة ، كان امرا جوهريا عند صلاح الدين فلم يقم اسحق من تلقاء نفسه ، بأن يسجن فى القسطنطينية اللاتين الذين وعدوا بالاشتراك فى الحملة الثالثة ، بل انه وافق ايضا على معارضة ومقاومة كل جيش يحاول اجتياز ممتلكاته [٢] ، ومقابل ذلك وعد صلاح الدين ، بأن يمنحه كل الاراضى المقدسة ، وهو ما ناضلت بيزنطة من اجل الحصول عليه طوال القرن الثانى عشر ، ومن أجلها اجرى ايضا اندرونيكوس المفاوضات ، اما تقرير السفارة الفرنسية ، الذى جرت كتابته من القسطنطينية بعد فترة قصيرة عقب كتابة رسالة كنراد فأضافت الى ان السفراء المسلمين ، لقوا من الحفاوة والتكريم فى القصر الامبراطورى مالم يلقه غيرهم من السفراء . وزعمت السفارة الفرنسية ايضا انه حدث فى نفس اليوم الذى تأهبت فيه رسلها لمغادرة القسطنطينية ، امر اسحاق بطرد كل اللاتين من الامبراطورية ، فاذا كان هذا القرار قد صدر فعلا ، وهو مالم يجد

---

(١) ابوشامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٥٩

(٢) Grousset: op. cit. Tome III P. 13.

تأكيدا له فى مصادر أخرى ، فانه لم يلبث أن جرى تعديله بعد فترة وجيزة ، فمن المحقق انه كان بالامبراطورية الشرقية اثناء الحملة الثالثة ، تجار من البنادقة وجند مأجورة من الفرنج ، وموظفون من اللاتين (١) ، ومع ذلك فان ماحدث من احتجاز الصليبيين مستقبلا فى القسطنطينية دل على أن اسحاق يكون قد الزم نفسه بسياسة عدائية نحو الغرب لما يبذله من جهود لاستعادة بيت المقدس.

على انه ليس من المحقق ما اذا كانت الشروط النهائية للمحالفة العسكرية انتهى منها سفراء صلاح الدين سنة ١١٨٨ ، أو سفارة اخرى جاءت الى القسطنطينية فى السنة التالية. فالمعروف ان مبعوثين من قبل السلطان صلاح الدين كانوا بالقسطنطينية فى يونية ١١٨٩ عند استحكام الازمة فى العلاقات بين اسحاق وفردريك بربروسه ، ذلك انه حينما قرر الامبراطور الالمانى فردريك بربروسه ١١٨٨ الاشتراك فى الحملة الصليبية الثالثة ، اخطر الامبراطور اسحاق بعزمه على اجتياز اراضى فطلب السماح له بالمرور (٢) ، وتعهد البيزنطيون باقامة اسواق ليفيد منها الصليبيون ، وتكفلوا بتقديم ما يلزم لنقلهم عبر البوسفور الى الشاطئ.

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٣٧

(٢) Grousset: op. cit. Tome III P. 13, 14

Ostrogorsky: op. cit P. 160

الاسيوى ومع ذلك فانهم لم يلبثـــوا أن طلبوا رهائـــن كيما يكفلـــوا السلوك الطيب من الجرمان ، هذه المناقـــة .

التى تخالف ماسبق للبيزنطيين أن دربـــوا عليـــه ، دلـت على أن اسحـق لازال يفكـــر فى اتخاذ اجراء عدائى ، فلم يدرك فحسب انه قد يـــــد الالتزام بصلاح الدين ، بل انه كان ايضا يخشى ما تتعرض لـــه عاصمتـــه من مهاجمة من قبل قوات بربروســـة ، انتقاما لما سبق أن وجهـــه مانويـــل من اهانات عديدة الى بربروسه ، ولما جرى من مذبحة فى اللاتين (١١٨٢م) وقبل مسير بربروسه (١١ مايو ١١٨٩) أرسل أسقف مونستر ، وصحبتـــه جماعة من كبار الاعيان الالمان ليخطروا اسحاق بقرب وصولـه (بربروســـه) الى القسطنطينية ،وحوالى منتصف يونية ، وصلت هذه السفارة الى القسطنطينية ولم تلبث أن جـــرى حبسها وسجنها ، والراجح أنه تم ذلك بناء على الحـاح ممثلى صلاح الدين ، وكيفما كان الامر ، فان ما كان لسفراء بربروسه مـــن خيول وأمتعة ، تقرر منحها للمسلمين . على أن اسحاق ، بما لجـــأ اليه بطريق غير مشروع ، من اعتقال سفراء بربروسه ، ارتكب جريمـــة ازاء بربروسه وحملته الصليبيـــة .

وفى الوقت الذى قبض فيها الامبراطور اسحاق على سفارة اسقـــف مونستـــر ، ارسل مبعوثين من قبلـــه الى صلاح الدين[1] ،ومن الواضـــح

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P 360
Grousset: op. cit. Tome III . P. 13

أن الغرض من ذلك التصديق على المحالفة وصل الرسل الى صلاح الدين في أغسطس سبتمبر ١١٨٩ ، وهو يحرز عون بالشام ، وبالاضافة الى ما هو معروف عند اللاتين من شروط ، جرى اضافة شرط يتعلق بالقيام بهجوم مشترك على قبرص والراجح أنه جرت مناقشة ما سوف تلجأ اليه بيزنطة مستقبلا من اخضاع سلطنة الروم ، ولعلها أيضا كانت تزمع الاستيلاء على أرمينية الصغرى وأنطاكية ، فلن يستطيع أن يعرض نفسه لغارات وهجمات الجيش الصليبي ، الا اذا كان قد حصل على وعود محددة . واذ خشى صلاح الدين بربروسه ، لم يتردد في أن يبذل لاسحاق من الأراضي ماليس بحوزته مقابل تدمير الجيش الالماني (١) . وطلب البيزنطيون من صلاح الدين أيضا أن يبعث لهم ببعثة من علماء الدين ، بدلا من التي وقعت في أيدي الجنويين ، لاقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي في جامع القسطنطينية ومن الطبيعي أن يحرص صلاح الدين على الاستجابة لهذا الطلب ، ولهذا أرسل بصحبة السفير اماما ، ومنبرا وطائفة من المؤذنين ، والقراء لتلاوة القرآن . وجرى الاحتفال باستقبالهم استقبالا باهرا ، وجرت أول خطبة وشهدها عدد كبير من تجار المسلمين ورحالتهم . (٢)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣١٧ ، ٥٨٥ ، ابو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

ولما مات بموت اسحاق فى الشام ،والراجح أن وقع ذلك فى أواخر صيف سنة ١١٨٩ ، أوفد سفيرا ثانيا ، لهتم المفاوضات ، كان اسحاق يأمل فى أن يحصل على مساعدة حربية من صلاح الدين ، لأن فردريك بربروسه لن يجد عناء شديدا فى معالجة ما صادفه من قوات بيزنطية ،وأدرك الامبراطور أن أخبار هذه الاحداث سوف تبلغ فصلا الشام غير أن حرب العصابات التى قام بها البيزنطيون ، عرقلت – الامبراطور الالمانى منذ أن دخل الى الامبراطورية عند ففى الجهات المتدة من نيش الى صوفيه ،نجح فردريك فى أن يطرد جيشا بيزنطيا من استحكاماته ، وبالقرب من فيليبوبولس ، أنزل الهزيمة مرة أخرى بقوات اسحاق (١) . وما كاد بربروسه يتأكد عنده خبر اعتقال سفارة اسقف مونستر ، حتى تعاهد بأنه سوف يرغم البيزنطيين على اطلاق سراح هذه البعثة بالاغارة عن تراقيا ، وعلى الرغم من أن – الاسقف ورفاقه قد اطلق سراحهم حوالى ٢٠ أكتوبر سنة ١١٨٩ م ، ظل اسحاق على ولائه لصلاح الدين ولم يسمح للالمان باجتياز بلاده الى آسيا (٢) . وعندئذ أمر فردريك بربروسه على غاراته ، فاستولى على أدرنه بل انه أعد خطة لحصار القسطنطينية (٣) ،ولم ييأس الامبراطور البيزنطى من الحصول على

---

(١) Runciman: op. cit. vol. III. P. 13,14

(٢) Grousset: op. cit. Tome III. 12,13

(٣) Ostrogorsky: op. cit. P 361

مساعدة من قبل المسلمين حتى فبراير سنة ١١٩٠ حين حلت به الهزيمة ، ووافق على معاهدة أدرنه ، التي تقضى بأن يسمح اسحاق للامبراطور الالماني ، بشراء المؤن من الاسواق وبالعبور الى آسيا الصغرى) وان يقدم من الرهائن ما يكفل ضمان السلوك الطيب من قبل البيزنطيين [١] .

وفى ضوء ما أحرزه فردريك بربروسه من انتصارات ، كانت رسالة اسحاق المؤرخة حوالى ديسمبر ١١٨٩ ، والتى أنفذها مع الرسول المتوفى ، الى صلاح الدين ، أثناء الحصار على عكا ، خليطا من الأسى ، والتهديدات الجوفاء وبالتظاهر بالشجاعة ، والتوسلات بأن يقوم صلاح الدين بأعمال ايجابية . ونص هذه الرسالة ، التى لا شك فى اصالتها ، والتى أوردها أحد رفاق صلاح الدين فى مؤلفه عن سيرته [٢] ، تكشف ما انتاب اسحاق من مخاوف فى لحظة حرجة أثناء قيام المحالفة [٣] : وهذا هو نص الرسالة : لاهميتها بالنسبة لمستقبل العلاقات البيزنطية الاسلامية " قدم الرسول بخطاب عن موضوع تجرى الاهتمام به ، وفيما يلى وصف لهذه الوثيقة ، اذ أنها خطوط عريضة طويله ، غير أنها تزداد ضيقا بين الخطين على ماهو معروف فى بغداد من الكتابة ، ووردت الترجمه فى القسم

---

(١) أسد رستم : الروم ص ١٧٢

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٥

(٣) Lane-Poole: op. cit. P 265

الثانى ، من الورقة فى باطنها وظاهرها ، وجرى اثبات الخاتم بين القسمين ، وكان
هذا الخاتم من الذهب ، انطبع عليه صورة الملك ، ويزن خمسة عشر دينارا ، وجرى
شطرا الكتاب كما يأتى " من ايساكيوس (اسحاق) الملك ، خادم المسيح ، المتوج
بفضل الله ، الامبراطور المظفر دائما المجيد ، والذى يحكم باسم الله ، الذى
لايقهر ، طاغية اليونانيين ، انجيلوس ، الى عظمة سلطان مصر ، صلاح الدين ،
خالص المحبة والود ، وما أرسلته سيادتكم من رسالة الى جلالتنا ، وصلت بسلام ،
لقد طالعناها ، ووقفنا منها على وفاة رسولنا ، وسببت هذه الوفاة لنا كدرا
شديدا ، ولا سيما لأنه مات فى أرض أجنبية ، دون أن تتم ما عهدت به اليه
امبراطوريتنا من ، وكان لابد أن يتدارسه مع سيادتكم ، ولاشك أن سعادتكم انما
تقصدون بأن تبعثوا الينا سفيرا لينهى الى امبراطوريتنا ما اتخذ من قرار يتصل
بالمهمة التى كلفنا سفيرنا الراحل باعدادها ، وما تركه من متاع أو ما يصح اكتشافه
بعد وفاته ، لابد من ارساله الى امبراطوريتنا حتى يصح تسليمه الى أبنائه
واقاربه ، وليس فى وسعى أن أعتقد ان سعادتكم سوف تستمعون الى التقارير
السيئة عن مسير الالمان فى املاكى ، وليس مايدعو الى الدهشة ، ان اعدائى
سوف يذيعون الاكاذيب لتحقيق أغراضهم ، فاذا أردت أن تعلم الحقيقة ،
فسوف أخطرك بها ، فما يعانون من المشاق والارهاق يفوق ما يسومون به
الفلاحين ببلادى من العذاب ، اذ ان خسارتهم فى المال والخيل

والرجالة ، كانت بالغة الفداحة ، اذ فقدوا عددا كبيرا من الجند ، ولم يفلتوا من جندى الشجعان الا بصعوبة ، وحل بهم من التعب والارهاق أنهم لم يكن بوسعهم الوصول الى ممتلكاتك ، بل انهم اذا نجحوا فى الوصول اليها فليس فى وسعهم أن يبذلوا المساعدة لرفاقهم ، ولن يلحقوا بسيادتكم ادنى ضرر ، فاذا جرى الامعان فى هذه الأمور ، فانى لشديد الدهشة ، لما حدث من اغفالكم علاقتنا الطيبة السابقة ، وانكم لم تؤدوا لامبراطوريتى شيئا من خططكم ومشروعاتهم حتى ليبدو أن النتيجة الوحيدة لصداقتى معكم ، انها جرت على كراهية الفرنج وكل اجناسهم ، فيتحتم على سعادتكم ان توفوا بما ورد فى رسالتكم ، من نية ترمى الى أن تبعثوا الى بسفير يخطرنى بما اتخذتموه من قرار ، فى الامر ، الذى بعثت اليك رسالة عنه منذ زمن طويل ، فليجر ذلك بأسرع مايكون وانى لأرجو الله ، أن قدوم الالمان ، الذين سمعت عنهم روايات عديدة ، سوف لايكون له وزن عندك ، فما اتخذوه من خطط وأغراض سوف تؤدى الى اضطرابهم ، تحرر فى سنة ١٥٠١ ، من التقويم السيلوقى عالموافق اول سبتمبر ١١٨٩ — ٣١ أغسطس سنة ١١٩٠ (١) .

---

(١) لا شك فى صحة هذه الرسالة ، لا فحسب فى وصف ما ورد فى الخطاب من عبارات التحية وما اشتملت عليه من الاقناع ، بل ان الفاظ الرسالة وجرسها تمتيز من عبارات اسحاق انجيلوس ، وأما التقويم السلوقى فكان شائع الاستعمال عند الجانبين ، أنظر : ابوشامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٥٩ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٦

وما تردد في الرسالة من الشكوى وخيبة الأمل ، وما جرى من ترديد المطالب ، للوقوف على أغراض صلاح الدين ، وما انطوت عليه من عبارات عما اذا كان الصليبيون سوف ينجحون في الوصول الى الشام ، كل ذلك زاده شعور اسحاق بفشله في تدمير بربروسه [١] ، وكراهيته الشديدة لما لجأ اليه صلاح الدين من التسويف ، وفي فبراير — ابريل ١١٩٠ ، وفي نفس اللحظة التي عقد فيها الصلح مع فردريك ، وسمح له باجتياز الهواعنر ، كتب اسحق للمرة الثانية ، يذكر صلاح الدين ، بأنه أعاد الخطبة للخليفة العباسي في مسجد القسطنطينية ويؤكد من جديد صداقته للمسلمين ، وشرح ايضا بأنه اضطر الى أن يسمح لفردريك باجتياز بلاده ، غير أنه اعلن أن الامبراطور الالماني وجيشه لن يستطيعوا القتال اذا وصلوا الى الشام [٢] . " لقد اتبع الامبراطور كل انواع الخداع والغش أثناء سيره ، وما تعرض له من متاعب ، وما تعرضت له مجه من النقص ، كل ذلك اضعفه وأقلقه . فلن يبلغ بلادكم في صورة سليمة ، فسوف يجد قبره هنالك ولن يعود الى بلاده ، وسوف يقع فريسه في الشرك الذي نصبه [٣] .

كرر اسحاق انه فعل كل مافي وسعه لتحطيم جيش بربروسه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٢٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٦–٢٤٧

(٢) ابوشامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٥٩

(٣) Lane-Poole. op. cit. P 565
Grousset: op. cit. Tome III. P. 13.

وألح على صلاح الدين أن يبعث اليه رسولا يحمل الردود على المطالب البيزنطية . ووفقا لرواية عماد الدين الكاتب ، اشتد تأثر السلطان ، واتخذ قرارا يتفق مع رغبات اسحاق . والراجح أن هذا لا يعنى سوى أن صلاح الدين أرسل سفارة جديدة الى القسطنطينية (١) .

وفى تلك الأثناء ، غادر فردريك بربروسه اراضى الامبراطورية البيزنطية ، واجتاز آسيا الصغرى الى قونية ، عاصمة سلطنة سلاجقة الروم . وهذه المدينة ، التى صمدت اسوارها لمانويل كومنين ، اقتحمها فردريك دون عناء (٢) ، فتبين لصلاح الدين أن ما زعمه اسحاق انجيلوس عن تدمير الجيش الصليبى ، انما هو من قبيل الخيال والوهم ، أما تقدير فردريك عن خسائره فى تراقيا ، التى تبلغ حتى ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩ نحو مائة رجل بعد حرب عصابات امتد نطاقها بعد الغارات على المدن البيزنطية ، وبعد أن وقع اشتباكان مع جيش اسحاق فانه دل على أن اسحاق لم ينفذ الا قليلا من خطته التى وضعها لتدمير الصليبيين (٣) . ومع ذلك فان بربروسه أقر بأن خيوله تناقص عددها ، وما كان من تداعى هجمات اسحاق على الجيش الالمانى الصليبى ، وقف عليه صلاح الدين

---

(١) نقل ابوشامة فى كتاب الروضتين ١٦٠ باختصار ما أورده رواية العماد الكاتب فى شأن هذه الرسالة . وما احتوته الاجزاء الاخرى من هذه الرسالة يدل على انها تختلف عن الرسالة السابقة المؤرخة فى ديسمبر ١١٨٩ .
ابوشامه : الروضتين. ١٦٠

(٢) Runciman: op. cit. Vol III P. 15.
Ostrogorsky: op. cit. P. 320

(٣) ابوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٠

من التقارير التى وصلته عن سيرهم فى آسيا الصغرى • ومن أشهر هذه التقارير
الرسالة الواردة من بعض أسقف أرمينية ، وهو من الذين انحازوا الى صلاح الدين
بسبب ما يكنه من الكراهية لارمينية الصغرى ، التى يحكمها بيت روبين الموالــى
للصليبيين ، على أن الاسقف اورد رواية حافلة بالمبالغة والمغالاة عن قوة الجرمان
وحسن نظامهم وصبرهم على تحمل الشدائد ، وعرض المؤرخون العرب فى ذلــك
العصر لما اثاره تقدم بربروسه (١) فى معسكرهم من الخوف ، وفى يونيـــه
سنة ١١٩٠ م غرق فردريك عند حدود اقليم روبين ، وتلى ذلك مباشرة تفرق جيشه (٢)
ثم فى صيف ١١٩٠ أرسل اسحاق مرة اخرى الى صلاح الدين رسولا لصلاح الديــن
يحمل هدايا ورساله شفويه واستقبله العادل اخو صلاح الدين ووزير خارجيته وكــرر
فى رسالته جهوده ضد الصليبيين وفى وجه الدعوة للحملات الصليبية عــلى
أن صلاح الدين توافر لديه من التقارير ماتفيد بأن الامبراطور البيزنطى يبذل كــل
ما يستطيعه لتحطيم الالمان وكان يقصد بذلك أيضا حماية بلاده من الصليبيين ، بينما
يزعم انه يعمل لصالح المسلمين • أما بطريركية بيت المقدس ، التى اســتندت
الى الامبراطور البيزنطى وقتئذ واعتمدت عليه ، فجرت الرواية أن اسحاق اخطــر
اللاتين من قبل بأن اشرافه وسيطرته عليها ، لن يستمرا الا ريثما يتولــى
البطريركية رجل من اتباع امراء الغرب ، وبهذه الدعوى زعم اسحاق انه ابعـد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٠ ــ ابوشامه : الروضتين ج ٢ ص ١٧٧
(٢) Grousset: op. cit. Tome III. P. 12, 13
(٣) ابوشامه : الروضتين ج ٢ ص ١٧٧

عن شخصه خطر اللاتين ، ولا سيما بعد أن استقرت فى القسطنطينية الخطبة للخليفة العباسى ، ووفقا للقاضى الفاضل رفض صلاح الدين آخر الأمر ، كل طلبات البيزنطيين ، وقد أوضح القاضى الفاضل أن الامبراطور البيزنطى سبق أن طلب من صلاح الدين أن يجعل له الاشراف على بيت المقدس أو يشترك معه فى الهجوم على قونيه (١) وعلى الرغم من أن الامبراطور شرع من جديد فى أن التماس حلفاء فى الغرب ، بسبب ازدياد قوة هنرى السادس الهوهنشتاوفن فانه لم ييأس ابدا من ان صلاح الدين سوف يوفى بوعوده (٢) . ففى ١٥ مايو ١١٩٢ ، وصل الى بيت المقدس رسول من القسطنطينية ، وبعد يومين استقبله صلاح الدين ولم تكن طلباته الا تكرارا لما ورد من نصوص فى المعاهدة التى جرى الزعم بوجودها فعلا ، واشتملت هذه النصوص على المطالب المتعلقة بالصليب المقدس (قطعة من الصليب) الذى استولى عليه صلاح الدين ، وأملاك الكنائس الارثوذكسية فى بيت المقدس (التى فكر صلاح الدين فى أن يتنازل عنها للاتين ثمنا لرحيل وتشرد قلب الاسد) ، واجراء محالفة دفاعية هجومية بين البلدين ثم القيام بحملة بحرية مشتركة ضد قبرص ، وعلى الرغم من الزعم بأن صلاح الدين رفض هذه الشروط ، وصح انه اعطى الرسول قطعة من الصليب المقدس) ، فانه انفذ رسولا الى القسطنطينية ، لمراجعة الشروط سنة ١١٩٢

---

(١) Runciman: op. cit. vol III. P. 29.

(٢) Grousset: op. cit. II. P. 748.

أى فى العام الذى سبق وفاته .

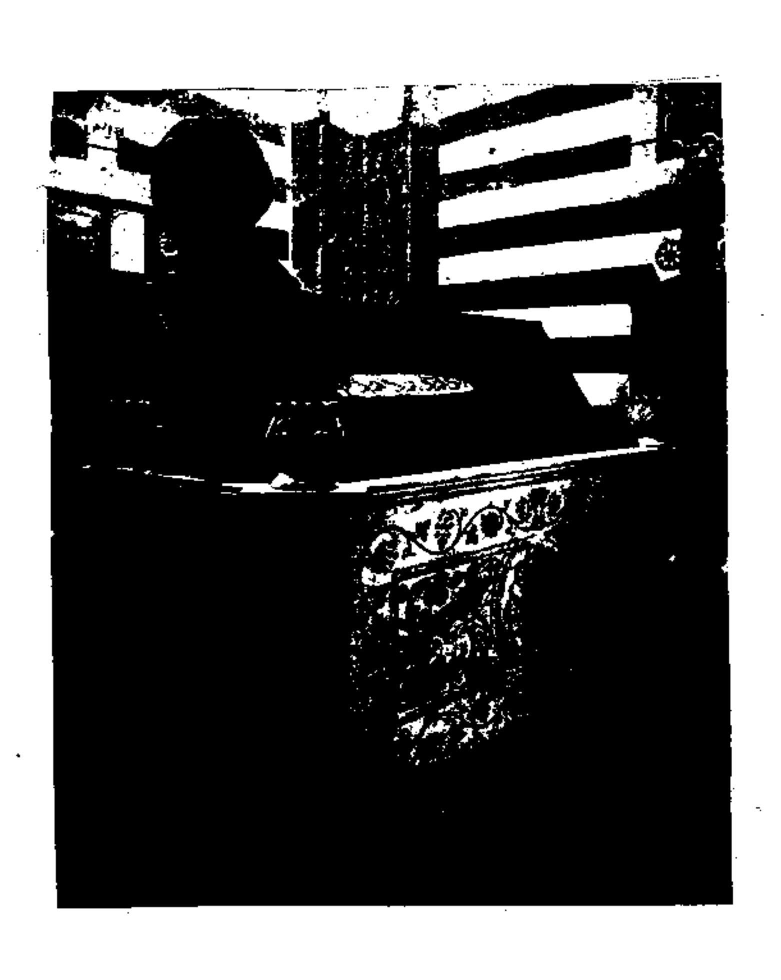
ويشير المقريزى الى ذلك فى حوادث سنة ٥٨٩ هـ فيقول : " وفيها قدم رسول متملك القسطنطينية يطلب صليب الصلبوت ، فاحضر من القدس وكان مرصعا بالجوهر ، وسلم اليه على أن يماد ثغر جبيل من الفرنج ، وتوجه الامير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك [1] .

وأرسل صلاح الدين مع سفيره ، ما جرت العادة به ، من الهدايا القيمة : ومنها الخيول ، وحيوانات بريه وأليفه ، وسرج الخيل المطهمة بالتحف واللآلئ [2] . وفى اواخر الصيف او فى مستهل الخريف ارتحل السفيران البيزنطى والايوبى الى القسطنطينية على سفينة بندقية ، يمتلكها احد الافراد اسمه بوردانو وحدث أن التقت السفينة بالقرب من جزيرة رودس بأسطول للقرصان الجنويين والبيازنة ، بقيادة الذى جعل من نفسه مصدر رعب للمنطقة . فتم استباحة السفينة البندقية ، وتعرض للموت رسولا اسحاق وصلاح الدين ، كما استولى على قطعة الصليب المقدس أحد البيازنة ، واسمه فورتى فحملها الى حصن البيازنة فى بونيفاكيو على ساحل جزيرة فورسيفه ، حيث استولى عليها سنة ١١٩٥ م أحد الجنويين ، فأضافها الى المقدسات الدينية المحفوظة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٢٠

(٢) Runciman: op. cit. vol III. P. 74



بالمدينـــة (١) .

وفي نوفمبر سنة ١١٩٢ ، رفع اسحاق الشكوى الى جنـوه وبيـــزا ، عن هذا الحادث ، وغيره من اعمال القرصنة ، ويبدو أنه حصل من جنـــوه على تعويض عما تعرض له من خسائر مالية . على أن علاقات الامبراطوريـــة البيزنطية بصلاح الدين انتهت عند هذا الحادث ، اذ انخدع صلاح الديـــن في كفاية اسحاق الحربية ، بينما ادرك اسحاق أن صلاح الدين يبلغ مـــن البعد عنه مالم يتيسر له أن يحميه من اللاتين (٢) .

ولما مات صلاح الدين ١١٩٣ ، لجأ الامبراطور اسحاق الى تغيير سياسته فعقد محالفات مع جنوه وبيزا ، والبابا ، والنورمان في صقلية ، وكان يأمل مـــن ورائها ، أنها تريحه من ارتكانه السابق على المسلمين (٣) ، والخلاصة ان الفـترة الواقعة بين سنة ١١٨٥ ، ١١٩٢ كان التحالف فيها مع صلاح الدين ، يعتبر حجر الزاوية في سياسة بيزنطة الخارجية . اذ أن الامبراطورية البيزنطيـــة ارتكنت الى قوة المسلمين ، في سوريا ومصر ، لمواجهة مايكنه لها من العداء النرمان ، والبيازنه ، والجنويون ، والامبراطور الالماني والبابا والواقـــع أن اسحاق انجيلوس بصفة خاصة ، استمد من هذا التحالف من الشعور بالثقـــة والاطمئنان ما ادى آخر الامر الى وقوعه في مشاكل عديدة اذ أن عداءه للامبراطور بربروسه نشأ اساسا من هـــذه المسألة ، فكيـــما يفـــي بما الــــتزم

---

(١) Runciman: op. cit. vol III. P. 63

(٢) Runciman: op. cit. vol III. P. 65

(٣) اسد رستم : الروم ص ١٧٢

به فى المعاهدة ، كان لزاما عليه أن يقاوم كل جيش صليبى يجتاز اراضيه وما كان يأمله من جزاء ، مقابل ذلك ، لم تكن سوى الاهداف التى تطلع اسحاق وآل كومنين الاول لتحقيقها ، وهى استعادة قبرص واسترجاع الاراضى المقدسة (١) ، واعادة حدود آسيا الصغرى الى ماكانت عليه فى القرن العاشر الميلادى ، وترتب على فشل التحالف مع صلاح الدين ، ان تغيرت السياسة نهائيا ، واتخذت صورة التقارب مع الدول الصغيرة فى الغرب لمواجهة اطماع الامبراطور هنرى السادس ، التى اخذت فى الازدياد والنمو (١) .

كان للتحالف البيزنطى الاسلامى اثر كبير فى مجرى الاحداث بالشام ، من ذلك انها عجلت باستسلام بيت المقدس ، على الرغم من ان احوال المدينة بلغت من السوء ما جعلها عاجزة عن الصمود لقوة المسلمين المتزايدة ، ولو أن حملة بربروسه وصلت فعلا الى الاراضى المقدسة ، بكامل قوتها ، وجودة نظامها وتدريبها ، لتغير الموقف ، غير أن تدميرها لم يكن بحال من الاحوال من اعمال اسحاق ، فان اقوى ما قام به من هجمات لم تؤثر فيها ، فقد عانى الصليبيون من المناخ والطرق مايزيد كثيرا على ماعانوه من الامبراطور ، ولم يحصل الامبراطور من وراء التحالف مع صلاح الدين الا على مزايا مادية ضئيلة ، فعلى الرغم من انه صار فى حوزة الارثوذكس ، بعض كنائس الارض المقدسة ،

---

(١) Cibbons: op. cit. Vol. VI P. 406

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 368

فان قبرص ، التى استولى عليها اللاتين ، اصبحت قبيل وفاته حليفا لـــــه ، وبقيت قونية فى أيدى المسلمين . ولم تغير المحالفة مع صلاح الدين ، برغــم ماكان لها من اثر على وضع الامبراطورية بالشرق الا شيئا ضئيلا [1] . أمـــا النتائج السيئة للتحالف مع المسلمين على سمعة البيزنطيين ، فاستمرت زمنـــا طويلا . فالواضح أن اللاتين فى سوريا ازعجهم هذا الترابط ، وسعوا الـــى التشهير به فى سائر انحاء أوربا . اذ أن فردريك بربروسه ، اثناء اجتيـــازه تراقيا ، بعث الى ابنه هنرى يطلب اليه أن يحث البابا على أن يدعو لحـــرب صليبية ضد البيزنطيين . وما حدث من حرص ريتشارد قلب الاسد وفيليـــب اغسطس والحملات الصليبية المتأخرة ، على اتخاذ الطريق البحرى ، كـــان شديد الارتباط بعلاقات اسحاق مع المسلمين [2] ، ولا شك أن ذكرى هـــذه السياسة تأثر بها رجال الحملة الصليبية الرابعة ، اذ جرى استخدامهـــا للتشهير بالامبراطورية الشرقية (البيزنطية) . فطوال القرن الثانى عشـــر ، فى زمن الحملة الصليبية ، سنة ١١٠١ وفى أثناء النضال بين بوهمند وبـــين الكسيوس كومنين ، وبعد الحملة الصليبية الثانية جرى تحطيم كل ما لصـــق بالبيزنطيين من التهم ، التى تشير الى ممالأتهم للمسلمين ، أما فى هـــذا

---

(١) Gibbon: op. cit. vol VI P. 374

(٢) Runciman: op. cit. vol III P. 13,14

المثال الاخير (التحالف بين اسحاق وصلاح الدين) فان هذه التهم لقيت التهويو ، اذ أن المحالفة ادت الى التداعى الظاهرى فى مكانة الامبراطورية والتقدير الذاتى لها ، فمن ناحية النظريات السياسية قلما اعترفت بيزنطة بدولة أنها ند لها منذ زمن الساسانيين لأن الامبراطورية الرومانية ليست الا اداة ـ اختارها الله ، لنشر المسيحية فى العالم وادارته ، وما من دولة تستطيع أن تقترب منها الا على أنها خادم تابع ذليل ، ولما حاول الاباطرة البيزنطيون التماس صداقة صلاح الدين ، سعوا الى ان يبقوا على هذه الصورة ، مثلما حدث حينما طلب اندرونيكوس من صلاح الدين أن يبذل له الولاء ، وحينما أرسل اسحاق تاجا ، يقترن بتصريح ينطوى على فكرة أن بيزنطة لا زالت تحتفظ بحق منح الالقاب الشرعية أو منعها ، ولما تجاهل صلاح الدين هذه الامور أو انكرها ، فان واقع الموقف وحقيقته لم تلبث ان الزم بيزنطة بأن تتخذ وضع التابع الذليل ، نظرا لأنها اضعف شأنا ، وقبل اسحاق كرها ما أنزله الصليبيون والجرمان من الخراب باراضيه ، لما كان يأمله من ان ـ صلاح الدين سوف يكافأه على انه خدمه باخلاص[1] ، لم تجد كل محاولة للتوفيق بين دعاوى البيزنطيين وواقع الامور السياسية ، فدعوى السيطرة جرى اغفالها ، حينما تضاءل كبرياء اندرونيكوس ، وليس ادل على ذلك من أن المؤرخ البيزنطى نكيتاس لم يشر الى التحالف مع صلاح الدين ، على الرغم من أنه كان من

---

(١) Ostrogosky: op. cit. P 360

كبار موظفى الدولة البيزنطية ، ولابد انه وقف على كل ما يعتبر معروفا بصفة عامة فى الغرب .

وهكذا فشل التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، ضد العدو الدخيل (اللاتين) . اذ كان صلاح الدين من البعد مايجعل من العسير عليه ان يحمى اسحاق من اعدائه ، ولم تكن احوال البيزنطيين تسمح لهم بابداء مقاومة عنيفة للصليبيين . أما تقدير المسلمين لقيمة هذا التحالف فظهر فى صراحة فى رسالة القاضى الفاضل التى حررها حينما كان جاى ملك قبرص حليفا لصلاح الدين ، بقوله : " ينبغى ألا يجعل مفاوضاتنا مع حاكم القسطنطينية ، فيما يتعلق بالمساعدة التى لابد أن تبذلها له لمهاجمة قبرص ، لأننا لم نعده بهذه المساعدة الا حينما كانت البلاد (قبرص) فى ايدى اعدائنا ، والواقع ان الملك اليونانى لم ينجح مطلقا فى حملاته ومعاركه ولم نجن شيئا من صداقته ، ولن تخيفنا عداوته " (١) .

وتقدير اسحاق لقيمة هذا التحالف اشد غموضا اذ " يبدو لامبراطوريتى أن النتيجة الوحيدة التى نجمت عن صداقتى لك ، انها جرت على كراهية الفرنج بجميع أجناسهم " (٢) وما حدث من التحالف مع صلاح الدين

---

(١) ابوشامة : الروضتين ج ٢ ص١٧٨
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢١٠

زاد فى كراهية الغرب للبيزنطيين ، والتى بلغت ذروتها فى تحول الحملة الصليبية الرابعة ، واستيلاء اللاتين على القسطنطينية ، وما حدث من تحول اسحاق ، القيام بدور ثانوى فى محالفته هيأ الطريق مرة أخرى ، الى هبوط مكانة امبراطورية كانت عظيمة ، فصارت دولة صغرى فى شرق البحر المتوسط .

(الفصل الخامس)

بيزنطة وخلفاء صلاح الدين

١١٩٣ – ١٢٥٠م

الدولة الايوبية بعد صلاح الدين ـ العلاقة بين بيزنطة وخلفاء صلاح الدين ـ الحملة الصليبية الرابعة وتحولها الى القسطنطينية ـ سقوط القسطنطينية ـ انقسام الامبراطورية البيزنطية ـ امبراطورية نيقية البيزنطية ـ امبراطورية طرابيزون البيزنطية والسلاجقة ـ الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ـ سياسة الايوبيين مع السلاجقة ـ الايوبيون والحملة الصليبية السابعة .

الدولة الايوبية بعد صلاح الدين :

حينما مات صلاح الدين ، في ٤ مارس ١١٩٢ ، تمزقت الوحدة التي فرضها في امبراطوريته بفضل قوة شخصيته وسلطانه ، وأضحت كل الاقاليم باستثناء الكرك ، مستقلة ، وترتب على ذلك أن صار لبلاد الشام بناء سياسي من نوع خاص اذ اصابها من الانقسام ، ما اتصف به قبل زمن السلاجقة ، وما حدث من الاضطرابات التي ولدتها المنازعات في البيت الايوبي ، وأطماع بعض افراده وحرص اميري حلب ودمشق على المحافظة على استقلالها من أطماع اقاربهما الاقوياء في مصر والجزيرة ، كل ذلك جعل هذه المرحلة من تاريخ الايوبيين تتسم في الظاهر بالفوضى والاضطراب ، على أن ما يجعل لهذه المرحلة شيء من التماسك ما اتصفت به الاسرة الايوبية فضلا من الترابط ، الذي زاده قوة ومتانة ، ما حدث من المصاهرات التي انعقدت بين افراد الاسرة ، وما كان للادارة التي تتسم بالروح الدينية من تأثير قوي ، بفضل تمسكها بتقاليد نور الدين وصلاح الدين (١) .

ومن السمة البارزة في السياسة الايوبية ـ المحافظة على علاقات

---

(١) Setton: op. cit. vol II. P. 644

المسالمة والمهادنة مع امارات الفرنج فى الشام ، ولم يحدث الا قليلا أن اتخذ الايوبيون خطة مهاجمة الفرنج (١) .

ومن عوامل الاستقرار ايضا ما كان يحدث فى كل جيل من ظهور زعيم قوى فى الاسرة ، كان يظفر فى الوقت المناسب بفرض سلطانه على سائر الامراء الآخرين على الرغم مما تعرض له فى الاجيال المتتالية من مقاومة عنيفة . ففى الجيل الاول كان العادل ايوب شقيق صلاح الدين هو المسئول الاول عن كيان الايوبيين . والمعروف أن العادل كان أعظم مستشاري صلاح الدين ، وكان اقوى افراد الاسرة ، بعد صلاح الدين وأكثرهم كفاية . فلم تكن مكانته فحسب راجعة الى مناهضة ابناء صلاح الدين صغار السن ، والذين افتقروا الى الخبرة والتجربة ، بل لدرايته التامه بأحوال الامارات الداخلية ، نظرا لأنه تولى ادارة مصر وحلب والكرك فى أزمنة مختلفة (٢) .

وفى السنوات الستة التالية لوفاة صلاح الدين أمد العادل سلطانه الى الشام ومصر وحرص على توطيده ، ولما اشتهر به العادل من الكراهية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص٣٧٨
Setton: op. cit. vol II P. 695

(٢) ابوالفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص١١٠

للحرب جمل من الدبلوماسية والتآمر اهم الاسلحة عنده ، وما وقع من المنازعات والمخاصمات بين أولاد صلاح الدين هيأ له أوسع سبيل لاستخدامهما (١) .

وفى ٤ أغسطس سنة ١٢٠٠ صار العادل سلطانا على مصر والشام واعترف بسلطنته سائر الامراء فى الاقاليم ما عدا الظاهر غازى امير حلب (٢) الا أنه لم يسعه الا الاعتراف بسلطنة العادل سنة ١٢٠٢ م بعد أن هدده بمحاصرة حلب (٣) . وما حدث من اخضاع املاك الفرنج المتاخمة ، لا سيما فى الجنوب ، ابعدت كل خطر حقيقى عن قواتهم المحلية . والخطر الوحيد الذى يصح الخوف منه ، هو احتمال قدوم حملة صليبية جديدة من جهة البحر . وكانت مصر اهم ما يشغل بال العادل ، شأنه فى ذلك شأن صلاح الدين . وظلت العساكر على اهبة الاستعداد فى مصر ، واذ خشى ما قد يقوم به الصليبيون من غارات جديدة ، تنازل للصليبيين عن يافا والناصرة سنة ١٢٠٤ وعقد معاهدات تجارية مع ايطاليا .

العلاقة بين بيزنطة وخلفاء صلاح الدين :

الواقع أن للاحوال السياسية بأوربا الغربية تأثيرا كبيرا على اتجاهات

---

(١) Setton: op. cit. vol. II. P. 695

(٢) ابوشامه : الروضتين جـ ٢ ص ٢٣٧
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٤٩

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٥٩

السياسة البيزنطية ، ومن الدليل على ذلك أن ماجرى من اقدام اسرة انجيلوس على التحالف مع صلاح الدين وانتهاج سياسة موالية للشرق ، اثار المتاعب لبيزنطة . ذلك أن اباطرتهم لم يكن لهم من الطباع والخلال ما اتصف به اباطرة اسرة كومنين . فلم تكن سياستهم موالية للاتين ، بل ان اسحاق انجيلوس ارسل بعد وفاة صلاح الدين الى العزيز عثمان سفارات وكتبا دلت على استمرار المودة وأشار فيها الى اهتمامه بأمر الشعائر الاسلامية آخذ يوصية خيرا بالروم فى الدولة الايوبية (١) . واذ أضعف بيزنطة ما نشب بداخلها من حروب داخلية وحملاتها الفاشلة فى البلقان ، لم يعد بوسعها أن تناهض اطماع بيت هوهشتاوفن (٢) . وبازدياد تدهور وضع الصليبيين فى سوريا وفلسطين ، والفشل النسبى الذى حاق بالحملة الصليبية الثالثة ، اشتد الاهتمام بالامبراطورية البيزنطية (٣) . فما جرى من مخاصمات سياسيه ، وما وقع من منافسات تجارية ، وما حدث من الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية كل ذلك خلق وضعا جعل اشتراك الغرب فى قيام بهجوم على الامبراطورية البيزنطية أمرا وشيك الوقوع . فلم تكن الحرب الصليبية الثالثة الا ستارا لاطماع فردريك بربروسه الذى خطب لابنه وريثة مملكة صقلية . تمهيدا لاتحاد

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٢٩

(٢) Camb. Med. Hist. IV. P. 441

(٣) Setton: op. cit. Vol II P. 146-147

المانيا وصقلية تحت حكم اسرة واحدة [١] . وحينما تهيأ سنة ١١٨٨م للخروج اتصل بالامبراطور البيزنطي ، كيما ييسر له اجتياز بلاده ، كما وطد علاقته بسلطان سلاجقة الروم في قونية ، وتحالف مع بلغاريا ، في عداوتها لبيزنطة ، ولما لم يكن بوسع اسحاق انجيلوس أن يساند الحركة الصليبية تجهز فردريك بربروسه لمهاجمة اسحاق الذي تجرد من الكياسة الدبلوماسية ، وأساء أستخدام الموقف . وكتب فردريك الى ابنه هنرى بأن يبعث بأسطول لمهاجمة القسطنطينية من جهة البحر . فلم يسع الامبراطور اسحاق انجيلوس الا أن يقبل شروط فردريك ، ووقع معاهدة ادرنه ١١٩٠ م ، وهذا توقع فردريك بربروسه ما وقع سنة ١٢٠٤ مبين احداث [٢] .

أعد هنرى السادس من فردريك بربروسه حملة صليبية جديدة لفتح القسطنطينية والاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية ، قبل المضى

---

(١) Setton: op. cit. Vol II. P. 147

(٢) Setton: op. cit. vol II. P. 148

(٣) Camb. Med. Hist vol IV . P. 411

الى سوريا وفلسطين ، ولم يسع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣) الا المبادرة بتلبية مطالب هنرى ، التى اقتضت تأدية اتاوة باهظة. ومع ذلك كان هنرى حريص على توطيد مركزه فانتمى اليه ملكا قبرص وارمينيه الصغرى .

ولم ينته الخطر الا بوفاة هنرى الفجائية سنة ١١٩٧ .[١] على أن القوات الصليبية لم يوجهها للافادة من متاعب بيزنطة سوى البندقية ومطامعها . فمـا كان من تمزق الامبراطورية البيزنطية وانقسامها ، هيأ الفرصة لتفوق البندقية البحرى وللقيام بهذا العمل ، فى القرن الثالث عشر[٢] . فلم تكن الحملة الرابعة مفاجأة للدوائر الدبلوماسية فى الغرب ، اذ أن الاحوال الداخلية للامبراطورية البيزنطية كانت شديدة الملائمة لهذا الهجوم ، فقد ازدادت الامبراطورية ضعفا فى عهد آل انجيلوس ولا سيما فى عهد اسحاق الذى انهارت فى عهده الامبراطورية البيزنطية ، وفقدت توازنها الاقتصادى ، ودب الفساد فى جهازها الحكومى ، وشهدت الثورة فى بعض النواحى ولا سيما فى بلغاريا[٣] واستغل الكسيوس انجيلوس شقيق الامبراطور هذه الفرصة فاستولى على العرش بعد أن عزل اسحاق واعتقل ابنه

---

(١) Settons op. cit. vol II P. 149

(٢) Camb. Med. Hist. vol IV. P. 411

(٣) Grousset: op. cit. Tome . III P. 17

الذى استطاع الفرار الى زوج شقيقته فيليب فى المانيا (١).

والمعروف أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تهدف الى الاستيلاء على بيت المقدس ومصر (٢) ، ولكن ماتعرضت له مصالح البندقية التجارية بالقسطنطينية من مناهضة ، اثار مخاوف البنادقة ، وادركت انه لاسبيل الى المحافظة على امتيازاتها الا بالاسهام فى القضاء على حكومة القسطنطينية ، فحرصت على تحويل اتجاه الحملة عن مصر الى بيزنطة (٣) ، هذا فضلا عن العداء الشخصى الذى يكنه الدوج الذى كان يتولى امر البندقية ، كما أن للبندقية علاقات تجارية واسعة مع مصر ، من مصلحتهم المحافظة عليها بل ان البنادقة عقدوا معاهدة ، مع السلطان العادل ، وأكد دوج البندقية أنه لا ينوى القيام بأى عمل او الاشتراك فى أى حملة موجهة الى مصر (٤) ، كما أن كراهية البندقية للامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث ، بلغت من المرارة انها اعتقدت انه لابد لها ان تنفرد بتجارة القسطنطينية ، يضاف الى ذلك ما أحس

---

(١) Runciman: op. cit. vol III. P. 111

(٢) Setton: op. cit. vol II. P. 151

(٣) كلاوى (روبرت) : فتح القسطنطينية ص٤٠

(٤) ارسل العادل رسل الى البندقية فأكد له رفضهم الاشتراك فى اى حملة تقصد مصر.
Runciman: op. cit. III. P. 112.

به البنادقة من تزايد نفوذ جنوة وبيزا فى بيزنطة [1] .

ومهما يكن من أمر فقد تعهدت البندقية بنقل الحمله ومدها بالمــؤن فى مقابل ٨٥ ألف مارك ونصف مايجرى فتحــه من البلاد [2] ، ولكن عجــز الصليبيين عن دفع القسط الاول بسبب وفاة كونت شمبانيا شجع البندقية علــى العمل لتحويل اتجاه الحملة من مصر الى القسطنطينية للاستيلاء على زارا [3] ، رغم اصدار البابا قرار الحرمان لكل من يستولى على ارض مسيحية ، وتقــرر استدعاء الكسيوس انجيلوس الذى كان يقيم عند زوج شقيقته فيليب امبراطــور المانيا ليكتسب الهجوم صفة شرعية [4] ، واغتنم رجال الحملة فرصة قلة الاقــوات وطلبوا ان تكون وجهة الحملة القسطنطينية ولقى هذا الطلب استجابة من مونتفرات قائد الحملة ومن عدد من الصليبيين فى حين عارضه آخرون ، رأى المؤيــدون انهم لن يستطيعوا المضى الى القاهرة أو الاسكندرية وبلاد الشام نظرا لنفــاذ ما معهم من وجود ذخيرة او اموال بعد ان انفقوا كل ماعندهم بسبب تأخيرهم ، فضلا عما بلغهم عن ثراء بيزنطة الذى بهر الغربيين ، ويشير روبرت كلارى أن فريقا عارض فكــرة المســير الى القســطنطينية قائــلا (ماذا سنفعــل فــى

---

(١) Runciman: op. cit. vol III. P. 113.

(٢) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥

(٣) Gibbon: op. cit. vol VI P. 419

(٤) Ostrogorsky: op. cit. P. 376

القسطنطينية ، لقد رسمنا خطتنا على أن نذهب الى القاهرة أو الاسكندرية خلال سنة واحدة ، وها قد انقضى من العام نصفه (١) ولكن ازاء اغراء دوق البندقية ووعوده للصليبيين بأنه سيمكنهم بعد استيلائهم على القسطنطينية من السير الى بيت المقدس ومصر ، تقرر عقد اتفاق بينهم وبين الكسيوس تضمن تعهد الامبراطور المطالب بعرش الامبراطورية بدفع ٢٠٠ الف مارك ، واعلان تبعية الكنيسة الشرقية للغربية ، وارسال عشرة آلاف جندى بيزنطى معهم لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت القدس ، كما تكفل بتموين جميع من يغادرون القسطنطينية الى الاراضى المقدسة ، وذلك فى مقابل تنصيبه على عرش الامبراطورية .

انسحب بعض القادة احتجاجا على انحراف الحملة عن غرضها الاساسى واتجاهها لمحاربة بلد مسيحى وانفصلوا عنها واتجهوا الى بيت المقدس ومن هؤلاء ريجنالد وسيرال ولكنهم كانوا قلة (٢) .

مضت الحملة لمحاصرة القسطنطينية وطلبت من الكسيوس التسليم بحق اسحق ولكن الكسيوس رفض ، ولم يكن بالشخص القدير ، ولم يكن جيش الامبراطورية قد استعاد قوته بعد هزيمة مانويل واصبح غالبيته مرتزقة فلم يصمدوا وهرب الامبراطور وسقطت القسطنطينية وتم تتويج الكسيوس وأباه انجيلوس فى مقابل وفائهما بما التزما به ، وحصلوا من الكسيوس على مائة الف مارك اقتسموها

---

(١) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥

(٢) Runciman: op. cit. vol III, P. 116

مناصفة ، وطلب منهم الكسوس فتح بقية الامبراطورية مقابل مكافأة مالية ضخمــــة ، وعاث بعض الصليبيين فسادا فى المدينة فأحرق بعض الفرنسيين الجامع المقــــام فى القسطنطينية الذى تبودلت بين صلاح الدين واندرونيكس واسحق الرســـائل بشأنه ، واستمر الصليبيون والبنادقة فى مطالبة الكسوس بالمال ، وكان الامبراطور استنفذ الاموال فى استرداد المدينة وطلب من الدوج الرحيل بينما ظل الــدوج يتهدده ويذكره بما له عليه من الايادى .

أخذ الامبراطور يماطل فى دفع تعهداته ، بينما اعتبر اليونانيون الامبراطور صديقا للصليبيين المعتدين ، فتآمر عليه جماعة من اليونانيين وقتلوه ، ولــــم يمد له الصليبيون يد العون . وعاد الصليبيون الى محاصرة القسطنطينيــــة وسارعت البندقية الى عقد اتفاقية قبل سقوط المدينة ، كان من شروطها الحصــول على ثلاث ارباع الغنيمة والاحتفاظ بجميع الامتيازات التجارية وأن ينتخـــــب الامبراطور مجلس من الفرنسيين والبنادقة ، والحصول على كنوز اياصوفيا وانتخـاب البطريرك منهم (١) .

سعى البيزنطيون (فى القسطنطينية) الى الاستنجاد بأعدائهم القدامى السلاجقة فلم يمد السلطان العون الى أعدائه القدامى بل اعتبرها فرصـــــة سانحة لاذلالهم (٢) .

---

(١) ديل : البندقية ص ١٢٦

(٢) ابن الاثير / الكامل جـ ١٢ ، ص ٧٩ ــ ٨٠



عيّن اهل القسطنطينية التاج على ثيودور لاسكارس

فرفضه لعلمه بعدم جدوى المقاومة وفر الى نيقية ، وبذلك سقطت عاصمة الحضارة الشرقية التي ظلت تسع قرون عاصمة للحضارة المسيحية ومركزا للاشعاع الحضارى ، وقام الفرنسيون والفلمنكيون والبنادقة باغتصاب كل ما وجدوه من ثروات ولم تسلم من عبثهم حتى كنيسة اياصوفيا ،[1]

وحرص المؤرخون المسلمون على أن يشرحوا اهمية سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين سنة ١٢٠٤ ، فيشير ابن الاثير الىما أجراه اللاتين من المذابح فى اليونانيين (الروم) ، فأصبح الروم كلهم مابين قتيل أو فقير لا يملك شيئا .... وخرج الى الفرنج جماعة من القساوسة والاساقفة والرهبان وبأيديهم الانجيل والصليب ، يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم[2] ، كما يروى ابوشامة : " ان الفرنج باعوا كثيرا مما نهبوه وغنموه من الآلات والرخام الى المسلمين بمصر والشام[3] ،

حصل البنادقة على أخصب الاراضى وافضل الموانى واهم النقط العسكرية ، فأصبحوا يتحكمون فى الطرق البحرية الاساسية التى تصل البندقية بالقسطنطينية كما انهم كفلوا لأنفسهم وضعا ممتازا بالامبراطورية فاستولوا فى البحر الايجى

(١) Runciman: op. cit. vol III. P. 125
Setton: op. cit. vol II. P. 611

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٨٠

(٣) ابوشامة : الذيل على الروضتين ص ١١١

على ابيروس وكورفو وكيفالونيا ، فضلا عن شبه جزيرة المروة ، والجزائر الواقعة جنوب بحر الاضيل وغربه ، وصار لهم على الساحل الاوربى للدردنيل وبحر مرمره ، جاليبولسى ، وهراقليه ثم ادرنه فى تراقيا ، وانتزعوا جزيرة كريت من بونيفا س دى مونتفرات[1] .

ولا شك أن للحملة الصليبية الرابعة نتائج بالغة الاهمية فى علاقات الشرق الاسلامى مع بيزنطة والغرب المسيحى [2] .

فالدولة البيزنطية التى كانت تعتبر معقل المسيحية فى الشرق ، والتى طالما اثارت العالم المسيحى لقتال المسلمين ، لم تلبث أن ادركت ان ماتعرضت له من خطر من قبلهم يفوق ماصادفته من قبل المسلمين حتى آثر البيزنطيون صداقة أعدائهم القدامى من المسلمين والسلاجقة ، وما حدث سنة ١٢٠٤ من تفكك بيزنطة وانقسامها الى آمارات عديدة كان فى الواقع بداية لتداعيها وتدهورها ثم زوالها آخر الامر على ايدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م .

/ ودل سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فى أيدى اللاتين على زوال عهد الروح الصليبية ، وتغلب المصالح الاقتصادية والشخصية والسياسية عند الصليبيين فضلا عن حرمان الصليبيين بالشام من قوة كانت دائما

---

(١) ديل : البندقية ص ٢٤

Saunders: J A History of Medival islam P. 178

تساندهم[1] على أن اللاتين فى الشرق فرحوا حينما أصبحت القسطنطينية بأيدى اللاتين ، وبذا لا تخضع الحملات الصليبية لتحكم الاباطرة البيزنطيين ويشير ابن الاثير الى أهمية سقوط القسطنطينية والى انه خرج فى تلك السنة كثير من الفرنج فى البحر الى الشام وسهل الامر عليهم بذلك ، لتملكهم القسطنطينية[2] .

انقسام الامبراطورية البيزنطية :

كان للحملة الصليبية الرابعة وقيام المملكة اللاتينية بالقسطنطينية (١٢٠٤ـ ١٢٦١) أهمية كبيرة فى تطور العلاقات بين الايوبيين والبيزنطيين ، ولا سيما بعد أن دخل فى السياسة العالمية ، عناصر جديدة ، واختفت عوامل كانت معروفة بتأثيرها فى مجرى الاحداث فى الشرق الاوسط ، ومن هذه العوامل أن بيزنطة لم تعد دولة متحدة مثلما كانت من قبل اذ اختفى ماكان يعرف بالامبراطورية البيزنطية ، وحل مكانها دويلات اتخذت اسماء مختلفة ، ذلك انه ترتب على استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ ، وقام على انقاضها امارات فرنجية (لاتينية) وامارات يونانية[3] .

---

(١) Runciman: op. cit. vol III P. 120

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٨١

(٣) Gibbon: op. cit. vol. VI P. 452
Grousset: op. cit. Tome III P. 175

فشملت امارات الفرنج ، الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ومملكة سالونيك ، وامارة اخيا في شبه جزيرة المورة ، ودوقية اثينا وطيبه في وسط بلاد اليونان ، (وامتد سلطان البنادقة الى الجزائر البيزنطية في بحر ايجه وبحر ايونيان وجزيرة كريت ، وبعض المواضع الساحلية والداخلية [1] . ومن نتائج سقوط القسطنطينية في ايدى الصليبيين ايضا أن صار للبندقية مقابل اشتراكها في الحملة الرابعة ، ثلاث أثمان القسطنطينية ، وكان هذا القدر سببا فيما اتخذه الدوج من لقب لنفسه ، كما أن بطريرك القسطنطينية صار يختار من البنادقة . واكتملت سيطرة البندقية التجارية على البحر المتوسط بما صار لها من سيادة على اسواق بيزنطة ، وعلى الطرق البحرية ولا سيما التي تربط بينها وبين مصر ، بعد استيلائها على مودون وكورون ، وشرائها جزيرة كريت والاستيلاء على يوبيا وجاليبولي فأضحى للبنادقة امبراطورية تجارية استعمارية في البحر المتوسط [2] .

ومن الدليل على ما للبنادقة من نفوذ في القسطنطينية أن بلدوين آخر امبراطور لاتيني بالقسطنطينية ، جعل ابنه رهينة لدى البنادقة مقابل مبلغ من المال ، كما أفاد البنادقة من المنازعات [3] الناشئة بين القوى المختلفة

---

(١) Vasiliev: op. cit. P.566

(٢) Miller: Trebizond the last Greak Empire P. 116

(٣) Miller: Essays on the Latin orient P. 99
Bayna byzantium P 37.

اما الامارات البيزنطية اليونانية ، فكان منها بآسيا الصغرى ، امبراطورية نيقية وامبراطورية طرابيزون ، ومنها بشمال بلاد اليونان ، امارة ابيروس ، ولاشك أن هذه الامارات اليونانية كانت أكثر الامارات اتصالا بالدولة الاسلامية في الشرق .

والمعروف أن بلدوين كونت فلاندر أضحى امبراطورا على القسطنطينية وسيدا على الشطر الكبير من تراقيا . وولي بونيفاس مونتفرات حكم سالونيك ، وامتد سلطانه الى مقدونيا وتساليا . بينما حكم في المورة وليم شامبليت ، وصار اوتون دى لاروش سيدا على أثينا وطيبة[1] — وتولى حكم الممالك البيزنطية اليونانية ، تيودور الاول لاسكاريس في نيقية والكسيوس الاول كومنينوس في طرابيزون ، وميخائيل الاول انجيلوس دوكاس كومنينوس في ابيروس .

يضاف الى هذه الامارات اللاتينية واليونانية الامبراطورية البلغارية الثانية التي توالى على حكمها كالوجان ، ويوحنا أصن الثاني ، ثم سلطنة السلاجقة في قونية ، وأسهمت هاتان الدولتان في الحياة الدولية المعقدة التي سادت ماقام من امارات على انقاض الامبراطورية البيزنطية وتحكمها فيها وما كان من علاقات بينها وبين الغرب المسيحي ، والشرق الاسلامي[2] ، ومن هذه العوامل ايضا ، ما وقع بين هذه الامارات في القرن الثالث عشر من مصادمات.

---

(١) Vasiliev: op. cit. P. 506

(٢) Vasiliev: op. cit. P. 506,
Diehl: op. cit. P. 139.

اذ دأب اليونانيون على مهاجمة الفرنج والترك والبلغار الذى اعتبروهم دخـــلاء ،
ونشبت المنازعات ايضا بين اليونانيين انفسهم • فما وقع بينهم من اختلاف قومـــي
اضاف الى الحياة عاملا جديدا من عوامل التمزق والتفكك فزاد الحياة اضطرابـــا
ودار القتال بين الفرنج (اللاتين) والبلغار وترتب على كل هذه المصـــادمات
الحربية ، قيام محالفات دولية ، غير أنها لم تلبث أن تحطمت (١) .

ولابد هنا من استعراض الاوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فـــي
امارات الشرق الاوسط • سواء كانت مسيحية أو اسلامية حتى يتسنى دارســـة
ما كان من علاقات بين البيزنطيين والايوبين فى هذه المرحلة الممتدة منـــذ
أوائل القرن الثالث عشر الى سقوط الدولة الايوبية سنة ١٢٥٠ • والظاهر الملموس أن العلاقة
تكاد تنحصر فى علاقات تلك الدول بدولة السلاجقة فى آسيا الصغرى •

امبراطورية نيقيـــة البيزنطيـــة :

المعروف ان مؤسس امبراطورية نيقية البيزنطية هو تيودور لاسكاريـــس
الذى ينتمى الى بيت الانجيليين عن طريق زوجته آنه ، ابنة الامبراطور الكسيـــوس
الثالث من جهة ، والى بيت كومنين عن طريق الكسيوس الثالث من جهة أخـــرى •
وليس معروفا أصل اسرة الاشاكرة (لاسكاريس) المالكة ولا اسم موطن تيـــودور (٢) .
وكل ما هو معروف أن تيودور كان قائدا عسكريا استبسل فى قتال الصليبيـــين ،

---

(١) Vasiliev: op. cit. P 507, 508
Runicman: op. cit. vol 3 P. 112

(٢) اشتهر تيودور لاسكاريس بالنسبة للمؤرخين العرب باسم الاشكرى واطلق اللفظ على بقية حكام الاسرة ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٨٠

اثناء الحملة سنة ١٢٠٤ ، ورشحه رجال الدين اليونانيون بالقسطنطينية ، كيما يكون امبراطورا ، بعد فرار الامبراطور الكسيوس دوكاس مورتزوفلوس غير أنه كان قد هرب الى آسيا الصغرى عقب سقوط القسطنطينية ، ولحقه به ، فرارا من الصليبيين عدد كبير من نبلاء بيزنطة العسكريين والمدنيين ، وبعض كبار رجال الكنيسة ، وغيرهم ممن كرهوا الخضوع للحكم الاجنبي (١) . أما البطريرك اليوناني وهو يوحنا كوماتيروس فلجأ الى بلغاريا ، ولم يلب دعوة تيودور بالقدوم الى نيقية .

وحكم تيودور لاسكاريس في نيقية من سنة ١٢٠٤ حتى سنة ١٢٢٢ ثم تلاه على الحكم صهره زوج ابنته ايرين ، يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس ١٢٢٢ ــ ١٢٥٤ ، وهما أعظم أباطرة نيقية ، وانبههم شأنا وأكثرهم اتصالا بموضوع الرسالة ــ ثم أعقب يوحنا ابنه تيودور الثاني ١٢٥٤/١٢٥٨ ــ ثم حفيده يوحنا الرابع (١٢٥٨ ــ ١٢٦١) وكان صغير السن ، واستطاع خلفه ميخائيل باليولوجس أن يستعيد القسطنطينية من أيدى اللاتين سنة ١٢٦١ (١) .

والواقع أن وضع الدولة الجديدة في بثينيا كان بالغ الخطورة ، اذ هددها من جهة الشرق سلطان السلاجقة في قونية الذى ملك كل الاجزاء الداخلية من آسيا الصغرى ، وجزء من ساحل البحر الاسود بشمالها ، وتعرضت دولة نيقية للضغط من الغرب ، من قبل الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، التى جعلت من أهدافها الاساسية تدمير دولة نيقية الناشئة (٢) ، وكان لزاما على تيودور لاسكاريس ، الذى

---

(١) Setton: op. cit. vol II P. 201

(٢) Diehl: op. cit. P. 139

استمر حكمه اربع سنوات ، والذى اتخذ لقب طاغية لا امبراطور ، أن يتحمل عبئا ثقيلا ، اذ سادت الفوضى فى انحاء بلاده ، وظهر فى الدولة حكام عديدون مستقلون مناوئون ، وأغلقت نيقية أبوابها على تيودور [١] .

واندلع عصيان اليونانيين والبلغار فى شبه جزيرة البلقان ، واضطر الصليبيون (اللاتين) ان يطلبوا من اوربا العساكر التى كانت موجهة الى آسيا الصغرى لقتال تيودور لاسكاريس، وحلت بالصليبيين هزيمة ساحقة فى ادرنه سنة ١٢٠٥ هلك فيها زهرة الفرسان الغربيين ووقع بلدوين فى اسر البلغار ، حيث لقى مصرعه [٢] .

ازداد مركز الصليبيين حرجا ، بعد معركة ادرنه ، فتحطمت آمالهم وزالت سيطرتهم على آسيا الصغرى، أما البلغار واليونانيون بالبلقان فلم يتحقق لهم اقامة مملكة يونانية عاصمتها القسطنطينية ، بل انفرط عقد التحالف بينهما ، ورأى اليونانيون بالبلقان فى ملك نيقية البيزنطى محررا لهم من اللاتين ورمزا لآمالهم وامانيهم القومية ، واذ تحطمت قوة اللاتين بالقسطنطينية ، أضحت نيقية بنجوة من خطرهم ، وتهيأ لها الامل فى حياة جديدة ، فانصرف تيودور لاسكاريس الى تنظيم مملكته الناشئة وتقرر تعيينه بطريرك جديد فى نيقية سنة ١٢٠٨ ، وهو الذى توج تيودور ، فى نفس السنة امبراطورا [٣] .

---

(١) Vasiliev: op. cit. P. 508

(٢) Setton: op. cit. Vol II P. 203

(٣) Vasiliev : op cit. P. 511

أضحت نيقية مقرا للامبراطورية والكنيسة معا • فالى جانب امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية قامت امبراطوريته البيزنطية التي أخذت تحتل رويدا رويدا مساحة من أراضي آسيا الصغرى • ثم صارت ايضا تجتذب انتباه اليونانيين وأضحت معقد آمالهم • ففي المعاهدة التي انعقدت سنة ١٢١٩م بين تيودور لاسكاريس وممثل البنادقة (البرديشتا) في القسطنطينية اعترف البنادقة بلاسكاريس امبراطورا • وجاز لرعايا الامبراطوريتين ممارسة التجارة في بلاد الجانبيين وتقرر اعفاء البنادقة من الرسوم والضرائب ببلاد نيقية • على حين التزم تجار نيقية بأن يؤدوا الرسوم القانونية في القسطنطينية وفي أملاك البندقية • ووعد لاسكاريس بألا يرسل سفنا حربية الى القسطنطينية الا بعد موافقة البوديشتا (ممثل البندقية) والا يستخدم البنادقة جندا مرتزقة الا بموافقته ايضا [1] •

ولم تلبث العلاقات أن توترت بين الامبراطوريتين في القسطنطينية ونيقية التي قامتا على أنقاض بيزنطية • فلم يكن بوسعهما أن يعيشا في تآلف وسلام ذلك أن نيقية التي تقع على مسافة ٥٠ ميلا من القسطنطينية • أضحت عاصمة للامبراطورية الجديدة • كما أن وقوعها في ملتقى عدة طرق جعل لها أهمية سياسية خاصة • واشتهرت نيقية في التاريخ البيزنطي بما انعقد فيها من مجامع مسكونية • ثم صارت

---

(١) Setton: op. cit. vol II. P 213

عاصمة للسلاجقة بآسيا الصغرى أعادها الصليبيون لا لكسوس الامبراطور البيزنطى • فكان إمبراطور نيقية امتدادا لسلسلة الاباطرة البيزنطيين • وما تعرضت الامبراطورية اللاتينية من الهزيمة على أيدى البلغار • ومن تجدد خطرهم على اللاتين • منع اللاتين من الاستيلاء على نيقية • على أن ماتعرضت له نيقية ايضا من خطر السلاجقة كل ذلك أدى الى عقد هدنة بين نيقية والقسطنطينية (١) •

على أن مانشب من الحرب بين تيودور امبراطور نيقية والسلطان السلجوقى كان بالغ الاهمية • نظرا لأن السلاجقة فى قونية كانوا يملكون معظم آسيا الصغرى ولم يلق قيام دولة نيقية قبولا عندهم • لأنها حالت دون توسعهم نحو بحر ايجه غربا • يضاف الى ذلك أن الكسيوس الثالث انجيلوس • صهر تيودور لجأ الى السلطان السلجوقى يلتمس منه المساعدة لاسترداد عرشه الضائع • فلم يسع السلطان السلجوقى الا أن ينذر تيودور • ويطلب اليه اعادة العرش للامبراطور الكسيوس • ودارت معركة عنيفة بين البيزنطيين والسلاجقة على نهر ميانذر فى كاريا • وعلى الرغم من أنه لم يترتب على هذه المعركة تغييرات اقليمية هامة فى جانب تيودور • فانها احيت الامل فى نفوس اليونانيين فى آسيا وأوربا • واعتبروا نيقية نواة وحدتهم المقبلة وانتعشت الآمال للاستيلاء على القسطنطينية (٢) •

---

(١) Setton: op. cit. vol II P. 205

(٢) Vasiliev: op. cit. P. 510

كل ذلك أثار مخاوف هنرى فلاندر امبراطور القسطنطينية ، ولاسيما انه لم يتوافر له من القوة ما يكفل حماية أملاكه . على أن ما انعقد من صلح بين هنرى فلاندر امبراطور اللاتين بالقسطنطينية ، وثيودور لاسكارين امبراطور البيزنطيين ، أقر الحدود التى قامت بينهما منذ سنة ١٢٠٤ ، اذ أن الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ظل بأيدى الامبراطورية اللاتينية وما تثيودور سنة ١٢٢٠ م بعد أن أقام بآسيا الصغرى حكما هيلنستيا ، ووحد الدولة وشيد الاساس الذى اقام عليه خليفته يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس (١٢٢٢ ــ ١٢٥٤) الامبراطورية بعد اتساعها وامتدادها .

ويعتبر يوحنا الثالث من أنشط أباطرة نيقية . وحدث فى عهده أن تنازع السلطة أربع قوى : امبراطورية نيقية ، الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، واستبدادية ابيروس ، ومملكة بلغاريا .

وقامت سياسة يوحنا فاتاتزيس الخارجية على الحروب من جهة ، وعقد المحالفات من جهة أخرى . ونجح يوحنا فى معالجة الموقف الدولى المعقد بينما فشل خصومه الثلاثة فى البلقان ، لما وقع بينهم من المنازعات حول الحروب والمحالفات[1] .

ففى السنوات الاولى من عهد يوحنا فاتاتزيس ، أضحى لنيقية التفوق على امبراطورية القسطنطينية ، بعد أن أنزل يوحنا الهزيمة

---

(١) Vasiliev: op. cit. P. 518

الساحقة بالخارجين عليه من أخوه تيودور الاول والذين تلقوا التأييد من اللاتين [1] ، فاكتملت له السيادة فى آسيا الصغرى ولم يعد للاتين بمقتضى معاهدة سنة ١٢٢٥ سوى الساحل الاسيوى المواجه للقسطنطينية والقرى التى تحيط بنيقوميديا ، وانتزع اسطول نيقية جزر لسبوس وخيوس وساموس ، واعترفت رودس بسيادة امبراطوريته . وهذا توطدت اركان امبراطورية نيقية برا وبحرا ، وأخذت تتطلع لانتزاع الجانب الاوربى ، واعادة الامبراطورية البيزنطية [2] الى سابق عهدها . وحدث أن اعترفت امارة ابيروس البيزنطية بسيادة حكومة نيقية عقب سقوط القسطنطينية فى ايدى اللاتين وبذلك زالت اسباب الاحتكاك بين الدولتين البيزنطيتين فى آسيا الصغرى والبلقان ، نظرا لاتفاقهما فى المثل والاهداف ، غير أن تيودور شقيق ميخائيل انجيلوس حاكم ابيروس ، لم يلبث أن أنكر ولاءه لنيقية بعد أن تولى العرش حوالى سنة ١٢١٥ وبفضل بسالته استطاع أن يستولى على المملكة اللاتينية فى تساليا ومقدونيا سنة ١٢٢٤ بعد حصار طويل [3] ، وزعم لنفسه حق الامبراطور البيزنطى وتوجيه القتال ضد القسطنطينية ، وهذا ظهرت مقاومته لامبراطورية نيقية [4] ، واذا تهيأ لامبراطور نيقية البيزنطى ، يوحنا فاتاتزس أن يستولى

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 384.

(٢) Setton : op. cit. vol II P. 214

(٣) Setton : op. cit. vol II P. 214

(٤) Ostrogorsky: op. cit. P. 585

على ادرنه ١٢٢٥ تراءى أن عودة الامبراطورية البيزنطية أضحت وشيكة الوقـــوع (١) . لولا أن تعرضت مؤخرة قواته لهجمات أمير ابيروس البيزنطى ، تيودور انجيلـــوس ، الذى ارغم قوات نيقية على أن الانسحاب بعد أن كاد يتحقق غرضه ، بالاســـتيلاء على القسطنطينية ، غير أنه تطلع الى هذا الهدف الاستيلاء على القسطنطينيـــة قيصر بلغاريا أصن الثانى (١٢٢٨ ـ ١٢٤١) ولم يتطلع أصن لما هو أقل مـــن اقامة امبراطورية بيزنطية بلغارية ، تتخذ القسطنطينية حاضرة لها (٢) .

وتم التوقيع على معاهدة التحالف بينه وبين فاناتزيس فى ســـنة ١٢٣٥ فى غاليبولى (٣) التى استولى عليها مؤخرا فانانزيس ، وتم زواج تيودور الثانـــى لاسكاريس ابن الامبراطور البيزنطى فى نيقية من ابنة آصن التى كان مقـــررا أن تتزوج من بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية (٤) .

تقدم الحلفاء للقاء الحصار برا وبحرا على القسطنطينية ، وعلى الرغـــم من صمود العاصمة بفضل مساندة اسطول البنادقة ، فان وضع اللاتين اضحـــى فى شدة الحرج حتى أن بلدوين الثانى غادر المدينة ، ليلتمس المساعدة مـــن الغرب ولم ينقذ القسطنطينية سوى ماوقع من نزاع بين المهاجمين .

---

(١) Setton : op. cit. vol II. P. 215.

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 387

(٣) Setton: op. cit. vol II P. 215

Setton: op. cit. vol II P. 216

(٤) Ostrogorsky: op. cit. P. 387, 388

واذا توفى اصن سنة ١٢٤١ اخذت قوة بلغاريا فى التفكك بسبب اغـــــارة المغول ، ولم يعد يواجه فاتانزيس ند خطير (١) .

وتوجه يوحنا فانزيس على رأس حملة سنة ١٢٤٢ لمهاجمة امبراطوريــــة سالونيك ، ولما اقترب من العاصمة علم بغزو المغول لآسيا الصغرى فاضــطر الى الانسحاب وعقد الصلح مع امبراطورية سالونيك ، وترتب على هذه المعاهــدة أن قبلت امبراطورية سالونيك التخلى نهائيا عن كل تنافس مع امبراطورية نيقيـــة ، وتنازل امبراطور سالونيك عن رداء الامبراطوى ووافق على أن يتخذ لقب طاغيـــة الذى منحه له فاتانزيس (٢) .

على أن الغزو المغولى اثار كل شرق أوربا والشرق الادنى فهوت روســيا فى ايدى الغزاه ، وظلت مايزيد على مائتى سنة خاضعة للتتار لتهديدهم سلطنــة قونية المتاخمة من جهة الشرق لامبراطورية نيقية (٣) .

وتعرضت لخطرهم ايضا امبراطورية طرابزون ، ولم تأمن نيقية ذاتها مـــن خطرهم ، وادى الخطر المشترك الى عقد محالفة بين يوحنا فاتانزيس وامبراطــور طرابزون وسلطان السلاجقة بقونية سنة ١٢٤٣ (٤) ومن الدليل على ضعف المـــروج

---

(١) Setton: op. cit. vol II. P. 223

(٢) Setton: op. cit. vol II. P. 223

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩

(٤) Vasiliev: op. cit. P. 530-531
Ostrogosky: op. cit. P. 390

الصليبيـــــــــية ، أن السلاجقة استخدموا من اللاتين جنودا مرتزقــــة
بلغ عددهم نحو الف رجل ، وبلغ من نفوذ اللاتين انهم اسهموا في تولية غيـــــــاث
الدين كيخسرو الثاني سلطانا وكاد التحالف يتم بين السلاجقة واللاتين ، لولا أن
كيخسرو كان ضعيفا ولم يكن عدوا لفاتانزيس فضلا عن تحالف كيخسرو مع فاتانزيـــس
بعد غارة المغول ، فلم يسعه الا الاعتراف بسيادة المغول ولانتماء اليهم ، بـــل
ان سلطان السلاجقة التزم بدفع الجزية ، ومقتضى هذه الشـروط ، تهيأ لامبراطور
طرابزون وسلطنة قونية السلجوقية أن يحافظا على بقائهما لأن المغول انصـــرفـوا
عنهما الى ما هو أهم من المغامرات(١) ، على أن امبراطورية نيقية لم تتأثر بكل ذلك ،
بل انها افادت كثيرا من ضعف جيرانها .

فدخل سالونيك في ديسمبر سنة ١٢٤٦ ، دون أن يلقى شيئا من المقاومة
وبذا اختفت امبراطورية تيودور انجيلوس ، الذى اكتفى بالحصول على ضـــــيعة
بالقرب من مودينسا (٢) .

فكر فاتانزيس في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٢٣٤ مقابـــــل
أن يتخلى البابوية عن الامبراطورية اللاتينية ، غير أنه لم يلبث أن تخلى عـــــن
هذا المشروع ، بعد أن أدرك أن أيام الامبراطورية اللاتينية اصبحت معدودة (٣) .
الواقع أن فاتانزيس زاد من مساحة امبراطورية نيقية ، اذ أن أملاكه بآسيا الصغـرى

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 390

(٢) Setton: op. cit. vol II. P. 223
Setton: op. cit. vol II. P. 226

(٣) Vasiliev: op. cit. P. 544-545

اضحت مستقرة آمنة بينما خضع لسلطانه الشطر الاكبر من شبه جزيرة البلقان ، وجرى التخلص من خصوم نيقية السابقين ، فهوت امبراطورية اليونان الغربية ، ولم يعد يتعرض للخطر من قبل استبدادية ابيروس ومملكة بلغاريا ، أما الامبراطورية اللاتينية فانها تحتضر ، اذ بلغ بها الفقر والعجز أن الامبراطور بلدوين الثانى رهن ابنه وولى عهده فيليب عند التجار البنادقة ، حتى يحصل على قرض يخفف عنه ضائقته وحاجته الشديدة للمال [1] واقتصرت املاك الامبراطورية اللاتينية على مايحيط بالقسطنطينية من بلاد ، يحيط بها من كل جانب املاك فاتانزيس امبراطور نيقية ولم يبق لاستكمال استعادة الامبراطورية البيزنطية الا القيام بمحاولة أخيرة ، وهى الاستيلاء على القسطنطينية التى قام بها امبراطور آخر بعد أن أعد فاتانزيس كل الخطوات اللازمة ، وهو الذى يرجع اليه الفضل فى استعادة الامبراطورية البيزنطية [2] .

وما أحرزه فاتانزيس من النجاح فيما اتخذه من التدابير الاقتصادية لم يكن اقل شأنا ، اذ أن امبراطورية نيقية شهدت فى عصره من الرخاء المادى مالم تشهده فى سنوات عديدة ، اذ وجه الامبراطور اهتمامه الى اصلاح الزراعة وتربية الماشية واقام نموذجا لذلك ، بأن جعل الضياع الامبراطورية مثالا يحتذى به ، فأظهر لرعاياه ما يتوافر من الثروة من الزراعة المحصولات

---

(١) Setton: op. cit. vol II P. 225

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 393

وزارة الكروم وتربية الماشية [1] ، كما قام بحماية البلاد من الواردات الخرجية ومنع رعاياه من شراء الكماليات الباهظة الاثمان . ومع ذلك تدفق الى الامبراطورية المعادن النفيسة والمنسوجات الثمينة ، من سلطنة السلاجقة المجاورة لها . وعلى الرغم من أن الغزو المغولى خرب الامارات المجاورة لنيقية فان هذا الغزو كان بالغ الاهمية للبيزنطيين من الناحية الاقتصادية ، اذ أن الترك اشتروا المواد الغذائية من امبراطورية نيقية ، ودفعوا فيها اثمانا مرتفعة من الذهب والسلع التجارية [2] ، ولذا لم تفتقر نيقية الى الاموال ، برغم انغماسها فى حروب مستمرة وماساد من احوال اقتصادية فى دولة نيقية زمن يوحنا فاتانزس ، كان اسلم واصح مما عرفته الامبراطورية البيزنطية زمن اسرة كومنن وانجيلوس فلم تستنفذ الدولة حيويتها ، وأضحى استعادة الامبراطورية البيزنطية أمرا قريب الوقوع .

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 394

(٢) Vasiliev: op. cit. II P. 546
Gibbon: op. cit. vol VI P. 476

امبراطورية طرابيزون البيزنطيـــــة والسلاجقة :

ارتبطت امبراطورية طرابيزون البيزنطية بعلاقات عدائية مع جيرانها مـــن السلاجقة ، اذ تعرضت لحصار من قبل كيخسرو سلطان السلاجقة لطرابـــــيزون سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ م ، كما أن السلطان السلجوقي الجديد كيكاوس الاول عمـــل على التوسع على حسابها ، فاستولى على سينوب ، وذبح دافيد حاكم المنطقة (١) ، وكان للاستيلاء على سينوب نتائج بعيدة المدى اذ اقتطع السلاجقة جزءا كبـــيرا من الحدود الغربية لطرابيزون ، ومنعوا اتصالها المباشر بامبراطورية نيقيــــــة البيزنطية . (٢)

وفي عهد ثاني اباطرة طرابيزون اندرونيكوس الاول تعرضت العاصـــــمة لخطر القتال المباشر ، اذ أن احدى سفن طرابيزون المحملة بالجزية من احـــدى الولايات البحرية ، وعلى ظهرها احد الارخونات وعدد من النبلاء ، تعرضـــت لعاصفة شديدة فلجأت الى ميناء سينوب (٣) ، ووفقا للمعاهدة التي عقدهـــا أندرونيكس مع غياث الدين كيخرو بن السلطان السلجوقي كيقباذ الذي وصــل ارتقى عرش قونية سنة ١٢٢٠م (٤) ، قام تابعه هيتوم بالاستيلاء على السفينة وشحنتها وبحارتها كما أرسل السفن لنهب خيرسون ، وحين وصلت الانباء طرابيزون ، حشدت

---

(١) اسر السلاجقة كومنينوس حاكم طرابيزون وتعهد بدفع جزيه سنويه للسلطان علاء الدين كيقباذ .

( ) Miller: Trebizond P. 19

(٢) Vasiliev: The foundation of Empire of Trebizont P. 26 speclum 1933 vol XI

(٣) Vasiliev: op. cit. P. 25

(٤) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ج ٢ ص ١٦٣

اسطولا ، وجهه اندرونيكس الى سينوب حيث استولى على جميع السفن الراسية في الميناء .

أعد غياث الدين العدة واتجه الى طرابيزون ، في حين حصن اندرونيكس المدينة والطرق المؤدية لها ، حاصر غياث الدين المدينة وهاجمها من جهة البحر ، الا أن المدينة صمدت للهجوم ، ودعى الامبراطور البيزنطي الى عقد معاهدة سلام ، ودعا وفد سلجوقي لرؤية المدينة وتحصيناتها ، ولكن لم تلبث أن هبت عواصف دمرت معسكر السلاجقة ووقع غياث الدين في الاسر ، فاستقبله اندرونيكس بحفاوة بالغة ، وأجلسه بجانبه ، وبعد ان استشار مجلسه ، تقرر ارسال غياث الدين الى بلاده ، وتجديد الاتفاق السابق بين طرابيزون وقونية ، الذى يقضى بالاعتراف بالتبعية ، وتقديم الخدمات العسكرية والجزية والهدايا ، ووافق غياث الدين الذى أعجب بتقدم طرابيزون .

كانت فترة الاستقلال هذه قصيرة المدى ، فقد تنازع جلال الدين خوارزمشاه السيطرة مع السلطان السلجوقي على غرب آسيا وأصبح جارا لطرابيزون الذى عقد تحالفا معها ، فلما حلت به الهزيمة على هزيمته سنة ١٢٣٠ لجأت بعض قواته الى طرابيزون ، ولقد كلفت هذه الغلطة أندرونيكس جميع الامتيازات التي حصل عليها من اتفاقه مع مليك ، وعادت طرابيزون تابعة لسلطان قونية حوالي سنة ١٢٤٠م .(1)

---

(1) Miller: op. cit. P. 20-25
Gibbon: op. cit. vol VI P 459

الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية :

لم تكن الامبراطورية اللاتينية التي تأسست بالقسطنطينية سنة ١٢٠٤م ، نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، من القوة مايدعوها الى مساندة الفرنج في الشام ، اذ استنفذت جهود المسيحيين من الرجال والاموال ، بل انها اجتذبت اليها النبلاء الذين استقروا حتى وقتذاك بالشام .[1] واذ اتجهت معظم الجيوش الى القسطنطينية ، كان لزاما على الصليبيين في مملكة بيت المقدس أن يلتمسوا دائما الصلح مع المسلمين ، فتكرر عقد المعاهدات بين الجانبين (١٢٠٥ ـ ١٢١٠) ١٢١١ ـ ١٢١٧ ، ١٢٢١ ـ ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ١٢٣٩)[2] ، وما يدعو الى الالتفات أن بوهمند الرابع أمير انطاكية أفاد من الامبراطورية اللاتينية ، حينما تعرض للاخطار والفتن من قبل امراء أرمينية الصغرى ، ورجال الدين بداخل انطاكية ، وطوائف الفرسان الرهبان من الاسبتارية والداوية ، بأن أعلن ولاءه للامبراطور اللاتيني ، وباعتباره الوارث الشرعي للبيزنطيين ، الذين اعتبروا انطاكية اصلا من ممتلكاتهم[3] ، والواقع أن ما ساد

---

(١) Gibbon: op. cit. vol VI P 488-489

(٢) Setton: op. cit. II. P. 532-533

(٣) اعلن بوهمند ولاءه لزوجه هنري شامبني حين حضورها لبيت المقدس وبين بطريرك اغريقي وكان الاغريق المنصر الغالب في انطاكية .

الامبراطورية اللاتينية من الاضطراب السياسى والدينى ، وما كان من قيامها فـــى بلاد لمادية بين اليونانيين الكارهين للاتين [1] ، والذين بادروا الى التمـــاس قادة لهم من الجهات المجاورة فضلا عن ارتكانها الى ما يتدفق عليها من الغـــرب من المال والرجال ، واحتمال توقف هذه المساعدة فى أى وقت من الاوقات ، كـــل ذلك يجعل بقاء الامبراطورية اللاتينية متوقفا على ما يتصف به الصليبيون من بعـــد النظر السياسى . ومثال ذلك أن الاباطـرة اللاتين اعتبروا أن من السياســـة السليمة الافادة مما وقع بين اليونانيين من المنازعات الطبقية التى ســـبق أن أدت الى تدمير الامبراطورية البيزنطية ، كان يساندوا الفلاحين ازاء ســـادتهم السابقين ، وبذا تزداد مكانتهم فى الريف ، غير أن هذا الاتجاه كان بعيـــدا عن تفكير القادمين من الغرب ومع ذلك فان اللاتين لم يفيدوا مما تهيأ لهـــم من فرص دبلوماسية وعسكرية [2] ، وما لجأ اليه اللاتين من رد هجمات البلغـــار ، انما أدى الى تحالف البلغار مع اليونانيين ، يضاف الى ذلك أن اللاتـــين بالقسـطنطينية ، لم يدركوا أهميـة التحالف مع سلاجقـة الـروم فى قونيـــة . أما حلفاؤهـــم من الارمـــن فقـــد غشـوهم ولم يحظـوا بما تســـوغ لـــه

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P. 370

(٢) Setton: op. cit. vol II. P. 199-200

اللاتين من اخطار [1] ، ومع ذلك فان سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين أثار الاضطراب والتفكك فى القوى المسيحية بالشرق الادنى ، فمن ذلك ما تعرضت له حمص من الهجوم من قبل الاسبتارية فى حصن الاكراد ، وتصدى الظاهر غازى صاحب حلب لهم . كما حدث ايضا أن قام القراصنة من جزيرة قبرص بمهاجمة سفن مصرية والاستيلاء على ماتحمله من السلع والاسرى ، زمن الوصاية على عرش بيت المقدس (١٢٠٥ ـ ١٢١٠) ، فخرج العادل الى الشام ، واذا احتج لدى الوصى على عرش بيت المقدس ، اعلن أن حاكم قبرص يدين بالولاء للقسطنطينية ، وليس له عليه سلطان ولم يلبث الصلح أن عاد بينهما [2]. والمعروف أن قيام امبراطورية لاتينية بالقسطنطينية جعل البابا أول الامر فى وضع حرج ، اذ أن البابا انوسنت الثالث قاوم تحول الحملة الرابعة لمهاجمة القسطنطينية ، وحرم من الكنيسة الصليبيين والبنادقة بعد الاستيلاء على زارا سنة ١٢٠٢ ، غير أنه لم يلبث أن أقر الامر الواقع بعد سقوط القسطنطينية فى ايدى اللاتين [3] ، بل أنه دعا رجال الدين وسائر الملوك والامراء ، وكل الشعوب والاقوام لمساندة بلدين

---

(١) كانت بعض قوات الحملة الرابعة اشتركت مع الصليبيين فى الشرق . فى مهاجمة فى مهاجمة الايوبيين ولكن هذه الهجمات لم تأت بنتيجة تذكر .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١١٤
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٤١

(٣) Runicman: op. cit. vol III P. 128

امبراطور اللاتين فى القسطنطينية ، واعرب عن أمله فى أن سقوط القسطنطينيـــة سوف يهسر الاستيلاء على الاراضى المقدسة واعادتها للمسيحيين [١] على أن البابـــا ارتاح لما وقع من نهب بالقسطنطينية وما ارتكب فيها من الفظائع ، فضلا عن الطابـــع الدنيوى ، لمعاهدة التقسيم ، التى استبعدت كل نفوذ وتدخل من قبل الكنيسة [٢].

وكان من اثر الحملة الرابعة ١٢٠٤ ، أن غلبت الصفة العلمانيـــة على الحركة الصليبية وأن انحرفت عن هدفها ، الذى يقضى بالتوجه الى الاراضـــى المقدسة فمنذ سنة ١٢٠٤ ، لم يقتصر اهداف الصليبيين على توجيه قواتهـــم لمهاجمة المسلمين فى مصر وفلسطين بل تحتم عليهم ايضا ارسالها الى املاكهـــم فى بلاد الامبراطورية الشرقية لمساندتها ، فعطل ذلك من حركة القتال ضـــد المسلمين فى الشرق [٣] وادرك البابا انوسنت ان امبراطورية اللاتين بالقسطنطينيـــة ليس بوسعها أن تتولى توجيه حملة صليبية للشرق ، نظرا لما تصادفه من متاعـــب سياسية واقتصادية ودينية [٤].

Runicman: op. cit. vol III P. 128 (١)
Vasiliev: op. cit. P. 467
Vasiliev: op. cit. P. 468 (٢)
Vasiliev: op. cit. P. 469 (٣)
Vasiliev: op. cit. P. 469 (٤)

وا ذ ظفرت البندقية بنصيب الاسد عند اقتسام الاملاك البيزنطيـــة ، لم يحل ذلك دون تغيير سياستها مع المسلمين اذ حرص كل من العادل والكامل على المحافظة على العلاقات الطيبة مع البنادقة وجمهوريات ايطاليا .

ففى سنة ١٢٠٧ قـام سفير بيزا مارتوكو تيرتى بعقد معاهـدة مع العادل الحدث حرص السلطان على الاستمرار فى تقديم كل التسهيلات اللازمة [١] وفى سنة ١٢١٥ م ارسلت جمهورية بيزا الى القاهرة سفيرا آخر ، وكان بسبب قيام الحكومة المصرية بأسر عدد كبير من البيازنة وكان قد تم القبض عليهم فـى كنيستهم وعقدت معاهدة ١٢١٦م حددت فيها امتيازاتهم .

وعقدت البندقية بدورها معاهدة تجارية مع الملك العادل عقدها مارينو داندولو ، وبطرس ميخائيل وهى مجموعة من المراسيم السلطانية التى صدرت فـى القاهرة وغالبا ما يبدأ باسم السلطان الى دوج البندقية وتنص النصوص بصـورة اجمالية على حماية البنادقة وحسن معاملتهم فى ارض السلطان وعلى حمايـة من يصحبونهم للحج . وليس معروفا على وجه التحديد السنه التى عقدت فيهـا المعاهدة والمرجح انها سنوات ١٢٠٦ ــ ١٢٠٨ ولكن لما كانت العبارتـان

---

(١) Heyd: Hist. du commercedu Levant Tome I. P. 404

(٢) Heyd: op. cit. Tome I P. 404

(٣) Wiet: op. cit. P. 385

اللتان ترد ذكرهما فى هذه المراسيم ، وهما سيد ملوك المسلمين امير المؤمنـــــين /

لما تضمنا الى القاب السلطان سويفى العام الهجرى ٦٠٤ هـ اذ كان تـــاريخ صدور المرسوم حوالى ١٢٠٨ [1] ، وفى نفس العام ارسلت جمهورية البندقيـــة الى مدينة حلب السورية سفيرا خاصا ، يدعى مارينوسى ، فقام بعقد معاهـــدة تجارية مع صاحب المدينة وهو الامير غياث الديــن بن صلاح الدين ، ومـــنح التجار البنادقة فى مدينتى حلب واللاذقية امتيازات ضخمة [2] ، على الرغـــم من أن البابا انوسنت الثالث اشار فى المجمع الدينى الذى انعقد باللاتران ســنة ١٢١٥ ، الى ماتقوم به المدن الايطالية من نقل المواد الاستراتيجية كالاخشـاب ، والحديد عبل أن من الايطاليين من خدموا فى السفن الاسلامية ، مما اضعـــف الروح الدينية [1] فتردد على دمياط السفن من ابوليا والبندقيـــة وبلاد اليونان [2] . ومن الطبيعى أن البنادقة لم يقصدوا الا مصلحتهم الخاصة ، فما حدث مــــن سيطرتهم على القسطنطينية ومودون وكريت ، التى ليست الا محطات تجاريـــة فى طريقها الى مصر انما قصدوا به ان يتخذوا من دمياط والاسكندرية ، قاعـــدة لتجارتهـــم بعد أن حصلوا على الامتيازات الضخمة فى القسطنطينية وســـيطروا

---

(١) Heyd: op. cit. Tome P. 403-404

(٢) Heyd: op. cit. Tome P. 374-375

(٣) Wiet: op. cit. P 385

على تجارتها ، وظفروا من طاغية ابيروس البيزنطى وامبراطور نيقية البيزنطية ايضا على امتيازات تجارية بالغة الاهمية (١) ولذا أسهمت البندقية فى اعداد الحملة الصليبية الخامسة ومدها بالعتاد والرجال والسفن املا فى أن تخضع لها مصر مثلما خضعت القسطنطينية . اذ وجدت فيه فرصة نادرة للسيطرة على ذلك الثغر التجارى الهام الذي تستطيع ان تنفذ منه الى داخل البلاد المصرية (٢) . وتزعمت الجمهوريات الثلاث حركة المعارضه عندما قدم الملك الكامل سنة ١٢١٩ عرضوا بالجلاء عن دمياط والشواطئ المصرية فى مقابل اعادة الصليب الذى كان قد استولى عليه صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس ، ورد الاسرى الموجودين فى القاهرة ودمشق ، وتسليم مدينة بيت المقدس مع دفع مبلغ من المال لاصلاح اسوارها ولما اوقع المصريون بالجيش الصليبى فى سنة ١٢٢١ وسط مياه الدلتا ، اضطر زعماؤها للموافقة على الجلاء . غير ان ممثلي الجمهوريات الايطالية فى الحملة ، رفضوا التسليم بذلك وهاجموا قصور الملك والداوية والاسبتارية فى دمياط واستولوا عليها ، ونصبوا انفسهم ساده على المدنيه ، ولم يتنازلوا عنها الا عندما شعروا بأن الشتاء مقبل عليهم بينما كانت المئونة آخذه فى النفاذ . وكانت جمهورية البندقية اكثر حماسا من زميلاتها للبقاء فى مدينة دمياط حتى انها عندما ارغمت على الانسحاب حرمت على رعاياها التردد على موانى مصر والتجاره معها (٣) .

---

(١) ديل : البندقية ص ٤٥

(٢) Michaud: Histoire des croisades tome III P. 647

(٣) Heyd: op. cit. Tome I P. 405-406

وهددت باقصى عقوبات السجن والنفى والمصادره للمخالفين ، وانزلت فى الادرياتيك فى ١٢٢٦ أحد سفنها لتتجول فيه باحثه عن مخالف (١)

على انه في الوقت الذى كانت فيه الجمهورية تتبع سياسة معادية لمصر وللتجارة مع مصر ، كانت تحاول جاهدة ان تثبت حقوقها التجارية فى شمال سوريا . ففى سنة ١٢٢٥ أرسلت لتلك الجهات السفير البندقى توماسينو فوسكارينى الذى عقد معاهدات تجارية مع الملك العزيز صاحب حلب ، ومع صاحب اللاذقية وصاحب حصن سيجون حصل البنادقة بمقتضاها على امتيازات فى تلك الجهات (٢). وعندما وجدت جمهورية البندقية ان الامبراطور فردريك الثانى ، عقد معاهدة سنة ١٢٢٩م مع الملك الكامل ، قامت بدورها بالغاء قرار تحريم التجارة مع مصر وارسلت سفيرا الى شمال سوريا وقد معاهدة مع صاحب حلب الملك العزيز حصلت بمقتضاها على امتيازات اكثر . وفى سنة ١٢٣٨ ارسلت البندقية الى الملك العادل الثانى سفيرين لعقد معاهدة تجارية جديدة حوت كثير من التسهيلات وجاء فيها لاول مرة ذكر قنصل البندقية كمشرف على تجارها فى الاسكندرية (٣) . وفى ١٢٤٤ أرسلت سفارة اخرى حصل فيها سفيريها وكان السلطان هو الملك الصالح نجم الدين ايوب على تأكيد بالامتيازات التى منحها والده الملك العادل الثانى للبنادقة (٤) . وعندما هاجم الملك لويس التاسع دمياط ١٢٤٩ لعبت البندقية

---

(١) Heyd: op. cit. Tom I P. 405-406
(٢) Heyd: op. cit. Tom I P. 385
(٣) Heyd: op. cit Tome I P. 375
(٤) Mas latrie: Traites Appedice P. 72-76

سياسة ذات وجهين فهى لم تشترك فى الحملة كبيره وجنوه هو تا بالغاء معاهداتها ، الا انها عند ما اضطر لويس بعد وقوعه فى الاسر ١٢٥٠م الى الاذعان لرغبـــات السلطان بالجلاء عن دمياط ، ثارت عليه ثورة عنيفة ، وتعاونت مع زميلتها جنـــوه وبيزا على مهاجمة الحجاج الفرنسيين عند عودتهم فى البحر ، فانها كانت تأمـــل انه فى ظل الاحتلال الصليبى سوف تتمتع باعفاءات كاملة من الضرائب.

سياسة الايوبين مع السلاجقة :

تمثلت هذه السياسة طوال حكم كيخسرو الاول وكيكاوس وكيقباذ ، فـــى تأمين الحدود المواجهة لمملكة قليقية ، وفى علاقات ودية مع الفرنج ، وحياد مـــع اليونانيين ، وعداء اخوانهم المسلمين فانحازوا الى الفرنجة بأنطاكية لمنــاوأة قليقية ، والى اللاتين والبنادقة بالقسطنطينية لمناهضة اليونانيين فى نيقية ، والـى القيارصة ، واستأجروا عساكر من الفرنج وتراسلوا مع البابوية ورحبوا بالبعثات التبشيرية اللاتينية ، وذلك لمحاولة انتـــزاع رعاياهم اليونانيين من كل مايربطهم ببيزنطة مـــن صلات.(١)

اما سياسة السلاجقة مع القوى الاسلامية ، فانها قامت على التوسع صـــوب الجنوب الشرقى وكان السلاجقة قد استهدفوا هذه فى منتصف القرن الثانى عشـــره

---

(١) العينى : عقد الجمان حوادث ٦٢٦ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٢٣
ابوالفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٤٨

تخلوا عنها اثناء الخصومات الاسرية ولقوا المساعدة بما حدث من الاضطراب الناشب بين امراء الشام والجزيرة.

وذلك أن كيخسرو وكيكاوس اتخذ سياسة التحالف مع الظاهر غازى صاحب حلب ضد ليو الثانى ملك ارمينيا الصغرى ، وكان غازى الايوبى يأمل من وراء هذا التحالف أن يجد فيه الحماية من عمه العادل الاول . وحينما مات الظاهر سنة ١٢١٦ م[1] اراد كيكاوس أن يساند ابنا آخر لصلاح الدين وهو الافضل ، الذى كان يتولى سميساط منذ سنة ١٢٠٣ اقطاعا من السلاجقة ، وكان يرشحه لأن يتولى حكومة حلب ، غير انه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، بسبب ظهور الاشراف بن العادل . ترجع كيقباذ الى السياسة القديمة[2] ، واستطاع بفضل التحالف مع الاشرف أن ينتزع من مودود الارتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، كل مايملك من حصون واقعة وراء الفرات ، وتمتد الى جنوب اذربيجان . فأضاف الى املاكه اذربيجان سنة ١٢٢٨ بعد ثلاث سنوات من وفاة اميرها بهرام شاة . وفى غمرة هذه الاحداث ، ظهر عامل جديد فى سياسة غرب آسيا وهو الخوارزمية بقيادة جلال الدين خوارزمشاه . ولم يظهر السلطان السلجوقى شيئا من الكراهية لجلال الدين خوارزمشاه الذى لم يهدد سوى ارزروم التى يعادى صاحبها كيقباذ السلجوقى[3] وسوى املاك الاشرف الشمالية الشرقية ، مثل اخلاط على بحيرة وان غير أن الامور لم تلبث أن تغيرت حينما ظهر أن جلال الدين يستعد لغزو الاناضول بعد أن دانت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٧
(٢) ابوالفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٢٤
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٨

له اخلاط ، ولقى التأييد من جهان شاه صاحب ارزروم صار من اتباعه. واستطاع كيقباذ أن يحرض الاشرف الذى قدم بنفسه ، وكذا حكومة حلب ، فضلا عن السلطان الايوبى الكامل ، على أن يرسلوا امدادا ، ونجحت القوات المتحالفة فى أن تنزل الهزيمة بالخوارزمية فى سنة ١٢٣٠ فى غرب آذربيجان ، واذ تورط بهرام شاه فى تحالفه مع الخوارزمية ، وحل به ما حل بهم من الهزيمة ، فقد ارزروم الحق أضافها كيقباذ الى بلاده فأصبحت أملاك كيقباذ تتاخم أطراف آذربيجان [1].

واذ كانت جورجيا (بلاد الكرج) مساندة للخوارزمية ، فان ماحدث من تهديد السلاجقة لهم ، ارغمهم — هم وحلفاؤهم — فى طرابزون على أن يتخذوا سياسة المصالحة والمسالمة والولاء نحو كيقباذ ، ولما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الايوبيين والسلاجقة ، تصادمت أطماعهم ففى سنة ١٢٣٣ كان السلطان الكامل يأمل فى أن يغزو بلاد السلاجقة ، بعد أن انهى اليه بعض السوريين الذين كانوا بهذه البلاد سنة ١٢٣١ ، انها بلاد ضعيفة ليس لها من يدافع عنها . واذ توقف الكامل فى الجبال الواقعة شمال الشام توجه صوب الشمال الشرقى . بعد أن دعاه لمساندته صاحب خرتبرت ، غير أن الحليفين الكامل والظفر تعرضا لهزيمة ساحقة. على يد كيقباذ الذى ضم اليه [2] . وبذلك امتدت املاكه الى ما وراء نهر الفرات ، بل انما أقام حامية فى حران فى جون بلاد الايوبيين ، والتى لم يلبث

---

(١) ابوالفدا : المختصر جـ٣ ص١٥٣
ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٧٣

(٢) ابوالفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٢
المقريزى : السلوك جـ١ ص٢٥٤

أن استردها الكامل دون تعب ثم حاصر آمد . ولما مات كيقباذ الاول سنة ١٢٣٧ وقع الخلاف بين ابنه غياث الدين والخوارزمية ، الذين فروا الى الجزيرة . غير أن ما حدث من وفاة الاشرف ثم الكامل هيأ له أن يشترك في التحالف مع امراء الشام والجزيرة ضد الصالح أيوب بن الكامل ، والخوارزمية [1] . فدخل آمد نفسها التي تعتبر امنع المعاقل في ديار بكر وأن يحاصر ميافارقين الواقعة وراء دجله ، فامتدت السلاجقة الى نفس الحدود التي كانت للدولة البيزنطية من قبل ، بل انها اتجاهها نحو الجزيرة قد تجاوزت حدود بيزنطة السابقة وهي تطابق منازل التركمان . على أن الدولة السلجوقية في قونية ، زمن كيقباذ الاول ورغم تزايد الخطر المغولي في مستهل حكم كيخسرو الاول بلغت الذروة في القوة العسكرية وفي التوسع الاقليمي يحيط بها اتباع أو حلفاء من كل جانب ، المسلمون في حلب والجزيرة ، المسيحيون وطرابزون ونيقية وقبرص ، التي كانت ترسل امداد كلما طلب اليها ذلك وكانت هذه أيضا هي الفترة التي اكتمل فيها نظم الدولة ونضجت الحياة الاقتصادية والحضارية .

على أنه لسوء الحظ ان دولة السلاجقة كانت تخفي وراء واجهتها القوية ما كان ينخر في داخلها من عوامل الضعف على حين أن الخطر المغولي بدأ يلوح في الشرق . ذلك أن المغول قد توغلوا في املاك السلاجقة أواخر ايام

---

(١) ابوشامة : الذيل على الروضتين ص ١٦٨

كيقباذ الاول وماحدث من مشاكل داخلية بين ا لمغول هيأ لكيخسرو فترة من الراحة ليضع سنوات.

الايوبيون والحملة الصليبية السابعة :

ترتب على زوال شخصية الكامل القوية ، ان وقع الامراء الايوبيين في مخاصمات ومنازعات عنيفة بالغة الاضطراب ، فابنه العادل ابوبكر الثاني ، الذي عينه خليفة له بعد استبعاد الصالح ايوب ، اعترف به القادة المصريون ، الذين رشحوا ايضا الجواد يونس (حفيد العادل الاول وزوج ابنة الاشرف الوحيدة) ليكون اميرا على دمشق ، وطردوا الناصر داود الى الكرك مرة أخرى. واتخذ جيش حلب خطة الهجوم بدل الدفاع ، فانتزع معرة النعمان وحاصر حماه ، بينما قام اميرها بتجديد التحالف مع كيخسرو الثاني ، ورفضا التفاوض مع الصالح ايوب ، والعادل الثاني والجواد [1]. لقى الصالح ايوب متاعب من الخوارزميين الذين تركوا خدمة كيخسروا ودخلوا في خدمة ارسلان الارتقي صاحب ماردين فهرب الى سنجار غير أنه حينما حاصره بسنجار بدرالدين لولو صاحب الموصل ، ارسل الصالح ايوب قاضي سنجار متنكرا الى الخوارزمية يطلب منهم الانحياز الى جانبه. فزحفوا على سنجار وهزموا قوات الموصل وطردوا جيشا سلجوقيا كان يحاصر آمد. واستولوا

---

(١) ابوشامه : ذيل الروضتين ص١٦٨

ابوالفدا : المختصر جـ٣ص ١٧٠

على حصن نصيبين واقليم الخابور باسم الصالح ايوب ، مقابل انه جعل لهم بـــلاد مصـــر (فى غرب الجزيرة) [1] .

وحوالى نهاية سنة ١٢٣٨ ، خشى الجواد صاحب دمشق ان يتعـــرض للغزو من قبل مصر بالاشتراك مع الناصر داود ، فطلب الى الصالح ايوب أن يأخـــذ دمشق مقابل أن يعطيه بعض الجهات فى الجزيرة. غير أنه صار لايوب من الشـــهرة ما أقلق جيران دمشق. ولذا فانه بعد أن توطد مركزه فى دمشق توجه الـــــى فلسطين ليتجهز لغزو مصر ، غير أن عمه الصالح اسماعيل خرج من بعلبك وصحـــب معه المجاهد امير حمص ، وانتزعا دمشق من يد المغيث عمر بن الصالح ايوب (٣٠ سبتمبر ١٢٣٨م) واذ تخلى عن ايوب عساكره فلم يبق معه سوى ثمانين مملوكـــا ، وقع فى اسر الناصر عند نابلس ، وتقـــرر حبسه فى الكرك [2] .

وفى مصر سارت الامور زمن العادل الثانى من سىء الى أسوأ [3] ، فيما اشتهر به العادل من الاسراف البالغ ، بدد ما تركه الكامل من رصيد كبير مـــــن الاموال (الذى بلغ نحو ستة ملايين دينار ، عشرون مليون درهم) وثارت العداوة الصـــريحة بين الاتراك والكـــرد فى الجيـــش المصـــرى، ونزع المماليك الـــى التمرد والثورة [4] ، وماكان من المبادرة الى أن يدخل فى النظام الايوبـــــى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٧٥

(٢) ابوالفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٧٣
ابوشامه : ذيل الروضتين ص ١٦٩

(٣) Setton: op. cit. Tome II. P. 706

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٧٥ ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٠

قوة جديدة وغرض جديد ، انما اتخذها المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماه • ولما اشتهر به من الاعتقاد فى سياسة التحالف مع مصر ضد الحلف التقليدى المؤلف من دمشق وحمص وحلب ، كان من الامور البالغة الاهمية عنده أن يكون بمصر سلطان قوى • كل آماله تركزت حول الصالح ايوب[1] • بعد أن حلف له انه فى مقابل مايبذله داود له من مساعدة لولاية الحكم بمصر يجعل الصالح ايوب له حكومة دمشق والجزيرة • وفى نفس الوقت نفذت الرسائل الى الخوارزمية ، تحثهم على أن يهاجموا حلب وحمص[2] وابتسم الحظ لايوب بعد أن ظل حتى وقتذاك عابسا فى وجهه • وبينما كان العادل الثانى يتجهز للمسير الى فلسطين للقاء داود وايوب ، القى القبض عليه عساكره من الترك فى ٤ مايو ١٢٤٠ ، وجرى انفاذ رسالة عاجلة الى ايوب ، الذى دخل القاهرة فى ١٨ مايو هتفوا به سلطانا[3] وتحقق عندئذ عقد الصلح المنفرد مع الفرنج الصليبيين تنازل فيها عن صفد وشقيف عرنون وما تبقى من صيدا وطبريه وانصرف الصالح الى اعادة تنظيم مملكته فى مصر بدلا من أن يهتم بما جرى فى الشام من احداث •

فى مايو سنة ١٢٤٢ تعرضت حملة مصرية قادمة من غزة المهزومة بالقرب من بيت المقدس على ايدى الناصر داود صاحب الكرك والداوية ، ومع ذلك فانه

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨١

(٢) ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٨٠

(٣) Runicman: op. cit. vol III P. 210

حدث بعد شهور قليلة أن اشترك الناصر داود مع قوات مصرية من غزة للقيام بغارات انتقامية على املاك الصليبيين بعد أن اغاروا على نابلس فى ٣٠ أكتوبر. غـــير أن ما احرزه المغول من انتصارات حمل الايوبيين على المبادرة الى تســـوية منازعاتهم غير أن المفاوضات حبطت لارتياب الصالح اسماعيل فى الصالح ايـــوب. فلجأ اسماعيل الى تجديد التحالف مع الفرنج ، وفى ربيع ١٢٤٤ تنازل لهم عن بيت المقدس[1] ، بعد موافقة داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص . فما ارتكبـه الكامل من حماقة قبل خمس عشرة سنة صار امرا مسلما به بل تجاوز الحد بـــأن سلم اليهم قبة الصخرة.

على أن مخاوف الصالح اسماعيل تستند الى اساس سليم ففى يونيـــة ١٢٤٣ أرسل المظفر صاحب حماه ، الذى يحرص بالاتفاق مع الصالح ايوب ، سفارة الى الامراء المشارقة وبغداد ومن تعاليمه لرئيس السفارة أن يتصل بالخوارزميـــة فى طريقة ، وأن يدعو زعيمهم بركتخان لمساندة ايوب ازاء اعدائه بالشام[2] ، وفـــى صيف سنة ١٢٤٤ انساب ما يزيد على عشرة آلاف منهم فى البقاع واستولوا على بيـــت المقدس بعد حصار قصير الامد (٢٣ أغسطس) واحتلوا فلسطين وانحازوا الـى القوات المصرية بغزة[3] . قام المنصور صاحب حمص مرة أخرى بالمبادرة الى عقـــد

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٩٥
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤١
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢
(٢) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٤
(٣) Howorth: History of the Mongols. vol III P. 456

حلف مؤلف من المسلمين والفرنج بالشام لمناهضتهم زحفت على غزة الجيوش المتحالفة من حمص ودمشق والكرك عكا [١] . على أن الخوارزمية والمصريين بقيادة الامير ركن الدين بيبرس انزلوا الهزيمة الساحقة بالفرنج فلم ينج من القتل سوى نحو (٥٠) من الداوية والاسبتارية) . اكتوبر ١٢٤٤ بادر بيبرس بقواته لحصار عسقلان بينما استولى حكام الصالح ايوب على السلطة بفلسطين وكان حادث استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سببا مباشرا من أسباب الحملة السابعة .

وللحملة السابعة أهمية خاصة فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ مصر ، نظرا لأنها عاصرت تلك نهاية الدولة الايوبية وبداية دولة المماليك ، وقد بدأت الدعوة للحملة سنة ١٢٤٥ فاستجاب لها الملك لويس التاسع الذى اشتهر بالتقوى والصلاح وكانت أحوال العالم المسيحى وقتذاك شديدة الملائمة [٢] ، اذ اجتاح التتار العالم الاسلامى حتى وصلوا لتخوم بغداد ، وبعد هزيمة السلاجقة أصبح الطريق الى بلاد الشام مفتوحا [٣] . وفى سنة ١٢٤٣م قاموا بهجوم على سوريا عن طريق ميافارقين وماردين والرها وتقدموا عبر الفرات الى حلب ووصلوا الى باب جيلان ويشير طشيوباريس الى أن اهلها دفعوا جزية . [٤]

---

(١) Camp Med. Hist. vol IV. P. 636

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٦

(٣) Howorth: op. cit. vol III P. 456

(٤) Howorth: op. cit. vol III P. 456

ونظر المسيحيون الى قوة المغول وتهديدها للعالم الاسلامي نظرة ارتياح ورأوا من الخير لهم ترك كلا الفريقين يصارع الآخر حتى يقضيا على بعضهما البعض وعندئذ يصبح بوسع البابا التأثير عليهم ونشر سلطانه عن طريق نشر المسيحية • وبهذا يتوقف توسعهم اتجاه اوربا واعتقد البابا ان باستطاعته تأليف حلف صليبي مغولي فيصبح الشرق الاوسط بين شقي الرحا فيهجم المغول على الشرق الاسلامي من الناحية الشرقية في حين يقوم لويس التاسع بالهجوم على فلسطين والشام من ناحية البحر المتوسط[١] • ولقد تناسى البابا شيئا هاما وهو أن المغول قد قاموا بالفعل بمهاجمة البلاد المسيحية مثل انطاكية وجورجيا وهنغاريا وطرابزون • واستنجد الحشيشية بالغرب للوقوف امام هذا الخطر المشترك ولكن لم يجدوا آذانا صاغية ولم يجدوا استجابة الا عند فردريك بربروسه •

ارسل البابا مبعوثين ١٢٤٥ م لمحاولة اقناع المغول بتنفيذ هذا التحالف فأرسل

ولكن الخاقان اصر على أن يدخل البابا وجميع امراء الغرب في طاعته أولا • وأخبره أن المغول لا يعنون الا الفتح ولكن البابا انوسنت الرابع مازال مؤمنا بجدوى التحالف مع المغول فأرسل أحد الدومنيكان

في سفارة ثالثة فرحل عبر سوريا وقابل حاكم المغول في تبريز سنة ١٢٤٧ • وكان المغول مستعدين لمناقشة امر التحالف ضد الايوبيين اذ كانوا يعدون العدة لمهاجمة بغداد [٢] وكان اشتباك الصليبيين مع الايوبيين سيشغل مسلمي سوريا عن مد

---

(١) زيادة :(محمد مصطفى)حملة لويس التاسع على مصر ص ٨٣

(٢) Camb. Med. Hist. vol IV. P. 638.

العون الى الخلافة العباسية ، وارسل الدعاقان الى البابا مبعوثين ولكنه كان دورهما مقصورا على التشاور لا اتخاذ خطوات ايجابية . وارسل معهما البابا رسالة يبدى اسفه على عدم تحقيق التعاون ضد الايوبيين . (١) وحين شرع لويس فى اعداد الحملة جعل وجهتها مصر نظرا لان الدولة اللاتينية فى القسطنطينية لم تعد تثير اهتمام العالم الغربى ، فيسعى لانقاذها واستغرق الاعداد للحملة ثلاث سنوات وبلغت انباء تلك الاستعدادات الصالح ايوب عن طريق الامبراطورية فردريك الثانى الذى أنبأه لويس بصفته صاحب الحق فى عكا (٢).

ولم تشترك البندقية فى الحملة فى البداية حرصا على مصالحها التجارية فى مصر ، واشتركت بدلا منها بيزا وجنوة (٣) . وغادرت الحملة فرنسا ١٢ أغسطس ١٢٤٨ ورحلت الى ليماسول عاصمة قبرص ورأى لويس انه اذا استطاع الاستيلاء على دمياط فانه سيتخذها وسيلة للمساومة على بيت المقدس وسوف يغرى النصر البندقية للاشتراك فى الحملة (٤) ، وصل لويس التاسع الى قبرص فى سبتمبر ١٢٤٨ ، ظل مقيما بقبرص مدة طويلة حتى يكتمل احتشاد العساكر . غير أن ارجاء السير كان له آثرا سيئة ، منها وفاة كثير من النبلاء المشتركين ، ومنها ضياع فرص مواتية لمهاجمة مصر ذلك أن السلطان الصالح ايوب توجه على رأس جيشه

---

(١) Runicman: op. cit. vol III P. 260

(٢) ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٢١١

(٣) Heyd: op. cit. Tome I P. 404

(٤) Grousset: op. cit. Tome II P. 434

الى الشام وهاجم الناصر امير حلب ، وانصرف عساكره لحصار حمص اثناء شـــــتاء ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩ • والواقع أن هذه الشهور كانت فرصة مواتية للمبادرة بالمســير الى مصر• فالانتظار حتى فصل الربيع ليس له من معنى سوى أن الصليبيين ســوف لا يأملون فى أن يقيموا رأس جسر قبل حلول الفيضان فيصير اجتياز الدلتـــا أمر يكاد يكون مستحيلا وأن اثمرت تلك الفترة علاقات مع اطراف عديدة كالمغـــول والسلاجقة والبيزنطيين وأمراء اللاتين بالقسطنطينية ـ وامراء المورة• فسعـــى الملك لويس الى التحالف مع المغول ووصل اليه اثنان من النساطرة

بمثهم القائد المغولى ناثب الخاقـان الاعظـــم

وكان الخطاب يتحدث عن التقارب بين المغول والصليبيين وارسل لويس معـــه

وأخوة الذى يتكلم العربية ولكن الخاقان

كيوك كان قد توفى وتولت الامر[1] بدلا منه " زوجته ولقد اعتذرت عن عقد تحالـــف بسبب الصعاب التى تعترض الحملة فى تلك الفترة وتمنعها من ارسال حملـــة للغرب • ولم تصل البعثة الا بعد ثلاث سنوات ١٢٥٢ م بعد فشل الحملـــة وكانت تحمل خطاب كتلك التى يرسلها السادة الى اتباعهم ، وتطلب الانتظـــام فى ارسال الهدايا • وارادت القسطنطينية استغلال الحملة لصالحها بعـــد

---

(١) Setton: op. cit. II. P. 493

أن أضحى بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية فى حالة من الفقر يرثى لهـــا وتردت امبراطوريته فى مهاوى الانهيار وخاصة بعد ازدياد قوة حاكم نيقيـــة ولم تعد مملكة اللاتين فى القسطنطينية الا رقعة ضيقـــة [1] حول القسطنطينيـــة ولم يعد بينه وبين اتباعه الا ولاء اسمى ليس له وزن ولم يعد مستقبل الامبراطوريـــة شيئا جوهريا فه برغم امكانيات الاتباع المادية والبشرية فانهم آثروا الاشتراك فـــى حملة لويس التاسع على مصر على انقــاذ امبراطوريتهم ومن هؤلاء الاتباع حاكم أخيا حكام المورة • ارسل البلوبونيز دوق برجانديا لما اشتهر به هو وفرسانه من قوة وشجاعـــة ولقد قضى الدوق الشتاء فى اقناعه فى الاشتراك فى الحملة • ولقد اشترك بمـــا يقرب من اربع وعشرين سفينة حربية كاملة العتاد والمؤن وبدلا من ان يسمى لويـــس لالتماس المساعدة من امبراطور القسطنطينية • سعى هذا الامبراطور البائس الـــى الملك لويس التاسع [2] • رأى بلدوين فى تلك الحملة بارقة أمل لانقاذ امبراطوريـــته فسعى الى تغيير سير الحملة كما حدث فى الحملة الرابعة وتوجيهها الى البيزنطيـين فى نيقية أو مساعدتهم على الاقل ببعض قوات الحملة • وأرسل الامبراطور بلدويـــن

---

(١) Miller: Essays of the latin Orient P. 91

(٢) Joinville (Jean Sire de: The History of st. Louis. Trans. joan Evans P. 41

زوجته ماريا [1] بريين ابنة حنا بريين لمحاولة التأثير على لويس ، وكانت تمت له بصلة القرابة. اورد جوانفيل مؤرخ الحملة ، وصفا لتلك الرحلة. كان جوانفيل يميل لحكام القسطنطينية اللاتين ، وتبادل مع بلدوين الرسائل العديدة ، وكان جوانفيل وبعض الامراء الصليبيين يميلون الى مساعدة القسطنطينية. واستقبلها جوانفيل وحملها رسائل تأييد من حوالى مائتى من الصليبيين يظهرون الود واستعدادهم لتأييد بلدوين ، بل أكد لها انه وحوالى ثلاثمائة فارس على استعداد للذهاب فورا الى القسطنطينية اذ وافق الملك لويس ، بل وانهى الى لويس رغبته . ولكن لويس رفض هذا الرجاء فعلى الرغم كان يميل الى الاستجابة لرجاء الامبراطورة مارى بريين فانه صارحها بأنه من الاجدى ان تتجه الحملة الى المسلمين والى مصر بالذات نظرا لانه لا يحتمل تشتيت قواته وتوجيهها الى جبهتين . وكان لويس شديد الاقتناع بالا جدوى من مساعدة القسطنطينية . وكل ما فعلته ماريا أن عقدت زواج شقيقها حنا دى بريين صاحب عكا على كونتيسة مونتفيورت .

أما موقف الايوبيين من الحملة السابعة ، فان الصالح أيوب كان يعتقد أن الحملة ستتوجه الى الشام . ولكن بعد أن تبين له أن الحملة موجهة الى مصر

---

(١) Joinville: op. cit. P. 41

وسارع بالعودة الى اشموم طناح ليكون فى مقابلة الفرنج اذا وصلوا الى دمياط[1] وارسل الجيش بقيادة فخرالدين بن شيخ الشيوخ وامر باعداد دمياط وتجهيزها بمستودعات الذخيرة والاسلحة والمؤن واعداد اسطول نهرى ، ولكن لويس استطاع الاستيلاء على دمياط وانسحب فخر الدين بجيوشه ، ورحل الصالح بالجيش الى المنصورة ، وتأخر لويس فى الزحف الى القاهرة ، وبدأ ارتفاع النيل ولم يكن امراء الصليبيون الذين يرافقون لويس يبدون اهتماما بالحملةوصيرها .

وفى الوقت الذى اتخذ فيه لويس طريقه الى المنصورة توفى الصالح ايوب فى ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ . ولم يكن لوفاته تأثير مباشر على الموقف بفضل الادلة القوية التى أنشأها ، وهى المماليك التى استكثر منهم وما اشتهرت به زوجته شجر الدر من قوة الشخصية ، اذ اخفت خبر وفاة الصالح وتولت الادارة باسمه بموافقة المماليك البحرية ثم استدعت توران شاه بن الصالح من حصن كيفا غير أنه لم يصل حتى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠م[2] .

وبعد فشل حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٥٠ م سعى حاكم طرابيزون الى التقرب الى لويس اثناء حصار صيدا ، كما ذهبت وفود من السلاجقة بالهدايا الى لويس التاسع سعيا للتحالف ضد مصر.[3]

---

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب جـ ٢٧ ورقة ٩٠ ومخطوط رقم ٥٤٩ ا تاريخ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ورقة ٣٥٥ (مخطوط رقم ٥٣١٩) تاريخ

(٢) لم يلبث تورانشاه فى الحكم سوى شهور حتى قتل على يد المماليك واهم ماترتب على مقتله من تطور فى تاريخ الشرق الاسلامى وسقوط الدولة الايوبية وقيام دولة المماليك زيادة حملة لويس التاسع ص ٢٠٦

(٣) Joinivlle: op. cit. P. 180

(الفصل السادس)

" العلاقات الحضارية "

العلاقات الاجتماعية — تبادل الزيارات — التسامح الديني — التأثير الحضاري المتبادل بين العرب وبيزنطة — أثـــر الحـرب الصليبية على الايوبيين والبيزنطيين — اثر العـرب وبيزنطـة في الحضارة الايطاليـة — التجارة — الاجـراءات الجمركيـــة ...

———

العلاقات الاجتماعيـــة :

تبادل الزيــــارات :

تحتل الامبراطورية البيزنطية موقعا ممتازا ، اذ تقع فى ملتقى الاتصال بين آسيا واوربا وافريقيـا ، وتمر بها كل الطرق البرية والبحرية التى تصل بيـن اوربا الشرقية والبحر المتوسط [1] ، ورغم قيام الحروب الصليبية واضطراب التجارة ، ثم سقوط القسطنطينية ، وتعذر السير ، وصعوبة الرحلـة لاسباب سياسية وطبيعة ، فضلا عن العلاقات العدائية ، فان كثيرا مـن الرحالة العرب زاروا القسطنطينية التى نزلت بها جاليات اسلامية ولا سيمـا من سوريا [٢] ، والملحوظ ان البيزنطيين لم تجذبهم الرحلات لتدويـن تقارير عن مشاهداتهم فى الشرق ، بعكس الرحالة العرب الذين زاروا بيزنطة وعرضوا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية ، والمعاملات ، والتجارة ، والادارة ، ساعدت المسلمين فى فترة فتوحهم الاولى على تنظيم احوالهم الاداريـة ، وصف العرب الطرق المؤدية الى بيزنطة ، والزمن الذى يستغرقه المسافـر فى رحلته ، بل اعطتنا صورة عن التسامح والمعاملة الطيبة التى لقيهـا العرب من الحكام البيزنطيين [٣] ، فلم يتعرضوا للكراهية التى تعرض لها اللاتيـن [٤] ، بـل ان التقسيمات الجغرافيـة التـى

---

١) Baynes (N.) : Byzantium. P. 67

٢) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٥٨

٣) Baynes : op. cit. P. 68.

٤) كلاوى : فتح القسطنطينية ص ١٣٢

اورد ها العرب لبيزنطه ، اعتمد عليها الجغرافيون الغربيون ، وكتب كثير من الرحالة العرب عن القسطنطينية في الفترة السابقة للحروب الصليبية امثال هارون بن يحيى الذى كان اسيرا فى القسطنطينية ثم ابن خرداذبه (١) .

اما فترة الحروب الصليبية التى ساد فيها انهيار بيزنطة ، فأن الرحالة العرب بهرتهم بيزنطة بحضارتها وثرائها وآثارها وعجائبها ، وابدوا اعجابهم بالمدينة التى وصفها روبرت كلارى بأن فيها ثلثى ثروة العالم ، فزارها الرحالة العرب الهروى ، والادريسى فى حكم آل كومنين و (٢) .

وكتب الجغرافيون العرب عددا من الكتب الجغرافية ـ انطوت فصول منها على وصف كامل لبيزنطة ومدنها وتقسيماتها الجغرافية ومن هؤلاء الجغرافيين ياقوت الحموى الذى ذكر الفترة التى كانت فيها بيزنطة فى يد الفرنج (٣) ثم ابن الاثير الجزرى الذى الف كتابا جمع فيه بين جميع كتابات الرحالة الذين زاروا القسطنطينية فى تلك الفترة ، وتشرح تلك الرحلات العلاقة الوثيقة بين الجانب الاسلامى والبيزنطى

---

(١) Brooks : Arabic lists : P 27 (journal of Hellenic studies vol: xxi.

(٢) Miller : op. cit. P. 262.

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١٠ ص ٣٦٠

فالهـــــروي الذي زار القسطنطينية في عهد مانويل بهرته عظمـــة بيزنطة وثروتها ، وكان الهروي مقربا من الملك الظاهر بن صلاح الدين، ويورد الهروي وصفا لاسواقها وميادينها وآثارها ومنازراتها ، ويعقـد مقارنة بين منارة الاسكندريـة ومنارة القسطنطينية "العمائر العجيبـــة بمدينة القسطنطينية ، منها منارة موثوقة بالرصاص في البضرم وهوالميدان ويورد وصف لبلاط الملك ويذكر الصليب المجنون وحكايته ، والبيمارستانات ، ثم يذكر التسامح الذي يغمره الرحالة والمعاملة الطيبة التي يلقاهـــا المسلمون ، والتي لقيها هو من الامبراطور مانويل . كما يذكر كنيســة ايا صوفيا اذ اشار الى انه سيذكر ترتيب هذه الكنيسة وقلعها وابوابهـــا وعلوها وطولها وعرضها والعمد التي بها وعجايب هذه المدينة واوضاعهــا والسمك الذي بها ، وباب الذهب وجميع ما بها من الاثار والمجايـــب ، مما فعل الملك مانويل معي من الخير والاحسان ، في كتاب العجايب مما اذكر كما تقدم ان شاء الله تعالى وهذه المدينة (القسطنطينية) اكبر مـــن اسمها نسأل الله تعالى ان يجعلها دار الاسلام بمنه وكرم ".(١)

---

(١) الهروي : الاشارات الى معرف الزيـــارات ورقة ١٩٧
(مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧٤٧٤ جغرافيا)

اما الرحالة الثانى فهو الادريسى الذى رسم صورة تقريبية لما اورده الهروى فتحدث عن المزارات الاسلامية وقد رأى الكهف "اصحاب الكهف فهم فى كهف فى ربتلق ونيقية " وتحدث عن بيزنطه ، ومدنها وشواطئها وموانيها كطرابيزون ومسنية وسالونيكا فالساحل البيزنطى كله اجوان وجبال " وتكلم عن قوة منشآت بيزنطة التى اقامتها لحماية شواطئها ومدنها ، وعن خليج القسطنطينية ، الذى يصل بين القسطنطينية وبحر الشام وطوله ، وعن المآصر والابراج ، وكلن للخليج ، فوهتان احداهما تتصل ببحر الشام فى جهة الجنوب ، وتحدث الادريسى عن تقسيمها الجغرافى (١) فى حين لم يعط المؤرخون الغربيون معلومات وافية عن ذلك ولقد وصفها وصفا دقيقا ، لم يرد لدى اى مؤرخ يونانى فاورد فى البلوبونيز ١٣ مدينة واشار الى نباتات كورفو واثينا .

واجمع رحالة ذلك العصر على الاشادة بما نعموا به من معاملة طيبة ، وما يلاقيه المسلمون ، رحالة وتجار ، من حسن معاملة . وكان جميع الرحالة على دراية بعلماء اليونان وفلاسفتهم وابدوا اعجابهم بهم .

وما حدث من تبادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين

---

(١) Miller : op. cit P. 262

كان لها مراسيم استقبال خاصة ، تجرى على اسلوب دقيق عند كلا الجانبين ولقد انفق الاباطرة البيزنطيون الاموال الضخمة على البعثات والضيوف الذين قاموا بزيارة القسطنطينية متشبهين بالبلاط الشرقي [١] . وشغل عرب المشرق مركزا رفيعا عن عرب المغرب في البلاط البيزنطي ولقى سفراء الايوبيين من قبل نور الدين والعباسيين كل تكريم [٢] ، وتدلنا الحوليات البيزنطية على أن الاباطرة اهتموا بتزويد سفرائهم بالثروة حتى يبهروا العالم الاسمى . وكانت مظاهر الاحتفال تتمثل في المجاملات الدبلوماسية ، وعرض القوات العسكرية ومشاهدة آثار العاصمة ، وكتاب الامبراطور قسطنطين الذى ألف في القرن العاشر والمعروف باسم يعرض وصفا لمراسيم البلاط البيزنطي للاستقبالات [٣] وبرغم فترة الضعف والانهيار الاقتصادى ، امتازت بعثات بيزنطه الى الشرق بالفخامة. ولقى البيزنطيون من الجانب الاسلامي كل اهتمام وكانت البعثات الاسلامية والبيزنطية تصحب عادة مترجمين يجيدون اللغة العربية واليونانية ، وكان كل من البيزنطيين والمسلمين ، يسعى الى اختيار سفرائه من الاشخاص المقربين الموثوق بهم [٤] وكانت البعثات البيزنطية الى الخارج

---

١) Runciman : op. cit. vol. III. P. 475.

٢) Baynes : op. cit. P. 312.

٣) Baynes : op. cit. P. 312.

٤) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٨٦

ترحل فى حاشية كبيرة ، محملة بالهدايا والالطاف السنية والجواهر والذهب والحرير والحيوانات النادرة ، وكذلك امتازت سفارات الجانب الاسلامى ايضا بالبذخ ، واهتم العباسيون بامر التقاليد الدبلوماسية ، وكان السفراء يوضعون عادة تحت رقابة دقيقة [1] واستمرت تلك التقاليد سائدة فى عهد الدولة الايوبية التى حرصت على علاقات الصداقة والود .

وحرص ديوان الانشاء على استخدام صيغ وعبارات خاصة ، فى الكتابة الى الاباطرة البيزنطيين .

كانت هناك صيغة خاصة يخاطب بها امبراطور القسطنطينية او ... مراتب التفخيم ، وكانت الصيغ فى الحرب تختلف عنها فى السلم بما تشتمله من دعاوى وتقديم وتفخيم ، وفى الفترة التى تلت سقوط القسطنطينية ١٢٠٤ وانقسامها الى ممالك اتخذ ديوان الانشاء صيغة تلائم كل حاكم ، اذ جعل صيغا خاصة بحكام نيقية وصيغا خاصة بحكام سالونيك ، ومن الالفاظ التى اعتادت الدبلوماسية اطلاقها على الامبراطور نمطان [2] ، النمط الاول ، اكثر مافيه صفات الشجاعة مثل الاسد الضرغام ، الهمام ، الغضنفر ، الباسل ثم القاب مركبة .

١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٨٥

٢) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا جـ ٨ ص ٤٣

مثل العادل فى ملكه حامى البحار والخلجان ، ضابط المماليك الرومية ، الذى يحكم باسم الله ، الذى لا يقهر [(١)] وكان للدبلوماسية البيزنطية هى الاخرى اساليبها الخاصة بها ولها مايشبه ديوان الانشاء ، اذ احاطت نفسها بشبكة من الصداقات والمودات القريبة والبعيدة ، وانتهج الاباطرة البيزنطيون نهج الملوك الشرقيين فازدهرت الحركة الدبلوماسية ، وان كانت اساليب بيزنطة لا تصل الى فخامة الاساليب الاسلامية الشرقية التى امتازت بكثرة القاب المديح وهى مثال رسالة اسحق الى صلاح الدين : —

" من ايساكيوس (اسحاق) الملك الخادم المسيح ، المتوج بفضل الله الذى لا يقهر ، طاغية اليونانيين ، انجليوس ، الى عظمة سلطان مصر ، صلاح الدين ، خالص المجد والود والصداقة "

ولقد كان العادل اخو صلاح الدين بمثابة وزير الخارجية لأخيه ، وكان يقوم باستقبال البعثات الدبلوماسية والاشراف على اقامتها [(٢)] .

---

١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٨ ص ٤٣

٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٨ ص ٤٣

والفترة الاولى من حكم الايوبيين تخللتها سفارات عديدة من كلا الجانبين وهى فترة حكم صلاح الدين وابنه العزيز وحكم اندرونيكس واسحق انجيلوس من الجانب البيزنطى [١] . اما الفترة التى تلت سقوط القسطنطينية فلم تتبادل فيها سفارات ، ثم كثر تبادل السفارات زمن المماليك واسرة باليولوجوس وحرص صلاح الدين على استقبال السفراء البيزنطيين ، وتفويض العادل فى رعايتهم كما حدث فى السفارات التى استقبلها من قبل كل اندرونيكس واسحق [٢] ، اما سفاراته الى الجانب البيزنطى كسفارة سنة ١١٨٥ فكانت تحمل نفائس وحيوانات وانواع البهار التى يهتم بها الشرق البيزنطى ، ولقد قدرت بما يقرب من ٦٦٧٥٠ هيبادوس[٣] .

وكان رد اسحاق على ذلك بهدايا تضارعها فى الفخامة منها تاج مرصع واستقباله الرسل فى قصر متسع استقبالا عظيما واحاطهم بمظاهر الاحترام . وفى سنة ١١٩١م ارسل اسحاق مرة اخرى رسولا وهدايا وقام العادل باستقبالهم ، وكان يصحب كل تلك السفارات مترجم يجيد اليونانية والعربية ، والفرنسية وكان صلاح الدين يرسل من يثق فيهم

---

١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٢٩

٢) ابو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٣١٩

٣) عملة بيزنطية

من السفراء وممن يجيدون اللغة اليونانية ، فأرسل ابن البزاز المصرى سفيرا [١] ولما كانت تتطلبه تلك المهام من مهارة ودقة ، بل ان بعض السفارات الشرقية حظيت بما لم تحظ به سفارات الغرب وكان الغرض من تلك السفارات الحرص على اقامة الشعائر الدينية واقامة جبهة ضد اللاتين .

التسامح الديني :

نعم مواطنو كلا الجانبين البيزنطى والاسلامى برعاية الطرف الاخر للتسامح رحالة والتجار سواء ، ونعم المسلمون برعاية لم يحظ بها اللاتين [٢] . وتردد صدى المعاملة الطيبة التى لقيها المسلمون فى كتابات الرحالة ، وفى رسائل صلاح الدين الى اباطرة القسطنطينية ، فالمزارات الاسلامية تنتشر فى طول الاراضى البيزنطية وعرضها وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية زمن اللاتين . كما أن كلا من القزوينى وابن سعيد المغربى المغربى عاصروا تلك الفترة .

---

١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٢٩

٢) بنيامين : رحلة بنيامين ص ٧٧

وكان مما استرعى انتباه الهروى كثرة المزارات الاسلامية ومقابر المسلمين ، الذين استشهدوا فى القسطنطينية التى تلقى كل رعاية من الدولة واحترام من البيزنطيين . وكذلك اشار الى الجوامع المقامة فى القسطنطينية والتى يتردد عليها المسلمون ويؤدون شعائرهم بلا حرج ولا ضغط من السلطات البيزنطية . ففى جانب سورها قبر ابو الايوب الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه خالد بن يزيد ، وبها الجامع الذى شيده مسلمه بن عبد الملك والتابعون ، وفيه قبر رجل من ولد الحسين . بل نجد ان فى مدينة كسالونيك ونيقية ان الكنائس تجاورت التى الى جانب الجامع" وفى مدينة قونية قبر افلاطون الحكيم بالكنيسة الى جانب الجامع ـ فى مدينة الاموق وهو موضع ببلاد الروم يزار فى الافاق ويقال ان بها شهداء عمر بن الخطاب ويقال انهم لا يبلون وهناك كنيسة لطيقة ومسجد فان كان الزائر مسلما اتوا به الى المسجد وان كان نصرانيا اتو به الى الكنيسة ، وزار مدينة ابسيس[1] ، وبها الكهف الذى ذكر فى القرآن ، فرحلة الهروى خير مثال على مدى العلاقات الوطيدة وعلى مدى التسامح ، رغم ان الفترة التى زار فيها القسطنطينية وهى فترة حكم مانويل[2] ، كانت تتخللها الحملات على مصر .

---

(١) ابسيس هى افسيوس

(٢) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات ص ١٩٧

واهتم صلاح الدين وخلفاؤه بعمارة جامع القسطنطينية وارسال المقرئين اليه ، وحظى المسلمون بالرعاية والحماية من السلطات البيزنطية [1] .

ولقى البيزنطيون الرعاية من صلاح الدين وخلفائه ، فكما اهتم صلاح الدين بعمارة مسجد القسطنطينية اهتم اسحق بأمر الكنائس اليونانية والشعائر والسماح للمسيحيين بتأديتها ، والسماح باخراج موتاهم بالشموع بل وارسال صلاح الدين الى بيزنطة الصليوت ، واشتهر ملوك الايوبيين بتسامحهم كما لقى المسيحيين اليونانيون وخاصة فى انطاكية معاملة طيبة ، بل ان صلاح الدين حول بعض الكنائس التى استولى عليها الى المذهب الارثوذكسى ، وكان اليونانيين فى بيت المقدس يفضلون حكم المسلمين على اللاتين ، ونعم المسيحيون عامة رغم الحروب الصليبية بتسامح كبير من الحكام الايوبيين ، واشتهر الملك الكامل بتسامحه وكرمه وقامت علاقات بينه وبين الامبراطور فردريك الثانى [2] ، فأفاد من تلك المعاملة الطيبة المسيحيون جميعا سواء اللاتين او اليونانيون ، وكان صلاح الدين فى بداية حكمه قد استغنى عن خدمات المسيحيين فى الدواوين ولكن لم يلبث ان اعادهم سنة ١١٧٧م الى اعمالهم لدرايتهم

---

١) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات ورقة ١٩٧ .

Lane - Poole : A Hist. ory of Egypt. P. 240.

بالاعمال الديوانية فى تلك العصور • واتخذ العادل كاتبا قبطيا من اسرة النحال ، ووافق القبط صلاح الدين فى غزواته [1] ، وكان القاضى شهاب الدين الطوسى قد اغلق كنيستين فأمر صلاح الدين بفتحهما ، وكان فى خدمة الملك الكامل الطبيب ابو شاكر [2] ورفض الكامل تعمير مسجد بجوار الكنيسة المعلقة بمدينة الفسطاط ، بناء على رجاء طبيبه • وبرع بعض الاقباط فى العلوم العربية • وابدى بعض الارثوذكس كثيرا من سرورهم بوجودهم فى مصر • لانّ العادل أحسن معاملتهم دون الكاثوليك على خلاف ماكان يفعله الصليبيون ، وكان عدد الكنائس يربو على مائة كنيسة ، وكان المسيحيون يتعرضون لغضب المسلمين خلال فترات قيام الحملات الصليبية فقط ، على حين ان الصليبيين كانوا يعتدون على اراضى كل من المسلمين والمسيحيين •

التأثير الحضارى المتبادل بين العرب وبيزنطه :

ظلت الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية قرونا عديدة على اتصال وثيق برغم العداء السافر والحروب التى نشبت بينهما وتأثرت

---

١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ٢٤

٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٧ ص ١٠

كل منهما بالاخسرى فى النواحى الحضارية والفنية والفكرية ، اذ استمد كل منهما حضارته من التراث الكلاسيكى الاغريقى ، فالفتوح العربية امتدت الى مراكز الثقافة الهلينيه أمثال أنطاكية فى الشمال وقيصرية وغزه فى فلسطين والاسكندرية بمصر ثم حران ومراكز الحياة الفكرية الهلينية ،[1] كما افاد العرب من الحضارة الفارسية والحضارات القديمة فى العلم والفن قبل أن يدخلوا فى عداد الامم ذات الثقافة ، وما قام من علاقات ودية وسنى تبادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين اسهم الى حد كبير فيما تأثر به المسلمون من النظم البيزنطية .

أما بيزنطة فقد تأثرت بالشرق العربى حتى أصبحت توصف بأنها دولة بيروقراطية نصف شرقية .[2]

ولكن قيام الحروب الصليبية دفعت العالمين البيزنطى والاسلامى الى توجيه انظارهم وقواهم الى المجال الحربى والعسكرى وصرفهما عن

---

(١) Camb. Med. Hist. col IV. P. 774

(٢) Baynes : op. cit. P. 322.

المجال الحضارى ومجال توطيد العلاقات السلمية فى الفنون والآداب
فلم تحدث اشتباكات وحروب مثلما حدث فى الفترة السابقة[1] • وان
كان العنصر الاسلامى الذى تأثر ببيزنطة فى تلك الفترة هو
سلاجقة الروم فزخرت ملاحمهم بالحديث عن حروبهم مع
بيزنطة • وكان السلاجقة على اتصال وصراع دائم بالقسطنطينية
ونشأت بينهم علاقات عديدة وتسربت الحضارة البيزنطية اليهم تأثر
بناء المساجد فى قونيه بالانماط اليونانية والتقاليد الفنية
البيزنطية[2] • وسعى البيزنطيون للتبشير بالمسيحية ونجحوا
الى حد ما فى الفترة الاخيرة من التاريخ السلجوقى ، وارتبط
بعضهم بعقد المصاهرة مع البيزنطيين • ولكن هذا لايمنع
من وصول بعض التأثيرات البيزنطية فى تلك الفترة اذ كان من
التجار سواء من العرب والبيزنطيين يجد لغة الآخر كما اشار

---

(١) Bayens : of. cit. P. 222

(٢) Miller : Essays on the Latin orient p.527

(٣) كان لكل من كونت طرابلس وحاكم انطاكية حرس من المسلمين الاتراك كانوا من المولدين من امهات يونانيات •

Miller ; op. cit. P. 527

كما اشار الى ذلك ابن جبير [1] ، وتسربت كثير من الالفاظ العربية الى اللغة اليونانية ولاسيما في المجال التجارى كالفاظ Admiral, Dinarus وكذلك اسماء بعض المنسوجات ودفع لويس التاسع فديته بالدينار البيزنطى [2] . وهناك بعض امثلة قليلة للتعاون في المجال الثقافي فمنذ العصر العباسي اعتاد الطلاب التردد على القسطنطينية للتزود بالعلم . ففي اواخر القرن الحادى عشر كان يتردد على القسطنطينية طلبة من العرب بل من بغداد نفسها ، وقام احد علمائهم وهو باسيليوس بدراسة الآداب العربية واليهودية القديمة [3] . فما زالت التأثيرات البيزنطية المعمارية واضحة في العمارة في العصر الايوبي ، وما زال بعض المهندسين اليونانيين يسهمون في العمائر الاسلامية ، ومن الدليل على ذلك الثلاث بوابات التي بنيت

---

١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢١٣

٢) Wiet : op. cit. P. 282

٣) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص

فى عصر العزيز عام ١٠٧٨م وهى باب النصر ، باب زويلة ، باب الفتوح والتى قام ببنائها ثلاثة اخوة من الرها وكانت على الطراز البيزنطى وتم تجديد تلك البوابات بواسطة احد الرهبان اليونان فى العهد الايوبى (١) .

وتمثل عمائر صلاح الدين الحربية فى القاهرة قواعد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية ، الحربية البيزنطية أحسن التمثيل وتوضح مدى التفاعل بينهما وبنا الحصون فى بلاد الشام يبدوا فيه هذا التأثير (٢) ، وكان الفرنج يسيرون وفق التأثير البيزنطى وان كان التأثير [illegible] ظاهرا

واهتم الامبراطور البيزنطى بعمارة الكنائس واصلاحها بالزخارف والفسيفساء اليونانية ولا سيما كنيسة بيت لحم (٣) ، واشتهر البيزنطيون بصناعة الفسيفساء وبالفنون الصغرى الخلسر البارز الذى برعوا فيه وخاصة الذهب والميناء ، وحاول المسلمون تقليدهم وان كانت [illegible] الاسلامية فى هذا المجال نادرة ، واورد المقريزى فى قائمته عن الكنوز الفاطمية ، لوحات ذهبية مزخرفة بالميناء متعددة الالوان وعرفى

---

(١) Lane- Poole : A Hist. of Egypt. P. 247.

(٢) سعداوى : الحرب والسلم زمن العدوان الصليبى ص ٢٠٨

(٣) Brooks : the relation between the Empire and Egypt P.285(Byzantinische Zeitschrift xxii

هناك الصور الفخمة – الجدارية الموجودة فى ابوغوش بلد المنسب ، وهى اعمال يونانية من القرن الثانى عشر .

اطلال الفسطاط على قرص من المعدن عليه زخرفة نباتية وكتابة بالمينا المحوطة بحواجز دقيقة Cloisine يرجع الى العصر الفاطمى (١)

واهم النماذج البيزنطية المعروفة فى صناعة المعادن المزخرفة بالمينا طاس من النحاس الاحمر محفوظ بمتحف فيرد يناند بمدينة Innsbruck وفى هذا الطاس زخرفة محفورة ، فى وسطها جامة مرسوم فيها صورة ، تمثل صعود الاسكندر ، وحولها جامات اخرى فيها حيوانات خرافية ، على ارضية من اشجار النخيل ، واشكال قائمة بذاتها ومع ان هذا الطاس بيزنطى الطراز فان عليه كتابة تثبت انه صنع لامير من امراء الدولة الارتقية فى بلاد الجزيرة حكم حوالى النصف الثانى من القرن الثانى عشر (٢) ، وقد كانت بيزنطة تستورد بعض النباتات الحيوية لديها من الدولة الايوبية كالملسان المستعمل فى المواد الطبية والشب الذى يستعمل فى الصباغة ، والبهار (٣) .

واثر سقوط القسطنطينية على النهضة الحضارية اذ تشتت السكان ، وتوقفت اعمال المدارس وتقاليدها ، ولم تكن الظروف مواتية لنهضة الآداب والفنون وازدهارها ، واستعادة مجدها القديم ، واصبحت

---

١) زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ص ١١٣
٢) زكى محمد حسن : تراث الاسلام ص ٣٥
٣) ابن الاثير : تحفة العجائب ، ١٥٧ ، ١٥٨)
مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا

القسطنطينية في حالة من الفقر والضعف حتى اختفى كل ماكان من اتصالها وسيطرتها على الكنائس الارثوذكسية ومنذ سقوط بيزنطة عام ١٢٠٤ م صار نفوذ بيزنطة وتأثيرها على الدول الاسلامية بالغ الندرة (١) .

اثر الحروب الصليبية على الايوبيين والبيزنطيين :

وللحروب الصليبية باعتبارها ظاهرة تاريخية لها تأثير كبير على كلا الجانبين الاسلامي والبيزنطي سواء من الناحية السياسية اوالحضارية فحين بدأت هذه الحروب كانا المركزان الاساسيان للحضارة هما القاهرة والقسطنطينية ، ولما انتهت انتقلت الحضارة الى ايطاليا والى مدن الغرب الغنية ، تأثر الاوربيون بكل من العرب واليونانيين ، فأبدوا اهتماما عظيما بمعلوماتهم في الادب والصناعة والفن . وكان الغرب في المرتبة الثالثة كما يشير جيبون ، ولكن الاحداث التي دارت حول الغربيين فتحت اعينهم على العالم (٢) .

---

١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٥٩

٢) Gibbon-s : op. cit. vol vi. P. 484

وعلى الرغم من ان الشعوب الغربية تفتقر الى الخيال ، حتى تتصور مايفيض بعالشرق الاسلامى من ثروة وخيرات ، فلن الاسرى والحجاج الذين رأوا القسطنطينية والقاهرة وتحدثوا عن جمالها وعظمتها وتراثها الذى كان له اكبر الاثر فيما عاد من فائدة على الغرب بينما عانى البيزنطيون والمسلمون من تلك الحرب ، ففى البداية تعرض العالم الغربى لهجوم الاعداء من جميع الجهات من النورمان والعرب والمجريين الذين جعلوا اقطارا اوربا الغربية فى حالة من الفوضى ، ثم كانت المرحلة الثانية فى القرن الحادى عشر حين خرج المسيحيون الغربيون فى اعداد ضخمة الى الشرق فى الحروب الصليبية [١] وبدأت العلاقات بينهم وبين الشرق فى مد وجزر ، وازدادت معلومات الغرب وتقدم خلال المائة عام التالية من الحروب ، ومدح كثير من الفلاسفة هذه الحروب ولكن تأثيرها صدم التقدم الحضارى فى الشرق البيزنطى والعربى واذا كان الغرب قد استفاد من الناحية الحضارية فان حياة واعمال مليون من الناس ضاعت هباء فى الشرق ، كان من الافضل ان تستخدم فى النهوض بأحوال العالم الغربى [٢] ، واذا نظرنا لتأثير الحرب بالنسبة للجانب الاسلامى فان الضرر كان اخف وطأة من التدمير

---

١) Gibbon : op. cit. vol IV. P. 486

Miller : op. cit. P. 572

٢) Gibbon: op. cit. vol vi p. 486

الذى اصاب بيزنطه [1] . فليست الحروب هى السبب الاساسى فى انهيار العالم الاسلامى كما حدث لبيزنطه ، اثر التوسع التركى فى الخلافة العباسية ، وكانت عوامل الضعف تنخر فيها . اما الخلافة الفاطمية فان ماتعرضت له من الفوضى والاضطراب ، وما توالى على البلاد من الازمات الاقتصادية ، فضلا عن المصادمات بين الوزراء وقادة العناصر العسكرية المختلفة ، كل ذلك اسهم فيمالقته الدولة الفاطمية من الانهيار ولم يكن للصليبيين دخل فى ازدياد قوة الترك ، اذ امد الترك الاسلام بقوة جديدة ، على ان تأثير الفتح المغولى كان اكثر ضررا بالنسبة للعالم الاسلامى والحضارة الاسلامية من تأثير الحروب الصليبية [2] ولا يمكن القاء تبعة استدعاء المغول على الصليبيين فرغم ان الصليبيين سعوا الى التحالف مع المغول ، فان من اهداف المغول الاساسية مهاجمة العالم الاسلامى والخلافة العباسية والايوبيين [3] ولكن الصليبيين كانوا ، سببا فى ضعف موقف المسلمين تجاه المغول وتشتت قواهم ، وكان قيام الولايات الصليبية داخل فلسطين وبلاد الشام له تأثيره السىء على تلك الاقطار ، ولم يمح من ذاكرة المسلمين على مر العصور ولم يحاول

---

(١) Runciman : op. cit pol. III.P. 474

(٢) Runsiman : op. cit. Pol. III.P. 473

(٣) Pirenne : the Tides of the History.Pol.II p. 185.

اهل البلاد تعلم عادات وتقاليد الغـزاة • فلم يسمح لهـم ديغهم بذلك • وحاولت لخلاقهم البسيطة دون محاكاة عاداتهـم فى السلم والحرب [1] • أما البيزنطيون فانهم شعروا نحو غزاتهـم اللاتين بنوع من الترفع اذ احسوا بتفوقهم فى الحضارة والفكر على شعب يقـل عنهم فى المستوى الفكرى والحضارى •

وأعلن البيزنطيون اثناء خضوعهم للاتين كراهيتهم الواضحة لسادتهم الجدد • ولم تجد نفعا محاولة كل امبراطور لاتينى فى التقرب من اهـل القسطنطينية • على ان قدوم الصليبيين اساء الى الخلافة العباسيـة فالنظرية الاسلامية فى الحكم تعتمد على ان الخلفاء الذين يستمدون سلطانهم من انحدارهم من نسل النبى [2] • وكانت الخلافة فى تلك الفترة عاجزة عـن قيادة العالم الاسـلامى من الناحية السياسية والجغرافية اذ خضعـت للبويهيين ثم السلاجقة ثم الخوارزميين واصبح الخلفاء الموثقين بيد وزرائهم وقادتهم • أما القادة الذين تولوا القتال ضد الصليبيين امثـال نور الدين وصلاح الدين الايوبى فلقوا كل تقدير فى سبيل توحيد العالم الاسلامـى •

---

١ Gibbon : op. cit. vol. VI. P. 483.

٢ Runciman : op. cit. vol. III. P. 473

اعترفوا بالسيادة الاسمية للخلافة العباسية فهم لا ينتمون للنبي بـــل ان كيانهم قائم على انتصاراتهم وفتوحاتهم • فالحروب الصليبيـــة واخطارها هي التي هيأت لبني ايوب الظهور وكمدافعين عن العالـــم الاسلامي ، فهم يمثلون القوة الحقيقية • ولقد ظل وجودهم مرتبطا بقيامهم بالدفاع عن المملكة الاسلامية ضد الصليبيين • واذ تهاونوا كان ذلك ايذانا بافول نجمهم • وقام الايوبيون بذلك الدور خيـــر قيام •

وامتد اضطهاد الصليبيين الى اخوانهم في الدين الارثوذكس الذين ينتمون الى الكنيسة الاغريقية البيزنطية (١) على حيـــن ان صلاح الدين طالما حمى المسيحيين الارثوذكس من اللاتين • واعاد اليهم كنائسهم • فالاسلام لم يعرف التعصب ومع ان كل عقيدة جديـــدة تسعى لاضطهاد اتباع العقائد الاخرى ، فان العقيدة الاسلاميـــة اعتبرت المسيحيين واليهود اهل ذمة ولم تسيء اليهم (٢) • والمعروف أن المسيحيون قاموا بنشاط مجيد في المجتمع ، بل ان عددا مـــن المفكرين والكتاب العرب كانوا مسيحيين ، وكان الاطباء عـــادة

---

(١) Runicman : Op. cit. vol. III.P. 473

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٣

وكان الاطباء عادة من المسيحيين [1] ، وكانت حرية العقيدة مكفولة بنصوص القرآن وحدث اثناء نشوب الصراع بين بيزنطة والمسلمين ان قامت علاقات ودية وسفارات [2] جرت مراعاة الناحية الدينية .

رغم ان الصليبيين اثناء الحروب قاموا بالاعتداء على الاراضى والمقدسات الاسلامية واساءوا الى المسلمين فان التسامح الذى تمتع به المسيحيون الشرقيون استمر .

ولقد اتسع صلاح الدين واسرته تجاه المسيحيين ولا سيما اتباع كنيسة بيزنطة سياسة قائمة على التسامح والشجاعة والفروسية حتى اشار مؤرخ غربى انه لا يمكن اطلاقا ان نقارن بين صلاح الدين ومعاملته المرنة تجاه الصليبيين بالخوارزمية أو المغول واحسن صلاح الدين الى المسيحيين فى شطرى دولته مصر والشام ، لم يفرق بينهم فى المذهب فان الشعب الاسلامى

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٩

(٢) Runciman : Op. cit. vol. III. P. 473

(٣) Runciman : Op. cit. vol.III. P. 473, 474

كان يكن الكراهية العميقةلغزاته ولم يترددوا فى بعض الاحيـــان من مواجهتهم بالمثل •

ومن ناحية بيزنطة ، لم يدر بخلد البابا ايريان الثانـــــى حين طلب الى الصليبين القيـام بحملة لمساعدة المسيحية الشرقيـة وانقاذ ها ، أن الحملات الصليبية ستوجه الى الحضارة البيزنطيـة ، وستكون معول هدم للمسيحية الشرقية ، وللامبراطورية التى طالمـا كانت مركزا من مراكز القوى المسيحية [1] • فالمعروف ان الشعـوب اذا اتصلت وتبادلت الزيارات تيسر الوصول للتفاهم • كانـــت علاقة بيزنطة والغرب اول الامر محدودة ، اقتصرت على موقف بيزنطـة من الحجاج الغربيين والجنود الذين اجتازوا بلاد ها وزاروا القسطنطينية فاستقبلهم الملك • ثم عادوا ليتحدثوا عن بيزنطة وثرائهـــا الذى بهر كل من زارها حتى فى فترات ضعفها كما تحدث عنهـــا الرحالة العرب والحجاج الفرنجة [2] • وقال عنها روبرت كـــلارى ان بها ثلاث ارباع ثروات العالم [3] على ان المشكلة الاساسية التـــى اثارت النزاع ، فتتمثل فى محاولات البابوية فرض سيطرتها علـــى

---

(١) Runciman : Op. cit. vol. III. P. 476

(٢) Baynes : Op. cit. P. 322

(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٢٢ ، ١٣٦

الكنيسة اليونانية ، فلما قرر النورمان مد سلطانهم فى البحر المتوسط ، تصادمت مصالح بيزنطة والعالم الغربى[1] ، وحين بدأت الحروب الصليبية كان لبيزنطة دور فى الدعوة اليها ، غير انه لم يلبث ان ظهر الاختلاف بين هدف الامبراطور من الحملات الصليبية وهدف اللاتين[2] اذ كان الامبراطور يرى أن تقوم الحملات الصليبية باستعادة حدوده التى استولى عليها الاتراك السلاجقة بينما كان هدف الصليبيين استعادة الاراضى المقدسة من اجل العقيدة لا لمصلحة بيزنطة ونزع الصليبيون الى اقامة امارات مستقلة ، ولم يوفِ قادتهم عما طلبه منهم الامبراطور من تقديم الولاء والتبعية ، اضحى الجنود والحجاج انفسهم يعيشون فى بلاد يختلف سكانها عنهم فى العادات والتقاليد واللغات والعقيدة التى يعتبرونها مخالفة لعقيدتهم ، واشتبك افراد تلك الحملات مع الاهلين وخربوا اراضى كثيرة من الولايات البيزنطية مما دعا بيزنطة الى اتخاذ موقف معادٍ فى بعض الاحيان وقيام جنودها بكبح جماحهم ،

(١ Runciman : Op. cit. vol.III. P.476

(٢ Miller : OP. cit P. 534

ففكر الصليبيون فى غزو بيزنطة ، فنصح قادة لويس السابع واساقفته بمهاجمة القسطنطينية ولكنه رفض ، وكذلك راودت تلك الفكر فردريك بربروسه ولكنها لم تتحقق حتى جاءت الحملة الرابعة التى استولت على القسطنطينية واقامت مملكة لاتينية بها (٢)

وكان هذا تشتيتا للحركة الصليبية ، فبدلا من تكتل القوى الصليبية لاستعادة الارض المقدسة ، فانها توجهت لقتال بلاد مسيحية بالغة الاهمية ، وغلبه على البابوية نفسها المصالح الدنيوية بان اقرت ماحدث من الاستيلاء على القسطنطينية ، ولم تجمل مالصليبين فى الشرق الادنى ، وحينما استعادت بيزنطة عاصمتها كان قد انتاب الكيان البيزنطى كثير من التدمير ، وحاول اللاتين استعادة نفوذهم دون جدوى ، ولم يكن سعى الغربيون للحاق الاذى ببيزنطة واراضيها الا تدميرا لا لبيزنطة فحسب ، بل تدميرا للحضارة الاوربية ، فالقسطنطينية كانت مركز الحضارة المسيحية العالمية ، وتعرضت الحضارة البيزنطية للتدمير على ايدى اللاتين وانتقل مركز الاشعاع الحضارى الى ايطاليا فى

---

(١) Runciman : Op. cit. col. III. P. 476.

(٢) Runciman : Op. cit. vol III. P. 476

القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أما من الناحية السياسية فلم تستطع بيزنطة استعادة مجد الامبراطورية القديم فبعد عام ١٢٠٤ م لم تعد هناك امبراطورية واحدة بالمعنى القديم انما قامت امارات عديدة متنازعة متنافسة ، تواجه عداء الغرب والولايات البلقانية المجاورة ولا تستطيع حماية البلاد طويلا ضد الترك ، فالصليبيين هم فعلا الذين حطموا الجبهة المسيحية الاولى ، وتسببوا في السماح للترك بالعبور الى جوف اوربا ولم تكن ضحايا المسيحيين الحقيقيين هم الفرسان الذين سقطوا في قرون حطين ولا على اسوار عكا ، بل اولئك المسيحيين في البلقان والاناضول [1] كما ان الحروب لم تسيء الى يونانيين بيزنطة بل الى اليونانيين في الممالك اللاتينية ، اذ تدخلوا في شعائر الكنائس وتخلوا عن حمايتها من المسلمين ، بل تعرض اولئك للسخط من قبل المسلمين فيما بعد لمحاولتهم التقرب من المغول لاعتقادهم ان المغول سوف يبذلون لهم الحرية فظهر انه لم يؤد ذلك الا لضياع اراضيهم

---

(١) Gibbons : Op. cit. vol. VI.P.466,468

وتخريب الساحل الشامى [١] ورغم خضوع اللاتين للتأثيرات البيزنطية وارتباطهم بروابط المصاهرة مع بيزنطة لم تحاول اى اميرة بيزنطية تزوجت فى المانيا ان تمارس الدعوة لبلادها • [٢]

افاد الصليبيون من صلاتهم بالعرب وبيزنطة• اذ كان الغـــرب بالغ التخلف ، فلما انتهت الحروب الصليبية بدأت نهضة جديـــدة فى الغرب [٣] افادت من حضارة الشعبين العريقين فالبيزنطييـــن والمسلمين ، اللذين استمدا حضارتهما وتراثهما من الشعـــوب القديمة مما حظى به الغرب من مظاهر الترف وما وصل اليه الحريـــر والسكر والسمسم والارز والليمون والبطيخ والثوم كل ذلك عن كل مـــن الاغريق ومصر [٤] •

ايقظت الحروب الصليبية الفكر الغربى ودفعت رجال الغـــرب لدراسة الاداب المختلفة لليونانيين والعرب وعلومهم • وتسربت بعـــض

---

١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩١

٢) Runciman : Op. cit. vol.III.P.472, 478

٣) Gibbon : Op. cit. .vol. vi P. 483

٤) Gibbon : op. cit. vol. VI. P. 485

الاثـار البيزنطية الى الغرب في الفترة السابقة على الحروب الصليبيــة ، ثم عن طريـق المصاهرات التي قامت بينهم ، ثم الاتصال مع الغـرب عن طريق التجار الايطاليين وسردينيا ، ومع ذلك فان الغرب كان ينظـر الى البيزنطـى وقتذاك نظرة الكراهية المقترنة بالاحتقار بوصفة منشقا (١) ولكن ثراء القسطنطينية وما بها من وسائل الترف جعلها مدينة الاحلام . فالى جانب اهتمام الغرب في تلك الفترة بالآداب والفلسفة ، اهتموا بالرياضة والطب . واقتضت الحاجة القيام ببعض الترجمات لتلك الاعمـال الشاملة ونشر اعمال افلاطون وروائع هوميروس[٢] ، وان وصلـت تلـك المؤلفـات الكلاسيكيـة اليونانيـة مثل مؤلفـات ارسطو وجالينوس على يد العرب وليس بطريق مباشر من بيزنطة العصـور الوسطى ، فما زال ارسطو مجهولا بالنسبة لجامعات الغرب ، ولقـد سعى الغربيون الى الحصول على ترجمات لتلك الاعمال عن طريق اليهـود وعن طريق عرب اسبانيـا على الارجح لا عرب الشرق اذ نقلوا الى الغرب الفكر اليونانـي وان كانت بعض الترجمات مشوهة[٣] وفي بعض حالات تأثروا

---

١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦٥

٢) Gibbon : Op. cit. vol. VI. P. 485

٣) Gibbon : Op. cit. vol. VI. P. 485

في معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنيا الترجمة عن اليونانية
عاشور : الحضارة الاوربية ص ١٨٤

بالشرقيين ونقلوا عن الغرب الفلك والهندسة ، كما ان ليونارد وفونشى طـاف بمصر وسورية [1] ، وهو اول عالم غربى اشتغل بالجبـــــر .
وفى فترة الستين عاما التى قضتها القسطنطينية خاضعة للاتيـــــن ، توقع اللاتين عن ثقافة تابعيهم وحضاراتهم التى كانت اكثر تقدما انمـا جاءوا للنهب والسلب والتدمير دون ان يتعرض للتحطيم والتدمير وكانت الوثائق والكتب هى الشئ الوحيد الذى تمتع به اهل القسطنطينية وكان التجار الايطاليون وحدهم هم الذين قدروا هذه الينابيـــــع الحضارية .

وتأثر الغربيون لا سيما حكام الممالك اللاتينية بالشرق بالمسلميـــن فدخلت بعض المصطلحات العربية فاذا الغرب يستعمل مصطلحـــات عربية فى التجارة مثل Tarft , Diner ; Bazar .
وفى الشئون البحرية Admiral, ولكن ليـــس من المحقق انها جاءت نتيجة للحروب الصليبية . فربما انتقلت الـــى البيزنطيين من قبل ثم انتقلت الى الغرب عن طريق بيزنطة [2].

ومن الناحية التجارية ازداد النشاط التجارى بين الشرق والغـــرب سواء مع العرب او بيزنطة . وسيطرت المدن الايطالية التجارية عليـــه مما ادى الى تدفق البضائع الشرقية على الغرب الاوربى [3] وقامـــت

---

١) زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ص ١٢٣
٢) زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ص ١١٢
٣) Miller : Op. cit P. 526

اسواق تجارية هامة في جميع انحاء الغرب مثل فلاندر ـ الراين لمبارديا • وادى هذا الى تدفق الثروات وازدياد قوة القوميات الايطالية والاهتمام بالناحية البحرية والطرق التجارية • ولكن برغم اهمية تجارة الشرق العربى بالنسبة للعالم الغربى فانه لم تنتشر دراسة لغاتهم ومعلوماتهم في مدارس اوربا (١) • فمما حرصت عليه البابوية عدم انتشار مصطلحات القرآن (٢) • ومع ذلك فان بعض الفرنج كان يتكلم العربية • وهناك نقود تحمل الطابع العربى والفرنجى برغم قرارات الحرمان التى أصدرها البابا • وربما كان علم الحساب والارقام العربية راجعة الى التجارة التى راجت بين ايطاليا والشرق (٣).

أخذ اللاتين بعض فنون بناء القلاع وبعض التقاليد الحربية البيزنطية فجهزوا جيوشهم على النظام البيزنطى • واخذوا عن العرب حمام الزاجل واستعمال الشارات (الرنوك) والعاب التطاحن واستعمال الدروع واستخدام المنجنيق واكياس البارود وانواع الوقود وذلك رغم اصلها البيزنطى (٤) • وكان لكونت طرابلس وحرس من المسلمين (٥) •

(١) Camb - Med. Hist. . vol. IV.P. 324

(٢) Gibbon : Op. cit. vol VI. P. 485

(٣) Runsiman : Op. cit. vol. III.P. 471

(٤) زكى محمد حسن : تراث الاسلام ص ١١٥

(٥) Miller : Op. cit. P. 520

صناعات جديدة فى الغرب نتيجة لاتصالهم بالعرب وبيزنطة فالموسلين من الموصل والاقمشة القطنية من مصر والدمشقية من دمشق والاقمشة الحريرية الثقيلة التى تعرف باسم Samiter الاقمشة القطنية المتينة البيضاء التى تسمى الاقمشة dâmeties واقمشة الكتان التى تجلب من بيزنطة (١) ، اما بالنسبة لبيزنطة فان كل ماحرص عليه الحجاج ـ الحصول على المخلفات المقدسة فى القسطنطينية أو القدس واساء هذا الى العقيدة الكاثوليكية فهذا التخريب للحصول على المقدسات اساء الى السكان ، ودل على مدى التأخر الذى عانوه ،

وان كان الامبراطور فردريك الثانى هو الوحيد الذى كان ذا فكر ثورى فأخذ عن بيزنطة الفكر والطرائق التى تستخدمها حكومة الامبراطورية وهيئتها القديمة (٢) وذلك بسبب تحالفه

---

١) زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ص ١١٢

٢) Gibbon : Op. cit. vol. VI P. 485

٣) رنسمان : الحضارة البيزنطية ٣٦٥

مع اباطرتيقية ومصاهرته لهم ، وخلافه مع البابا ثم علاقته الوديـــة مع العرب واجادته العربية وعلومها وآدابها وصداقته للعادل والايوبيين عامة(١) .

" لقد اغلق اللاتين فى القسطنطينية والمغول فى فارس وبـــــلاد الجزيرة السبيل امام ا ى انتعاش سواء كان للمسلمين العرب ام للتقاليـــد الاغريقية المسيحية ، فبذلك نرى ان الحضاريين الايطالية والغربية عامـــة هم المستفيدين الوحيدين من انهيار بيزنطة (٢) .

اثر العرب وبيزنطة فى الحضارة الايطالية :

كان للاتصال الحضارى بالمسلمين والبيزنطيين ومستوياتهمـــــا العاليـــة تأثير حاسم فى غرب اوربا ، بل كان ذلك الاتصال من اهـــم عناصر فى تطور الحضارة الاوربية كلها فى العصور الوسطى وظهر ذلـــك من ناحية فى نشأة التقاليد البلاطية الارستقراطية الجديدة فى غـــرب أوربا وفى نهضة الادب الاوربى القومى الجديد ، كما ظهر من ناحيـــة اخرى فى دخول التقاليد العلمية العربية اليونانية وقيام الحركة الفكريـــة الجديدة فى الغرب الاوربى ، وظلت تلك المؤثرات واضحة فـــــى سماء المعرفة حتى سطعت الى جانبها مؤثرات حركة النهضـــة

١) ونسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦٥

٢) Baynes : Op. cit . P. 325

Gibbon : Op. cit. vol. VI M. 485

الاوربيـة الكبرى وهى مؤثرات نابعة من احياء التقاليد الكلاسيكيـة ورافق ذلك فتح الاتراك العثمانيين للقسطنطينية وانعـزال غرب اوربا عن العالم الاسلامى حتى اذا انتهت العصـور الوسطـى ادارت اوربا ظهرها للشرق وأخذت تنظر غربا شطـر المحيط الاطلنطى (١) .

كان للاسلام والحضارة البيزنطية اثر كبير فى تقدم الحضـارة الايطاليـة ترجع صلة ايطاليا ببيزنطة والعرب الى الفتـرة السابقة على الحروب الصليبيـة اذ صانت بيزنطة للنهضة الايطاليـة كنوز الادب والفكر الكلاسيكى ، وفى البداية كانت رافنا من ممتلكات ايطاليا (٢) ، ويبدو اثر الصراع الدينى فى الناحية المعمارية ، وتجلى هذا فى الفسيفساء والصور ، ثم ظهرت البندقية على مسرح الاحداث كوسيط تجارى بين الشرق البيزنطـى والعربى ، وبرغم ان لغتهـا لاتينية فقد كان فنها بيزنطى وكنيسـة القديس مرقس صورة مـن كنيسة الرسل القدامى ، وكانوا يرسلون ابناءهم فى نهاية القـرن الحادى عشر الى القسطنطينية .

---

١) داوسن (كريستوفر) : تكوين اوربا (ترجمة زياد قوعاشور)ص ٣٧
٢) رانسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦١

تأثرت فرنسا ايضا بالحضارة البيزنطية. وظل اثر الاسلام باقيا فى صقلية التى حكمها العرب لمدة قرون ، وانتشرت فيها الحضارة والثقافة العربية حتى بعد سقوطها فى ايدى النورمان ، اذ اهتم ملوكها بالثقافة العربية والحضارة واجاد بعضهم العربية.

وعندما سقطت بيزنطة فى يد اللاتين ، لم يتأثر حكامها الجدد بحضارتها ، . ودفعهم جشعهم لتدمير المدينة ، اما البنادقة فأهتموا بتلك الحضارة [1] . وقد رأوا أن سقوط بيزنطة يعنى انهيارا لحضارتها التى وجدت صدرا رحبا فى ايطاليا [2] ، وازداد الاهتمام بالدراسات الانسانية نتيجة للحملة الرابعة والحضارة البيزنطية ولكنها لم تصل الى ماوصلت اليه [3] لولا فضل بيزنطة والاسلام فان لهما تأثير على اصول النهضة الايطالية ، فان تلك المعلومات الكلاسيكية التى حفظها ورعاها البيزنطيون ، والعرب ، كانت أساسا للنهضة الاوربية فى ايطاليا ، ويكفى هذا دليلا على اثر بيزنطة والاسلام فى النهضة الايطالية [4] .

(١ Gibbon : Op. cit. vol . VI. P. 485

(٢ Baynes : Op. cit. P. 323

(٣ Runciman : Op. cit. vol. III. P. 477

(٤ Baynes : Op. cit. P. 325

التجـــــارة :

كانت حياة بيزنطة قائمة على تجارتها ، فهى التى امــــدت أجهزتها السياسية بنفقاتها الضخمة ، ولما انهارت تجارة بيزنطــة اقترن هذا بانهيارها السياسى [1] ، ولم تكن الفتوح العربيـــــة مسئولة عن انهيار تجارة بيزنطة بل كانت بيزنطة والاسلام قطبـــى التجارة كما كانا قطبى الحضارة فاقتسما مناطق النفوذ ، ولما فتــح العرب الشام ومصر ، سيطروا على البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى وكان ايذانــا بسقوط مملكة اثيوبيـا التى كانت سفنهـــا تمخر البحار بين الاسكندرية والخليج الفارســى ، وكــــان البيزنطيون يسعون الى استيراد المتاجر الشرقية التى تعتبر ركنـــا اساسيا فى تجارتهـم ، اصبحت الطمأنينة التى تمتعوا بهـــا عن هذا الطريق عاملا قـرب هذه المتاجر للدولة البيزنطيـــــة وازال العقبات التى اقامها الفرس ، وكانت تجارة الشرق تجتـــاز طرقا عديدة ولكن معظمها كان يمر باراضى بيزنطة أو موانـــى بيزنطية [2] .

وكان للعملة البيزنطية احترام كبير وكان لها قيمتها فى الســوق الدولية فرغم ان للايوبيين عملتهم الخاصة فلم يمنع ذلك مــن

---

(1) Pirenne : Op. cit. vol. II. P. 125

(2) Heyd : op. cit. Tome I. P. 21

التعامل بالدينار البيزنطى الذى استخدمه اللاتين ايضا فيما بعد [1] وكذلك اهتموا بالموازين البيزنطية ولقد كان للمسلمين جالية كبيرة فى طرابيزون ، والغريب فى الامر انه رغم الاحداث التى مر بها التاريخ البيزنطى والتى اصبحت فيها العلاقات البيزنطية الاسلامية تكاد تصبح سرابا ، كثرت اعداد المسلمين فى طرابيزون بعد سقوط القسطنطينية [2] .

ومما جعل لبيزنطة أهمية تجارية : موقعها عند التقاء آسيا واوربا وافريقيا ، وكل الطرق البرية والبحرية التى تصل بين اوربا الشرقية والبحر المتوسط ، وهذا الموقع الجغرافى كان له اهمية من وجهة النظر السياسية لأن الولايات الايطالية والدانوب أو آسيا الصغرى لن تستطيع التوسع دون محاولة الاعتداء على الاراضى الاغريقية ، كما منحت الطبيعة لبيزنطة موانى ومنافذ طبيعية مثل سالونيكا [3] .

استمرت تجارة بيزنطة مزدهرة من القرن الخامس الى الحادى عشر الميلادى [4]. وشهدت الفترة من القرن السادس الى العاشر الميلادى ازدهار التجارة بين العالمين الاسلامى والبيزنطى وبلغ من اهتمام بيزنطة بتجارة الشرق ان اوربا احتكرت الصناعات

---

1) Baynes : Op. cit. P. 68

٢) ابن سعيد : الاخبار الطوال ص ١١٨

٣) Baynes : Op. cit. P. 68 , 70

التي تقوم على الواردات الشرقية مثل صناعة الحرير والمجوهرات والنقش على العاج والاحجار وازداد دخل الدولتين من المكوس التي كانت تجبى على التجارة سواء في القسطنطينية او القاهرة [1] واقيمت الفنادق والاسواق ، وتحدث عنها الرحالة الفارسي ـ ناصر خسرو واتبعت نظاما يتعلق باقامة التجار في المدن ، وكانت المكوس في الجانب الاسلامي تبلغ العشر ، وكذلك بيزنطة كانت تحصل على حوالي ١٠٪ [2] .

ومع بداية القرن الحادي عشر بدأ ضعف الامبراطورية وبداية انهيار تلك التجارة العالمية ، مقترنا بضعف الاسطول ، اذ ظلت التجارة البيزنطية تمخر المحيطات في حماية اسطولها من القراصنة ، بل ان التجارة البيزنطية الى ايطاليا في البداية حملها تجار من اليونان ، ويرجع المؤرخون اسباب عدة لذلك الانهيار ، منها ما هو داخلي مثل تدخل الحكومة المستمر في شئون الصناعة والتجارة وفساد الادارة الحكومية [3] ، ولكن للاسباب السياسية اهمية بالغة ، اذ ان باسيل الثاني اهمل السياسة البحرية ، يضاف

---

(١) Pirenne : Op. cit. vol. II. P. 186

(٢) Heyd : Op. cit. vol. I. P. 58

(٣) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢٠١

الى ذلك السلاجقة وانتزاعهم ولايات آسيا الصغرى الغنية [١] ، وفى خلال القرن الحادى عشر كان التوسع النورمانى المصحوب بنقـــل صناعة الحرير الى صقلية . وفى نفس الوقت نتج عن الحـــروب الصليبية الثلاثة الاولى نقل مركز التجارة من القسطنطينية الـــى ايطاليا ، وهذا يرجع لسياسة بيزنطة التجارية التى كانت تهـدف الى فتح اسواقها لجميع الامم ومنحهم الامتيازات الواسعة فكســدت اسواقها [٢] .

وكان من اسباب انهيار بيزنطة الاقتصادى انها لم تكن دائمـــا البادية بالهجوم ، بل استكانت فهيأت الفرصة للترك للـهجوم ومكنت للمدن الايطالية عن نشر نفوذها ، اذ قضى الغزو السلجوقى بدايته على تنظيم الجيش والاسطول الامبراطورى ، واضاع مصدر تمويـــن هام ، فركن البيزنطيون الى مساعدة المدن الايطالية ، وأدت هـذه المساعدة رويدا رويدا الى السيطرة الكاملة على تجارة بيزنطة [٣] ، وكانت الحروب الصليبية تدعيما لهم فلم تعد البضائع تنقل الى طرابيزون وعبـر آسيا الصغرى ، نظرا لان السلاجقة اغلقوا هذه الطرق ، بل فكانـت تنقل الى السفن الراسية ، فى موانى سورية اللاتينية ، حيث تحملهـــا

---

(١) Gibbon : Op. cit . vol. VI. P. 1486

(٢) Baynes : Op. cit. P. 64 , 65

(٣) Miller : Op. cit. P. 56

السفن الايطالية الى الغرب رأسا ، لذلك تتجنب الرسوم الجمركية التى تفرضها بيزنطة ، مما أدى الى سيطرة التجار الايطاليين على تجارة بيزنطة ، ويقول شارل ديل : " ان القسطنطينية ظلت اهم مركز تجارى فى العالم حتى سقوطها " (١) ولكن الامبراطورية لم تستفد من موقعها ، بل استفاد منه البنادقة الذين اصبحوا السادة الحقيقيين للعاصمة . وفى البداية حرص الاباطرة على تضييق نطاق هذه السياسة وحرصوا على منع تجار البندقية من الاتجار فى الاخشاب والمواد الحربية مع حكام المسلمين ، ثم اخذ الاباطرة من آل كومنين وانجيلوس يمنحون البندقية عدة ميزات خاصة بتخفيض الرسوم الجمركية ، ثم منحوها لبيزا وجنوه (٢) ، فأصبحت الرسوم لاتتجاوز ٤ % ، اما الكسيوس فقد فتح الباب على مصراعيه لتصبح تجارة البندقية من سنة ١٠٨٢م تجارة عالمية ناعفوا من الضرائب والتفتيش الجمركى وعدم دفع الرسوم عند الاستيراد والتصدير واكد هذا خليفتاه يوحنا (٣) سنة ١١٢٦ م ومانويل سنة ١١٤٧ م اللذان وسما الحى البندقى فى

١) ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٠
٢) Heyd : Op. cit. Tome. I. 109, 110
٣) Camb . Med. Hist. - vol. IV.P. 762

القسطنطينية وجعلا لهم فى كريت وقبرص مالهم من الامتيازات ومن بعدهما اكد هذه الامتيازات اسحق انجيلوس ١١٨٧ والكسيوس الثالث ١١٩٨م.

واذا نظرنا للعلاقات التجارية بين بيزنطة والجانب الاسلامى فى تلك الفترة يتضح لنا أن الايطاليين لم يسعوا فقط الى السيطرة على تجارة بيزنطة ، بل سعوا الى السيطرة ايضا على التجارة بين بيزنطة والشرق العربى ثم السيطرة على التجارة العالمية [1] واتخذت العلاقات التجارية مع بيزنطة زمن الايوبيين مراحل عديدة. ففى المرحلة الاولى التى تمتد من اواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية حكم العادل الايوبى وهى الفترة التى تشغل الفترة السابقة على سقوط القسطنطينية كثر تسلل البنادقة الى اراضى كل من بيزنطة والايوبيين غير ان ذلك لم يمنع من قيام علاقات مباشرة بين الايوبيين والبيزنطيين ومن الدليل على ذلك تواجد طوائف التجار فى اراضى الجانبين وهذه الفترة انتهت سنة ١٢٠٤م بسقوط القسطنطينية ، وبدأت فترة جديدة تم فيها اخضاع بيزنطة وسعى البنادقة الى السيطرة على مصر نفسها.

---

(1) Gibbon : Op. cit . vol. VI M. 413

ففى الفترة الاولى نرى ازدهار الحياة التجارية فى كل من الاسكندرية والقسطنطينية فكانت المتاجر تأتى الى الاسكندرية بالبضائع من بيزنطة وجميع انحاء العالم واشتهرت باسواقها وفنادقها وصناعتها وخاصة صناعة الاقمشة (١) . وكذلك كان الامر بالنسبة لبيزنطة فقد جنى اباطرتها دخلا من التجارة الخارجية والضرائب الجمركية والخانات تجاوز عشرين الف فلورنس ونرى انعكاسا لهذا الوضع فى جميع كتابات الرحالة الذين زاروا كل من القسطنطينية والشرق الاسلامى خلال الحكم الايوبى تحدث بنيامين التديلى عن ثراء كل من بيزنطة والاسكندرية ونهضتها التجارية وتنكسو العلاقات الوطيدة بين الجانبين وشاهد السفن البيزنطية فى موانى الاسكندرية (٢) ، وذكر أن بيزنطة لا تقارن الا ببغداد فى نشاطها التجارى وثرائها وقارن بين منارة الاسكندرية وبين منارة بيزنطة (٣) . كما فصل الهروى الذى زار بيزنطة فى فترة متقاربة وتحدث عن الفنادق والتجار الصرب الذين رآهم .

ولقد لقى البيزنطيون وتجارهم الرعاية والاهتمام فى مصر وحظوا برعاية السلطات المصرية .

---

١) وهى فرضة بلاد المغرب والاندلس ، وجزائر الترك وبلاد الروم والشام ابن الاثير تحقيق الوجاثب ص ١٥٧

٢) (بنيامين) رحلة بنيامين التطيلى ص ٧٩

٣) المدينة حركة الدائن من التجار القادمين اليها من بال وشنعار (اسم وادى الرافدين فى التوراة) بنيامين التطيلى ص ٧٩

وكذلك نعم التجار المسلمون فى بيزنطـة بكل وسائل الراحة والمعاملـة الطيبة واتيح لهم تأدية شعائرهم الاسلامية فى جامـع القسطنطينيـة الذى اهتم كل من صلاح الدين وابنه العزيز بعمارته وكانت لهـم فنادقهم واسواقهم الخاصة [1] ، ولكن عند سقوط القسطنطينية لقـى التجار المسلمون الاضطهاد على يد اللاتين كما لقيه الاغريق وقد قامت علاقات تجارية بين بيزنطة وقونيه وخاصة حول حرم ناناتوس لاستيراد مواد التـرف الشرقيـة وحـرم التجـارة مـع الهندقيـة [2] .

استوردت بيزنطـة من الشرق الاسلامى التوابل والعطور التـى كان يأتى بها التجار من الهند فيشتريها تجار بيزنطة وغيرهـم من التجار ، فضلا عن سلع اخرى درج البيزنطيون وملوكهم علـى طلبها وهو دهان البلسان ، وكان سلاطين الايوبيين يحرصون على تلـك المادة لاهميتها فى صناعة الادوية ، فيشتريه ملوك النصارى مـن الحبشة والروم والفرنج فيستهدونه • وظلت الاسكندرية الى عهـد طويل مركزا من مراكز التجارة العالمية وحين يذكر بنيامين التجـار

---

١) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات ورقة

٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٠٩

الذين ترددوا على الاسكندرية يطلق على البيزنطيين لفظ روسان تمييزا لهم عن التجار الفرنجة من البندقية وغيرها [1].

وقد قامت علاقات تجارية بين بيزنطة وقونيه قائمة على التبادل فقدم اهل قونيه الفضة والذهب وادوات الترف فى مقابل المواد الغذائية ، وكان اهم ماسمى السلاجقة لاستيراده مصنوعات طيبة من المنسوجات الحريرية ، ونتيجة للغزو المغولى وتخريبه للامارات المجاورة ازدهرت حركة التجارة بين الطرفين وزادت اهمية طرابيزون بعد سقوط الخلافة ١٢٢٨ على يد هولاكو فقد جعل المغول التجارة تمر عبر الشرق الى طرابيزون والبحر الاسود بدلا من البحر المتوسط فانتعشت الحركة التجارية [2] .

فى الفترة التالية سيطر البنادقة على التجارة بين الايوبيين والقسطنطينية نتيجة للمعاهدات العديدة التى عقدوها مع الايوبيين ومكنتهم من احتكار التجارة فى الدولة الايوبية ،بشطريها مصر والشام واجاد كثير من التجار اللاتين اللغتين العربيةواليونانية ،واستمر احتكار البنادقة للتجارة الشرقية الى سقوط الدولة اللاتينية فى القسطنطينية فى ايدى آل باليولوجس .

---

١) بنيامين : رحلة بنيامين ص ٧٩

٢) Ostrogorsky : Op. cit. P. 345

الاجراءات الجمركيـة :

اتبع البيزنطيون والمسلمون نظاما جمركيا خاصا، واورد كثير من المورخين العرب ذكر تفاصيل ذلك النظام فكان يأخذ العشر حوالى ١٠٪ من دخل الصادرات والواردات سواء من بيزنطة أو المسلمين .

واتخذت الجمارك الاسلامية خطة دقيقة ، وخير مثال يعطيه ابن مماتى وابن جبير فقد كان اكثر ما ضايقه فى رحلته فى مصر هو الاجراءات الجمركية فكان يصعد الى المركب مندوب من قبل السلطان يقيد جميع ما جلب فيه ويحصر جميع ما فى السفينة ويكتب اسماءهم وصنائعهم ويسأل كل واحد عما لديه من سلع ، وما لديه من مال ، بل احيانا يصل الامر الى التفتيش الشخصى " ، والضرائب على الصادارت والواردات تصل الى الخمس بالنسبة للتجار الروم كما يذكر ابن مماتى (١) .

والمعروف انه جرى تشييد الفنادق ليقيم بها التجار ، وكانت اقامة التجار تخضع لرقابة واشراف الحكومة فلابد للتاجر ان يحصل على تصريح خاص من الحكومة . وكان فى بيزنطة كثير من التجار

---

١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٧ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٢ و ٢٣

وخاصة من سوريا ، وجميع المواد الخام احتكارا للدولة ولم تسمح بيزنطة للتجار الاجانب المسلمين بالاقامة اكثر من ثلاثة اشهر [(١)] ولم يختلف الوضع فى هذه الناحية عند المسلمين اذ كان للتجار فنادقهم وكان الفندق يتألف من طابقين : الاعلى للاقامة ، والادنى لحفظ البضائع ، وتمتع التجار بحماية الدولة لبضائعهم ولاشخاصهم [(٢)] وأقام التجار اللاتين فى فنادق طرابلس وحلب واللاذقية ودمشق وفى القاهرة حى عرف بحى الروم وفى بغداد دار الروم [(٣)]

ترتب على الانهيار التجارى انهيار للعملة البيزنطية التى كانت لها قيمتها من قبل العهد الاسلامى ، وقد اتخذ الدينار البيزنطى اساسا للعملة الذهبية فى القرن التاسع والعاشر الميلادى ، وظلت الموازين البيزنطية مستعملة فى البلاد الاسلامية ولا سيما فى سوريا ومصر لمدة طويلة فى القرن الحادى عشر اصبحت besant ، Nomisima عملة عالمية تمد الامبراطورية بأداة فعالة. وأصبح Besant لهأهمية بالنسبة للعالم الخارجى ولكن بعد سنة ١٢٠٤ انهارت قيمتها ، ومع ذلك فان البنادقة استعملوا فى تجارتهم العالمية فى الشرق وفى ممتلكات الدولة الايوبية فى الشام

---

١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٦٣ ، رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢٠٦

٢) Heyd ; : Op. cit. Tome. I P. 332

٣) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٢٨

عملة كانت تعرف باسم Byzantium Saracenati العملة البيزنطية الاسلامية وهى عملة ذهبية ضربها اللاتين للتعامل مع البلاد الاسلامية البعيدة عن الشاطئ[1] ، وكان على هذه القطع نقوش عربية وبعض آيات من القرآن اشارة الى النبى وتاريخ هجرى وظلت مستعملة حتى عام ١٢٤٩ م . ودفع لويس التاسع فديته بالدينار البيزنطى فالدينار البيزنطى ظل الى مدى طويل له قيمته ، ولقد اصدر البابا قرارا بحرمان كل من يتعامل بالعملة السابقة فظهرت عملة جديدة ، فصنعوا عملة مشابهة بنقوش مسيحية وتاريخ ميلاد المسيح بالعربية وصليب فى منتصفها ، وبدأ التعامل بها سنة ١٢٥١ ، — وظهر نظام جديد خاص بتقييد ما للعميل من حساب فى المصارف وتأسست البيوت المالية فى جنوة وبيزا والبندقية [2].

---

١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢١٠ — ٢١١

٢) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢١٢

ملاحــــق الرســـــالة

١ ـ جدول بأسماء حكام الشـرق الاسلامى والدولة البيزنطية (١٠٨١ ـ ١٢٦٠ م).

٢ ـ رسالة صلاح الدين الى الخليفة العباسى يعدد ماله من فضائل فى قتـــال الفرنج وبيزنطة.

٣ ـ وصف القاضى الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطى الى صلاح الدين.

٤ ـ رســالة الكايفكوس الى صلاح الدين.

٥ ـ مدينة القسطنطينية فى رحلة الفاضل الهروى.

٦ ـ وصف مدينـة القسطنطينية لابن الأثـير.

الملحــق الاول

جدول بأسماء حكام الشرق الاسلامى والدولة البيزنطيـــــــــــــــــة

١٠٨١ــ ١٢٦٠م

أولا : الخلفاء العباسيون : (١)

المقتـــــدى	١٠٧٥ ــ ١٠٩٤
المستظهـــر	١٠٩٤ ــ ١١١٨
المسترشـــد	١١١٨ ــ ١١٣٥
الراشـــــد	١١٣٥ ــ ١١٣٦
المكتفـــى	١١٣٦ ــ ١١٦٠
المستنجـــد	١١٦٠ ــ ١١٧٠
المستضـــىء	١١٧٠ ــ ١١٨٠
الناصـــــر	١١٨٠ ــ ١٢٢٥
الظاهـــــر	١٢٢٥ ــ ١٢٢٦
المستنصـــر	١٢٢٦ ــ ١٢٤٢

(١) ــ اسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٤

ثانيا ــ الفاطميــــون : (١)

المستنصـــــر	١٠٣٥ ــ ١٠٩٤
المستعلـــــى	١٠٩٤ ــ ١١٠١
الآمـــــــــر	١١٠١ ــ ١١٣٠
الحافـــــــظ	١١٣٠ ــ ١١٤٩
الظافـــــر	١١٤٩ ــ ١١٥٤
الفائـــــز	١١٥٤ ــ ١١٦٠
العاضـــــــد	١١٦٠ ــ ١١٧١

ثالثا ــ الايوبيــــون : (٢)

(١) ــ القاهـــرة :

صلاح الديـــن *	١١٧٤ ــ ١١٩٣
العزيـــــز *	١١٩٣ ــ ١١٩٨
المنصـــــور	١١٩٨ ــ ١١٩٩
العادل الاول *	١١٩٩ ــ ١٢١٨
الكامـــــل *	١٢١٨ ــ ١٢٣٨
العادل الثانى *	١٢٣٨ ــ ١٢٤٠

(١ ، ٢) اسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٣١٥

* هذه العلامة تدل على الجمع بين القاهرة ودمشق .

الصالح أيــــوب *	١٢٤٠ ــ ١٢٤٩
المعظم توران شاه *	١٢٤٩ ــ ١٢٥٠
الاشرف موســـى	١٢٥٠ ــ ١٢٥٢

(٢) ــ دمشـــق :

الافضـــــل	١١٩٣ ــ ١١٩٦
العادل الاول *	١١٩٦ ــ ١٢١٨
المعظم عيســى	١٢١٨ ــ ١٢٢٧
الناصـــر داود	١٢٢٧ ــ
الاشرف موســى	١٢٢٨ ــ ١٢٣٧
الصالح اســماعيل	١٢٣٧ ــ
الكامــل *	١٢٣٧ ــ ١٢٣٨
العادل الثاني *	١٢٣٨ ــ ١٢٣٩
الصالح ايــوب *	١٢٣٩ ــ
الصالح اسماعيـل	١٢٣٩ ــ ١٢٤٥
الصالح ايــوب *	١٢٤٥ ــ ١٢٤٩
المعظم تورانشاه *	١٢٤٩ ــ ١٢٥٠
الناصر يوســف	١٢٥٠ ــ ١٢٦٠

* هذه العلامة تدل على الجمع بين القاهرة ودمشق.
اسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٣١٥

رابعا ـ سلاجقة الشـــام : [1]

تتش بن الب ارسـلان	١٠٩٤ ـ
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ ـ ١١١٣
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ ـ ١١٠٣
الب ارسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ ـ ١١١٤
سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤ ـ ١١١٧

خامسا ـ سلاجقة الروم بآسيا الصغرى :

سليمان بن قتلمش	١٠٨١ ـ ١٠٨٦
قلج ارسلان الاول	١٠٩٢ ـ ١١٠٧
ملكشاه الاول بن قلج ارسلان	١١٠٧ ـ ١١١٦
مسعود الاول بن قلج ارسلان	١١١٦ ـ ١١٥٦
قلج ارسلان الثانى	١١٥٦ ـ ١١٨٨
ملكشاه الثانى	١١٨٨ ـ ١١٩٢
كيخسرو الاول	١١٩٢ ـ ١٢٠٠
سليمان شاه الثانى بن قلج ارسلان	١٢٠٠ ـ ١٢٠٣
قلج ارسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣ ـ ١٢٠٤

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٩٧ ـ ١٢٩٨

كيخسرو الاول (مرة ثانية)	١٢٠٤ ـ ١٢١٠
كيكاوس الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٠ ـ ١٢١٩
كيقباذ الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٩ ـ ١٢٣٦
كيخسرو الثاني	١٢٣٦ ـ ١٢٤٥
كيكاوس الثاني	١٢٤٥ ـ ١٢٥٧
قلج ارسلان الرابع	١٢٥٧ ـ ١٢٦٧
كيخسرو الثالث	١٢٦٧ ـ ١٢٨٣
مسعود الثاني	١٢٨٣ ـ ١٢٩٦
كيقباذ الثالث	١٢٩٦ ـ ١٣٠٠

سادسا : اباطرة بيزنطة : (١)

أســرة كومنــــون :

الكسيوس الاول كومنينوس	١٠٨١ ـ ١١١٨
يوحنا الثاني	١١١٨ ـ ١١٤٣
مانويل الاول	١١٤٣ ـ ١١٨٠
الكسيوس الثاني	١١٨٠ ـ ١١٨٣
بوصاية مارية الانطاكية	
اندرونيكس الاول	١١٨٣ ـ ١١٨٥

---

(١) ـ Ostrogorsky: op. cit. P. 516

أســـرة انجيلوس :

اسحاق الثانى ، انجيلوس	١١٨٥ ـ ١١٩٥
الكسيوس الثالث	١١٩٥ ـ ١٢٠٣
الكسيوس الرابع	١٢٠٣ ـ ١٢٠٤
اسحاق الثانى	١٢٠٣ ـ ١٢٠٤
الكسيوس الخامس ، مورتزوفلوس	١٢٠٤ ـ

سابعا ـ اباطرة نيقيـة : (١)

١٢٠٤ ـ ١٢٦١م

أســرة الأشـــــاكرة :

تيودور الاول الاشكرى	١٢٠٤ ـ ١٢٢٢
يوحنا الثالث ، دوكاس	١٢٢٢ ـ ١٢٥٤
تيودور الثانى ، الاشكرى	١٢٥٤ ـ ١٢٥٨
يوحنا الرابع ، الاشكرى	١٢٥٨ ـ ١٢٦١

ثامنا ـ اباطرة القسطنطينية اللاتين : (٢)

١٢٠٤ ـ ١٢٦١م

بلدوين الاول ، فلاندرز	١٢٠٤ ـ ١٢٠٥

---

(١) Ostrogorsky: op. cit. P 516

(٢) Ostrogorsky: op. cit. P. 516

هنرى فلاندرز	١٢٠٦ ـ ١٢١٦
بيير كورتناى	١٢١٧ ـ
يولانـــد	١٢١٧ ـ ١٢١٩
روبرت كورتناى	١٢٢١ ـ ١٢٢٨
بلدوين الثانى	١٢٢٨ ـ ١٢٦١
حنا بريين	١٢٣١ ـ ١٢٣٧ [1]

تاسعا ـ اباطرة طرابيزون : [2]

الكسيوس الاول	١٢٠٤
اندرونيكس الاول	١٢٢٢
حنا الاول	١٢٣٥
مانويل الاول	١٢٣٨
اندرونيكس الثانى	١٢٦٣
جورج	١٢٦٦

عاشرا ـ حكام ابيروس : [3]

١٢٠٤ ـ ١٢٤٦م

ميخائيل الاول	١٢٠٤ ـ ١٢١٥

---

(١) ـ حكم حنا بريين فترة بالاشتراك مع بلدوين الثانى

(٢) ـ Miller: Trebizond P. 125.

(٣) ـ Ostrogorsky: op. cit. P. 517

تيودور	١٢١٥ ـ ١٢٢٤
	١٢٢٤ ـ ١٢٣٠ [1]
مانويل	١٢٣٠ ـ ١٢٤٠
حنـــا	١٢٤٠ ـ ١٢٤٤
ديمتريس	١٢٤٤ ـ ١٢٤٦

---

(١) ـ تـوج تيودور فى اوائل هذه الفترة امبراطورا ، وحمل منذئذ حكام ابيروس لقب امبراطور .

الملحـــق الثانـــى

رسالة صالح الدين الى الخليفة العباســــــى يعدد ماله من فضائل فى قتال الفرنــــج وبيزنطـــــة (1)

لم يكن سبب خروج المملوك من بيته الا وعد كان انعقد بينه وبين نورالديـــــن رحمه الله فى ان يتجاذبا طرفى الغزاه من مصر والشام المملوك بعسكره بره وبحـــــره ونورالدين من جانب سهل الشام ووعره فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما وحــــدثت بعد الامور أمورا اشتهرت للمسلمين عوارات وضاعت ثغور وتحكمت الاراء الفاســــــدة وفورقت المصالح القاصدة وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكفار محمولـــــة اليها جزى المسلمين والامراء الذين كانوا للاسلام قواعد وكانت سيوفهم للنصــــــر موارد يشكون ضيق حلقات الاسار وتطرق الكفار بالبناء فى الحدود الاسلامية ولا خفاء ان الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا واستنجدوا علينا انصار النصرانيـــة فى الاقطار وسيروا الصليب من كسى مذابحهم وهددوا طاغية كفرهم باشراط القيـــامه وانفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونهمن يسمونهم القديسين وقالوا ان الغفلة وقعت اوقعت فيما لايستدرج فارطه وان كلا من صاحبه قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ماوراء البحر واصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية والاساطيل القوية وللاسلام بأمير المؤمنين ناصـــر لاسيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا •

---

(1) ابوشامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٤٤

الملحق الثالث

وصف القاضي الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطي الى صلاح الدين (١)

" ينهي المملوك وصول رسول ملك الروم بما في صحبته من هدية ، وما على لسانه من رسالة ، وما على يده من كتاب . وحضر بين يدي الملك العادل ، وجرى من المفاوضة ما أبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية وغيرهم من جيوش الفرنج الى الموافقة على حرب السلطان واطلاق طريقهم . وامتنع وسد الدربندات وحفظ عليهم الطرق وأوصى أرباب الحصون بالتيقظ والمنع دونهم ، وجعل عذره ليلتمس موافقته أن البلاد في هذه السنة غالية السعر والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة الابقوة وعلى تمكن من الميرة ، وتأخير الحركة الى السنة الأخرى ثم قال " هذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده مدافع عن نفسه وان تم له الدفع ادعى انه بسببنا ، وان لم يتم ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدنا " . وجمل ما أورده من أن يقال أن البطاركة في قاعته من قبله وأن ينقل من ولاية الفرنج الى أن يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يبسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه ويدفع عن نفسه ، لاسيما مع اقامته الخطبة الاسلامية ، ونقله المنبر ، وفسحته في الصلاه واعزاز الكلمة الاسلامية ، أرغم الله بها أنفه ، وعجل بسيفها حتفه . ومولانا أبقته الله يتثبت في الاجوبة ولا يجيب الى ما على الاسلام فيه غضاضه ولا الى ما للكافر فيه قسوة

---

(١) ــ ابوشامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨

(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) .

ومن كتاب آخر (وصل الى المملوك كتاب يذكر وصول رسول الملك المتيق من قبرص اليه ، يخبره بعصيانه على ملك انكلتيره ، ومكاشفته بالعداوة والحرب ، وانه قد كاتب السلطان اعز الله نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكلتيرة والانباء متواترة ، بأن الملك أحرق مواني قبرص ووعدها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة أن مولانا يتقبل من المذكور ، ويقوى نفسه على هذه المباينة ، فان في تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعض ، وافتراق كلمتهم المجتمعة وقطعا للميرة عن الشام وأمنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك المتيق قد صار لمولانا صديقا ، وما سمى المتيق الا لأنه صار لمولانا عتيقا ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية في انا ننجده على قبرص ، فانا انما وعدناه بالنجدة عليها ، لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ، ولا حتى أن يكون عدوا وكذلك صاحب الغرب ، (1)

---

(١) ـ ابوشامه : الروضتين ج ٢ ص١٧٨

الملحق الرابـــــع

رسالة الكايفكوس الى صـــلاح الديـــن (١)

ولقد وصل الى السلطان كتاب من الكايفكوس ، وهو مقدم الأرمن — وهـــــو صاحب "قلعة الروم[٢] " التى على طرف " الفرات " .

" كتاب الداعى المخلص" الكايفكوس" ما اطالع به علم مولانا ومالكــــــــا السلطان الناصر ، جامع كلمة الايمان ، رافع علم العدل والاحسان ، صـــلاح الدنيـــا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، أدام الله اقباله ، وضاعف جلاله ، وصـــــان مهجته وكمل نهاية آماله ، بعظمته وجلاله .

من أمر ملك الالمان وماجرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهنكر[٣] غصبا ، وغصب ملك الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعتـــــه وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم أنه دخل أرض مقدم الروم "، وفتح البـــــــلاد

---

(١) — ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠٧

(٢) — قلعة الروم : هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة بينهما وبين سميساط (معجم البلدان ج ٤ : ٣٩٠ — ٣٩١)

(٣) — بلاد الهنكر : المقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر (الآن)
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٠

ونهبها وأقام بها ، وأخرج ملك الروم الى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه ، ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا ، وخمسين قنطارا فضة ، وثيابا أطلس بمبلغ عظيم .

واغتصب المراكب وعاد بها الى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن الى أن دخل حدود بلاد الملك " قليج ارسلان " ورد الرهائن ، وبقى سائرا ثلاثة أيام وتركمان " الأوج [1] " يلقونه بالاغنام " والبقر " والخيل والبضائع ، فداخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ، ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر .

ولما قرب من " قونية [2] " ، جمع " قطب الدين ولد قليج أرسلان " العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، كسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية " فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين وهجم على " قونية " بالسيف . وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب " قليج أرسلان " منه الأمان فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منه رهائن ، عشرين من أكابر دولته ، وأشار على

---

(١) ـ صنف من الاتراك فيما وراء سيحون (معجم البلدان ج٣ : ٧٦)

(٢) ـ قونية : مدينة كانت من أعظم مدن الاسلام بالروم (آسيا الصغرى) (معجم البلدان ج ٣ : ٤٢٥)

الملك أن يجعل طريقه على " طرسوس[1] " و " المصيصة[2] " ففعل وقبل منه •

وقبل وصوله الى هذه الديار اختيارا أو كرها ، اقتضى الحال انفساذ المملوك حاتم ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك ، وجواب كتابه وكانت الوصية (معهم) أن يمروا به على بلاد " قليج أرسلان " ان أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير أعادوا عليه الجواب ، وعرفوه الاحوال بالانحراف ، ثم كثرت عليه العساكر والجموع ، ونزل على شط بعض الأنهار ، وأكل خبزا ونام ، وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام فى الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث اياما قلائل ومات •

وأما " ابن لاون " فانه كان سائرا يلقى الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر ، وتقدموا اليه وأخبروه (بالحال) ، فدخل فى بعض حصونه واحتمى هناك •

وأما ابن الملك ، فكان أبوه منذ توجهه الى قصد هذه الديار نصب ولده الذى معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه (هرب) رسل ابن لاون فأنفذ واستعطفهم

---

(١) ـ طرسوس : احدى مدن (آسيا الصغرى) وكانت ثغرا من ناحية بلاد الروم (آسيا الصغرى) على ساحل البحر الشامى (الابيض المتوسط) (ياقوت جـ ٣ : ٢٨ ـ ٢٩) •

(٢) ـ المصيصة : من ثغور الشام بين أنطاكية وآسيا الصغرى ، وكانت من الاماكن التى يترابط بها المسلمون •

وأحضرهم وقال : " ان أبى كان شيخا كبيرا ، وما قصد هذه الديار الا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك ، وعاينت المشاق فى هذه الطريق ، فمن أطاعنى والا قصدت دياره ، واستعطف ابن لاون ، واقتضى الحال الاجتماع (به) ضرورة .

وبالجملة فهو فى عدد كثير ، ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفا (1) وأما الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أناس متفاوته على قصد عظيم ، وجد فى أمرهم ، وسياسة طائلة ، حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء الا أن يذبح مثل الشاه .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم ، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع الى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك كان حزنا على بيت المقدس . ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة (وحرموها على أنفسهم) ، وحرموا ماحل ولم يلبسوا الا الحديد ، وحتى أنكر عليهم الاكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم .

طالع المملوك بالحال ، وما يتحدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالى .

---

(١) ـ مجفجفا : أى يلبسون التجفاف وهى آله يلبسها الانسان أو الفرس تصنع من حديد أو غيره للوقاية أثناء الحرب ، وهى كلمة ليست من اصل عربى .
(القاموس المحيط ، والمنجد) .

الملحق الخامس

مدينة القسطنطينية فى رحلة الفاضل الهروى (١)

مدينة القسطنطينية فى جانب سورها قبر ابى ايوب الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه خالد بن زيد ولما قتل دفنه المسلمون وقالوا للروم هذا من كبار أصحاب نبينا فو الله ان نبش لا دق بناقوص فى ارض الروم أبدا وبها الجامع الذى بناه مسلمه بن عبد الملك والتابعون وبه قبر رجل من ولد الحسين رضى الله عنه وبها الاصنام النحاس والرخام والعمد والطلسمات العجيبة والمنابر الذى تقدم ذكرها والآثار التى ليس فى الربع المسكون مثلها وبها ايا صوفيه وهى الكنيسة المعظمة عندهم ويقولون بها ملك من الملايكه مقيم بها وقد عملوا داير مكانه درابزين من الذهب ولها حكاية عجيبة نذكرها موضعها وسأذكر ترتيب هذه الكنيسة وهيكلها وارتفاعها وابوابها وعلوها وطولها وعرضها والعمد التى بها وعجايب هذه المدينة واوضاعها وصفة السمك الذى بها وباب الذهب والابرجه والافيلة النحاس وجميع ما بها من الآثار والعجايب ومما فعل انملك مانوبل معى من الخير والاحسان فى كتاب العجايب كما تقدم ان شاء الله تعالى وهذه المدينة اكبر من اسمها نسأل الله تعالى أن يجعلها دار اسلام بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى مدينة صالونيك (٢) يقصدها الروم والفرنج ولها رغبة والله اعلم .

---

(١) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات ورقه ١٩٧ (مخطوط بدار الكتب ٧٤٧ جغرافيا)

(٢) يقصد مدينة سالونيك .

أما مدينة نيقية من أعمال اسطنبول على البر الشرقي وهي المدينة التي اجتمع بها ابناء الملة المسيحية وكانوا ثلاثة وثلاثون عشر وثمانية عشر ابا ويزعمون ان المسيح عليه السلام كان معهم في هذا الجمع وهو أول المجامع لهذه الملة به اظهروا الامانة التي هي اصل دينهم وصورهم وصورة المسيح على كراستهم بهذه المدينة في بولقيصة ولهم فيها الاعتقاد العظيم الطريق من هذه المدينة الى بلاد الروم الشمالية قبر ابي محمد البطال على تل في حد تخوم البلاد عموريه بها قبور جماعة استشهدوا مع المعتصم رحمهم الله تعالى واثار عجيبة ذكرها في موضعها سلطان رومي وهو موضع عجيب ويقال له أيضا الثيرما بالرومي ويقال له أوكوم وهو على تخوم البلاد حد الكافر وبهذا الموضع اثار ازاج معقودة وتحتها الماء الذي ليس مثله في البلاد في صفائه وحرارته رحلاوته ومنفعته تقصده اصحاب الامراض من البلاد وسنذكر صفته والحياة التي به في كتاب العجايب ان شاء الله تعالى مدينة قونية بها قبر افلاطون الحكيم بالكنيسة التي الى جانب الجامع ورأيته في بستان فخر الدين سريرا من الرخام عليه صورة رجل وامرأة نيام تحت ازار والجميع مستخرج من جسم الرخام وذرعته طولا وعرضا وسيأتي ذكره في كتاب العجائب ان شاء الله وبالله التوفيق ونعم الرفيق مدينة قيصارية بها جسر محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه وبها جامع البطال وبها البضرم به اثار قديمة وبها قبة الخيالة وبها الحمام الذي ذكروا أن بلتاس الحكيم عملها للملك قيصر تحمى براج الله اعلم وعندها جبل عجيب به قبر امرء القيس شاعر العرب المشهور

قال ـ اجارتنا ان الخطوب تنوب ـ واني مقيم ما اقام عسيب
اجارتنا انا غريبان ها هنا ـ وكل غريب للغريب نسيب

نكسـر الابروق وهو موضع ببلاد الروم يزار فى الافاق وبلغنى أن بـه
شهداء عهد عمربن الخطاب وانهم لا يبلون ، ويحلقون رؤسهم ويقلمون اظافرهم فقصدته
لها نظرة حقيقية ذلك وهو فى لجف جبل اليه يدخل من باب برج ويمشى الداخـل
تحت الارض الى أن ينتهى الى موضع واسع وهو جبل مكشوف تبين السما من فوقـه
وفى وسطه بحيرة ودايرها بيوت الفلاحين وهم قوم من الروم ، زرعهم ظاهر الموضـع
وبيوتهم داخله وهناك كنيسة لطيفة ومسجد فان كان الذاكر مسلما اتوابه الى المسجد
وان كان نصرانيا اتوابه الى الكنيسة ثم يدخل الى بهو فيه جماعه قد قتلوا وآثـار
طعنات الاسنه وضربات السيوف فيهم ومنهم من قد راح بعض اعصابه وعليهم ثـياب
من القطن لم تتغير وهناك فى موضع اخر اربعة قيام قد سندوا ظهورهم الى حائـط
المغارة ومعهم صبى قد وضع رأسه على يد واحد منهم طوال من الرجال اسمر اللـون
وعليه قباء من القطن مفتوح كأنه يصافح ورأس الصبى على زنده والى جانبه رجل عـلى
وجهه ضربه قد قطعت شفته العليا وظهرت اسنانه وهم بعمايم وهناك مغارة كالفـنة
فيها امرأة وعلى صدرها صغير ماسك بثديها وحلمته فى فيه وهناك ايضا فى موضـع
عال سرير عليه اثنا عشر رجلا فيهم صبى مخضوب بالحناء يداه ورجلاه والروم يزعمـون
أنهم منهم والمسلمون يقولون هم من اصحاب عمر بن الخطاب ورضى الله تعالى عنـه
ماتوا هناك صبرا وما حلق رؤسهم وتقليم اظافرهم فليس لذلك صحة الا انهم قوم قـد

الملحق السادس

وصف مدينة القسطنطينية [1]

ارض الروم هو اقليم عظيم وبه مدن وضياع وقرى وبساتين وفواكه مختلفة الثمار وهى على جانبى البحر القسطنطينى من الجهتين الى المحيط المظلم وهى حى من حس الروم وبين بحر القرم ودونه من جهة بلاد الارض احد عشر عمل عمل حربية فيه خمس حصون وعمل الارسق من عشرة حصون وعمل الافشين وبه اربعة حصون وعمل خيرسون وبه اربعون حصنا وعمل النقلان وفيه ستة عشر حصنا وعمل الارسان وفيه خمس عشر حصن وارمن الروم وهى بلاد اليونان غلبت الروم عليها ويقال انه ببلاد الروم مابه جزيرة فى البحر كلها مدن عامرة وقرى متصلة ورساتيق وحصون منيعه • ومدنهم المشهورة القسطنطينية هى جدية مثله الشكل منها جانبان فى البحر وجانب فى البر وفيه باب الذهب وطولها تسعة اميال وعليها سور حصين ارتفاعه احد وعشرون ذراعا ويحيط بها فصل داير ارتفاع سمكه عشرة اذرع وبها من الابواب مائة باب واكثرها الباب الصمت وهو الباب الكبير • وهو مموه بالذهب وبها القصر المشهور وبه اليديدرك وهو الدرب الذى يوصل منه الى القصر وهو من عجايب الدنيا وهو طمب وزقاق يمشى فيه من شطرين من صور متفرعه من نحاس بديع الصنعه على شكل الآدميين والخيل

---

[1] (١) — ابن الاثير : تحفة العجائب وطرفة الغرائب ورقه ١٥٧ — ١٥٨
نقل عن الاثير معلوماته من كتب الرحالة المناهج والمناهج للرواقى العجائب للقزوينى المسالك والممالك الشرقية للجيهانى والاشارات للهروى

والفيله والسباع • وغير ذالكوهى اكبر من الاشكال الموضوعة على مثالها وبالقصر وبها دار صفوف من العجايب وفى المدينة منارة موقوفه بالرصاص والحديد اذا هبت الريح مالت معها يمينا وشمالا وخلفا واماما ويدخل الناس تحتها الخوف فتطحنه وبها ايضا منارة قريبة من مرساها قد قلب قطعة واحدة وليس لها باب وفيها ايضا منارة قريبة من مرساها قد البست جميعها نحاسا وعليها قبر قسطنطين وهو راكب وقوائم الفرس محكوم بالرصاص حاملا يده اليمنى بأنها مطلوقتسليمه فى الهوى كأنه ساير وفى يده اليسرى كره ويده اليمنى مفتوحه كأنه يشير نحو بلاد الشام وهذه المنارة تبين على مسيرة نصف يوم فى البحر يقولون ان فى يده طلسم يمنع العدو وقيل ان على الكره مكتوب ملكت الدنيا حتى بقيت فى يدى كالكره وخرجت منها هكذا الا املك شيئا وبها ايضا قنطرة يعجز الواصف عن ذكرها ويخرج الى حد التكذيب وبها من النقوش مالا يحصره الواصف •

المراجــع

اولا : المصادر العربية المخطوطة والمصورة .

ثانيا : المصادر العربيـــة المطبوعـــــة .

ثالثا : المراجـع العربية الحديثـــــة .

رابعا : المراجـــع الاوربيــــــــة .

أولا : المصادر المخطوطة والمصورة

ابن الاثيـــــر : (عز الدين ابو الحسن على الجزرى) :

تحفة العجائب وطرفه الغرائب.

مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا

ابن أيبـــــك : (ابو بكر عبد الله) :

كنز الدرر وجامع الغرر

الجزء السابع وعنوانه "الدار المطلوب فى اخبار بنى ايوب"

محطوطة بدار الكتب المصريةرقم ٤٦٤٣ تاريخ

ابن واصـــــل : (جمال الدين محمد بن سالم)

مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب.

صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ مأخوذة مـن نسخة خطية بالمكتبة الاهلية بباريس.

العينـــــى : (بدر الدين محمود الحنفى)

عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمـــان.

الجزء ١٨ مخطوطة بالتصوير الشمسى بدار الكتـــب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

<u>النويـــــرى</u> : (شهاب الدين احمد) :

نهاية الارب فى فنون الادب •

الجزء ٢٧ مخطوطة بالتصوير الشمسى بدار الكتب

المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة •

<u>الهــــروى</u> :

الاشارات الى معرفة الزيارات •

رحلـــة الفاضــل الهــروى

مخطوطة بدار الكتب رقم ٧٤٧٤ (جغرافيا)

ثانيا : المصـادر المطبوعـة

ابن الاثيــــر : (عز الدين ابو الحسن على الجزرى)

* التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكيــة

(القاهرة ١٩٦٣)

* الكامل فى التاريخ (١٢ جزءا)

ابن تغرى بردى : (جمال الدين يوسف ابو المحاسن) :

النجوم الزاهــرة فى ملوك مصر والقاهرة

(القاهرة ١٩٣٦)

ابن جبيــــر : (ابو الحسن محمد ابن احمد)

الاستبصار فى عجائـب الامصار

رحلة ابن جبيـــر

(القاهرة ١٩٠٨)

ابن الجـــوزى : (شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلى .

مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان .

جـ ٨ (حيدر اباد ١٩٥٢)

ابن خلـدون : (عبد الرحمن بن محمد)
العبر وديوان المبتدأ والخبر
(القاهرة ١٣٢٢)

ابن خلكـــان : (شمس الدين ابو العباس احمد)
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمـــان .
٣ اجزاء
(القاهرة ـ ١٩٤٨

ابن رستـــة :
الاعـــلاق النفيســـة
(ليـدن ـ ١٨٩١)

ابن سعيد المغربي :
كتاب بسط الارض في الطول والعرض.
تحقيق خوان قرنيطنيـــــى
(تطوان ـ ١٩٥٨)

ابن شاكر الكتبي : (صلاح الدين محمد)
الوافـي بالوفيـــات
(جزءان في مجلدين)
(مطبعة بولاق)

ابن شـداد : (القاضى بهاء الدين)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
(القاهرة ١٣١٧ هـ)

ابن العبرى : (غـريغوريوس الملطـى)
تاريخ مختصـر الدول
(بيروت ١٩٥٨)

ابن العديـم : (كمال الدين عمر بن احمد)
زبدة الحلـب فى تاريخ حلب
جزءان نشرهما سامى الدهـان
(دمشق ١٩٤٥ـ١٩٥١)

بقية الكتاب مخطوطة بدار الكتب

ابن العمـاد : (عبد الحى بن احمد الحنبلى)
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب
طبعة مكتبة القدس (١٣٥١)

ابن القلانسـى :

ذيل تاريـخ دمشـق

(بيروت ١٩٠٨)

ابن مسكويه : ابو حيان التوحيدى
تجارب الامم
(مصر ١٣٢٢)

ابن مماتى : (الوزير الاسعد الخضير شرف الدين ابى المكارم)
قوانين الدواوين.
(القاهرة ١٢٩٩)

ابن النديم : (محمد بن اسحق بن ابى يعقوب)
الفهرست
(القاهرة ١٩٠٧)

ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم)
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب
نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥ هـ
فى ثلاثة اجزاء.
بقية الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب
(القاهرة ١٩٦٠)

ابن الوردي : (ابو جعفر زين الدين عمر) :

تتمة المختصر في اخبار البشر

المعروف بتاريخ ابن الوردى

(القاهرة ١٢٨٥ هـ)

ابو شامة : (شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن المقدسى)

كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين

(القاهرة ١٢٨٧)

ذيل الروضتين (القاهرة ١٩٤٧)

ابو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل)

المختصر في اخبار البشر المعروف بتاريخ ابى الفدا

(القاهرة ١٢٣٥هـ)

ابوالمحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

(القاهرة ١٩٢٩م)

الادريسى : محمد بن محمد عبدالله بن ادريس

نزهة المشتاق فى اختراق الافاق فى ذكر الامصار والاقطار

والبلدان والجزر والمدين والافاق.

(روما ١٨٧٨ م)

الاصفهانى : (عماد الدين محمد)

* تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٣١٨)

* الفتح القسى فى الفتح القدسى (القاهرة ٣٢٢٥)

البنداري : الفتح بن على بن محمد

زبدة النصرة ونخبة العصره وهو مختصر نصرة الفترة

وعصرة القطرة لعماد الدين الكاتب الاصفهانى

(القاهرة ـ ١٣١٨)

التطيلي : (بنيامين بن يونه)

الرحلة

(بغداد ـ ١٩٤٥)

الطبري : محمد بن جرير

تاريخ الامم والملوك

(القاهرة ـ ١٣٢٦ هـ)

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود

عجائب المخلوقات

(مطبعة التقدم القاهرة)

القلقشندي : (ابو العباس احمد)

صبح الاعشى فى صناعة الانشا

١٤ جزء

(القاهرة ـ ١٩١٣)

المسعودي : علي بن الحسين بن علي المسعودي
مروج الذهب ومعادن الجوهر
(اربعة اجزاء)
(القاهرة ١٣٨٢هـ)

المقدسي : ابوعبدالله شمس الدين محمد بن احمد
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
(ليدن ١٨٧٧م)

المقريزي : (تقي الدين احمد بن علي)
* السلوك لمعرفة دول الملوك
تحقيق محمد مصطفى زيادة
(القاهرة ـ ١٩٣٦)

* المواعظ والاعتبار
(مصر ١٣٢٥)

* اتعاظ الحنفا
(ليبزج ١٩٠٩م)

النويـــــري : (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب)

نهاية الارب في فنون الادب

(القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ)

ياقـــــوت : (شهاب الدين ابو عبد الله الحموي)

معجم البلدان ـ ٥ مجلدات

(القاهرة ـ ١٣٥٩ هـ)

الانطاكي يحيى بن سعيد :

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق

(بيروت ـ ١٩٠٩)

ثالثا : المراجع العربية الحديثة

ارشيبالد (لويس) :

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط

ترجمة أحمد محمد عيسى

(القاهرة)

بينز (نورمان) :

الامبراطورية البيزنطيــــة

ترجمة حسين مؤنس

(القاهرة ١٩٥٠)

حبشى (حسن) :

الحروب الصليبية الاولـــى

(القاهرة ١٩٤٧)

نور الدين والصليبيــون

(القاهرة١٩٤٨)

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاسلام السياســى

(القاهرة ١٩٤٨)

حسن (زكي محمد) :

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

(مصر ١٩٤٥)

تراث الاسلام

(القاهرة ١٩٣٦)

حسنين (عبدالنعيم) :

سلاجقة ايران والعراق

(القاهرة ١٩٥٩)

داوسون ، كروستوفر :

تكوين اوربا

ترجمة سعيد عبدالفتاح عاشور ، محمد مصطفى زيادة

(القاهرة ١٩٤٧)

ديل (شارل) :

البندقية جمهورية ارستقراطية

ترجمة احمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق اسكندر

(القاهرة ١٩٤٧)

رنسمان (ستفين) :

الحضارة البيزنطيـــة

ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد

(القاهرة ١٩٦١)

زامبـاور :

معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى

ترجمة زكى محمد حسن وحسن احمد محمود

(القاهرة ٥١ ، ١٩٥٢)

زيـــادة (محمد مصطفى) :

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

زيادة (نقـــولا) :

الرحالـــة العـــرب

(القاهرة ١٩٥٦)

زيدان (جورجى) :

تاريخ آداب اللغة العربية

(القاهرة ١٩١٣)

سمداوى (نظير حسان) :

الحرب والسلام زمن العدوان الصليبـــى

(القاهرة ١٩٦١)

خمسة من مؤرخو الحروب الصليبيـــة

(القاهرة ١٩)

الصياد (فؤاد عبد المعطى) :

المغـــول فى التاريـــخ

(القاهرة ١٩٦٠)

عاشور (سعيد عبد الفتاح) :

الحركة الصليبية (جزءان)

(القاهرة ١٩٦٣)

العدوى (ابراهيم احمد) :

الامبراطوريـــة البيزنطيةوالدولةالاسلامية

(القاهرة ١٩٥١)

العرينى (السيد الباز) :

الدولة البيزنطيـــــة

(القاهرة ١٩٦١)

الشرق الاوسط والحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٦٣)

مؤرخو الحروب الصليبيـــة

(القاهرة ١٩٦٠)

مصـر فى عصر الايوبييـــن

(القاهرة ١٩٦٠)

فشر (هـ أ ٠ ل) :

تاريخ اوربا العصور الوسطـــى

ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى .

(القاهرة ١٩٥٤)

موسـى (عمـر) :

ادب الدولة المتتابعة عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك

(دار الفكر الحديث ـ لبنان)

كلارى : (روبرت) :

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين

ترجمة حسن حبشى

(القاهرة ١٩٦٤)

رابعـا : المراجع الاوربيـــة

Bayns (N), Moss:

Byzantium an . introduction to East Roman Civilization.

Oxford 1948.

Berry :

The Second Crusade, in setton :

History of the crusades I ch. XV.

Branrd:(Charles):

Saladin and Byzantium.

(speclum 1945 vol xx).

Brooks, E.W.,:

The Arab in Asia minor.

Arapic lists of the Byzantine themes.

(Journal of Hellenic Studies vol xxI

Brooks (E.W.)

The relation Between the Empire and Egypt (Byzantimsch Zeitschrift 1939 XX II .

Cahen (C.):

La Syrie du Nord à lepoque des Croisades.

(Paris 1940)

Cambridge Med. Hist.

(Camb. 1957

Chalandon (F.):

Essai sur la Regne d'Alexis comnene.

(Paris 1900)

Chalandon (F.):

Histoire de la Premiere Croisade.

(Paris 1925)

Les Comnenes. 2 vols.

Paris 1900-1912.

Davis (Rev. E. J.):

The invacion of Egypt by Louis IX of France.

London - 1897

Diehl, Charles (H.):

History of the Byzantine Empire

(N.Y. 1945).

Encyelopedia of Islam

London 1913

Gibb(H.A.R.):

The Claphite and the Arab State. in Setton: History of the crusades vol. I.

( )

Gibbon (E.):

Decline and Fall of the Roman Empire.

vol. VI

London 1957

Grousset:

Histoire des Croisades 3 vols.

Paris 1936.

Heyd: Hist. du commerce du Levant au

Moyen Age. 2 vols.

(Leipzig 1923).

Howorth, Henry (H.):

History of the Mongols.

London 1880.

Joinville:

Histoire de Saint Lovis Led. N. de

Waily) - Paris 1874

Joinville:

History of Saint Louis (by Joon Evans)

(   )

La monte :

Byzantine Empire and crusading states

(Byzantion 1932
Tom vii)

(Bruxelles 1932)

Lane-Poole (S.):

Saladin and the fall of the Kingdon of Jerusalem.

(London 1926).

A History of Egypt in the middle ages

(London 1901)

Miller, William:

Trebizond, The last Greek Empire

(London - 1920)

Essays of the latin Orient.

(Camb. 1921-1925)

Ostrogorsky (G.):

Hist. of the Byzantine State (Tran. by Joan Hussey).

(Oxford 1956)

Runciman (S.):

A Hist. of the Crusades. 3 vols

(Camb. 1954)

Setton:

A Hist. of the Crusades 2 vols

(Philadelphia

Pirenne Jacques:

The Tides of History. 2 vols.

Wiet (G.):

L'Egypte A rabe (Hist. de la Nation Egyptienne) IV.

William of Tyre:

A Hist. of Deeds Done Beyond the sea. (Trans. Babcock, Krey) 2 vols

(Columbia 1943)

Vasiliev (A.A.):

The Foundation of Empire of Traizond (speclum journal of Medival studies vol xI

(Camb. 1945)

Hist. of the Byzantine Empire. 2 vols

(Madison 1952)